

السيّدة دالاوي

ترجمة : عطا عبد الوهاب

رواية

فرجينيا وولف

السيّدة دالاوي

السيّدة دالاوي / رواية إنجليزيّة
فرجينيا وولف / مؤلّفة من بريطانيا
عطا عبد الوهاب / مترجم من العراق
الطبعة العربية الثانية ، ١٩٩٨



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي موكيالي ،
تلفاكس : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٦٠٥٤٣٢ ، تلفاكس ٦٨٥٥٠١
تصميم الغلاف والإشراف الفني :
®
لوحة الغلاف ستوديو التماثيل، ١٩٣٩ :
راين دراير ، هولندة
الصف الضوئي :
حكمت مشموشي، المؤسسة العربية ، بيروت

فرجينيا وولف

السيّدة دالاوي

رواية

ترجمة: عطا عبد الوهاب



تقديـــم

كتبت فرجينيا وولف (1882 ـ 1941) تسع روايات ظهرت بين 1915 و1941. وكانت رواية « السيدة دالاواي » التي نقدمها الى القراء رابع رواية تظهر لها ، وقد نشرت سنة 1925. ينحصر زمن الرواية بيوم واحد فقط من حياة كلاريسا دالاواي ، الزوجة العصرية لأحد أعضاء البرلمان ، لكنه زمن يتشعب الى أيام ماضية تتدفق فيها الذكريات . وبهذا قطعت الكاتبة صلتها بالشكل التقليدي لكتابة الرواية الانكليزية ؛ اذ أخذ يجري عرض الأحداث ورسم الشخوص لا بطريقة التصوير المباشر بل عن طريق الانطباعات التي تحدث ، والذكريات التي تمر ، في عقل الشخصية الأولى في الرواية وفي عقول الشخصيات الأخرى ، الرئيسية منها والثانوية ، في ذلك اليوم الواحد الذي كانت السيدة دالاواي ستُقيم فيه حفلة كبرى .

يتميز هذا الأسلوب الجديد بظهور ما يسمى بتيار الوعي ، او تداعي الذاكرة ، ويفوق في أهميته تيار السرد النظامي للعالم الخارجي وما فيه والذي كان يطبع الأسلوب التقليدي .

ويرى النقاد أن فرجينيا وولف بلغت في هذه الرواية بواكير نضجها الذي سيتطور فيما بعد بروايات أخرى مثل رواية « الى الفنار » (1927) ورواية « الأمواج » (1931) .

يتميز اسلوب هذه الكاتبة بتسليط الاهتمام ايضاً على المسائل الصغيرة وذلك لخلق حس بالثراء العظيم لنسيج الحياة الواقعية اليومية . وقد عرّفت « الواقع » في محاضرة لها ألقتها في جامعة كيمبردج سنة 1928 بأنه « شيء غريب الأطوار ، شيء لا يمكن الاعتماد عليه مطلقاً ـ فهو يوجد أحياناً في

درب مترب ، وأحياناً في قصاصة من جريدة متروكة في الشارع ، وأحياناً في نرجسة برية في ضوء الشمس . . . والروائي يفوق غيره من الناس في اقتناص فرصة العيش بين هذا الواقع المتنوع . . . ان عليه أن يجمعه ويوصله إلى الآخرين » . وقد تمكنت فرجينيا وولف من جمع ذرات هذا الواقع وإيصاله محبوكاً الى القراء سواء في هذه الرواية أو في أعمالها الأخرى .

ع . ع

20 أيلول 1985

قالت السيدة دالاواي إنها ستشتري الزهور بنفسها .

ذلك أن لوسي قد حُدِّدت لها أعمالها . الأبواب ستُخلع عن مفاصلها؛ عمال رامبيلماير قادمون . وجال في خاطر كلاريسا دالاواي أن هذا ، من ثم ، صباح لا مثيل له ـ صباح رائق كأنه قد انبثق لأطفال يلعبون على شاطىء البحر .

يا له من مراح ! يا له من إنغمار ! ذلك أن الأمر قد بدا لها كذلك دائماً لما كانت مفاصل الشبابيك تصرف صريفاً خافتاً تكاد تسمعه الآن ، فتفتح النوافذ الكبيرة على مصاريعها في بورتون وتنغمر انغماراً في الهواء الطلق . كان الهواء في الصباح الباكر هناك نقياً ، هادئاً ، أكثر سكوناً من هذا بالطبع ؛ لكأنه خفقة الموج ؛ كان بارداً وحاداً ومع ذلك (بالنسبة لفتاة في الثامنة عشرة كما كانت آنئذ) فإنه وقور ، فكانت تحس ، وقد وقفت عند النافذة المفتوحة ، أن شيئاً ما فظيعاً على وشك الحدوث ؛ كانت تتطلع الى الأزهار ، الى الأشجار والدخان يتلوى من حولها وطيور الغدفان تعلو وتهبط ؛ كانت تقف وتتطلع الى ان قال بيترولش « تتأملين وأنت بين الخضروات » ؟ ـ هل كانت تلك هي الجملة ؟ ـ « إني أُفضّل الناس على القرنبيط » ـ هل كانت تلك هي الجملة ؟ لا بد أنه كان قد قالها على الإفطار ذات صباح حين خرجت الى الشرفة ـ بيترولش . إنه سيعود من الهند ذات يوم قريب ، في حزيران أو تموز ، نسيت أيهما ، ذلك ان رسائله مملة لدرجة فظيعة ؛ إنما هي أقواله التي يتذكرها المرء ؛ عيناه ؛ سكينته الصغيرة التي يحملها في جيبه ، ابتسامته ؛ تذمره ، وأقوال بسيطة

كهذه عن اللهانة ، في حين تكون ملايين الأشياء الأخرى قد تلاشت كلياً ـ ويا للغرابة !

تصلبت قليلاً وهي تقف على الرصيف ، تنتظر مرور شاحنة دارتنول. دار في خلد سكروب برفيز أنها إمرأة فاتنة (إذ يعرفها كما يعرف المرء جيرانه من السكان في ويستمنستر، حي البرلمان) ؛ ثمة سمة من سمات الطير تحف بها، طير الزرياب، أخضر ـ زرقاوي، فهي خفيفة الوطء، مرحة، وإن كانت قد تجاوزت الخمسين وطفحت بالشيب منذ مرضها. هنالك حطت، دون أن تراه، وهي تنتظر العبور، منتصبة القوام .

كانت كلاريسا واثقة بأن المرء ليشعر من جراء السكن في حي ويستمنستر ـ كم من السنين الآن ؟ أكثر من عشرين، ـ حتى وهو في خضم حركة المرور، أو مستيقظ من نومه ليلاً، بسكينة، أو بجلال من نوع معين، انه ليشعر بتوقف يستعصي على الوصف، بتوتر (لكن ربما كان ذلك بسبب قلبها، وقد تأثر، على ما يقولون، بالانفلونزا) وذلك قبيل ان تدق ساعة بيغ بن. ها هي وقد انطلقت ترن عالياً. نذيرٌ في البداية، يتماوج موسيقياً ؛ ثم الساعة، لا مسترد لها. الدوائر البطيئة المثقلة ذابت في الهواء. قالت كلاريسا في نفسها، وهي تعبر شارع فكتوريا، ما نحن إلا مغفلون. ذلك أن الله وحده يعلم لِمَ يحب المرء الدنيا هكذا، كيف يراها المرء هكذا، يختلقها اختلاقاً، يبتنيها حوله، يقلبها ويثنيها، يخلقها في كل لحظة من جديد، لكن ارث النسوة البائسات، جلوساً عند العتبات (يشربن سقوطهن) يفعلن الشيء ذاته ؛ شعرت كلاريسا أنها على يقين أن امرهن هذا لا يمكن تدبره بقوانين برلمانية لذلك السبب بالذات : إنهن يحببن الحياة، والحياة في عيون الناس، في البخترة والتشرد والخبط، في الجئير والصخب؛ والعربات والسيارات والحافلات والشاحنات، وجملة لوحات الاعلان على الصدور والظهور وهم يشحطون أقدامهم ويتمايلون ؛ والفرق النحاسية ؛ والأرغن اليدوي الدوار، وفي النصر والرنة والنشيد الغريب العالي لطائرة ما فوق الرؤوس هي ما

تحب؛ الحياة ؛ لندن ؛ هذه اللحظة من حزيران .

ذلك أنه كان منتصف حزيران. الحرب انتهت، إلا بالنسبة لبعضهن كالسيدة فوكسكروفت في السفارة ليلة أمس وهي تحرق الأرَم لأن ذلك الولد اللطيف قد قتل والآن يجب ان يؤول القصر الريفي القديم الى أحد أبناء عمومته ؛ أو كالليدي بكسبور والتي افتتحت سوقاً خيرية، كما يقولون، والبرقية بيدها، جون، الأثير لديها، قتل ؛ لكن الحرب انتهت، شكراً لله انتهت. إنه حزيران والملك والملكة في القصر، ومع أن الموسم ما زال مبكراً جداً فهناك في كل مكان ثمة خفق، ثمة حراك بين المهرات المخبة، وقرع مضارب الكريكيت في ساحات لوردز وأسكوت ورانيلاغ وكُل البقية الباقية ؛ ساحات تغلفت بشاش ناعم من هواء الصباح الأزرق الداكن الذي ما أن يرتفع النهار حتى يفك شدادها، ويضع على مروجها الخضر المهرات المتقافزة، وما أن تضرب قوادمها الأمامية الأرض حتى يثب عليها الفتيان مندفعين، والفتيات المتضاحكات بالموسلين الشفاف يأخذن، حتى في هذا الوقت، بعد الرقص طيلة الليل، يأخذن كلابهن الخرقاء الكثة الشعر للمشي ؛ وحتى في هذا الوقت، في هذه الساعة، فإن أرامل النبلاء الحذرات ينطلقن بسياراتهن لقضاء مشاغل غامضة ؛ والجوهريون يخبطون في واجهاتهم بالحلي الزائفة وبالأحجار الكريمة من الماس، بالدبابيس الحلوة العتيقة الخضراء خضرة البحر في أوضاع من طابع القرن الثاني عشر لإغراء الأمريكيين (لكن على المرء أن يتوخى التقتير، ألا يشتري أشياء بتهور لأليزابيث)، ثم هي، أيضاً، تحب الأمر بعاطفة خرقاء ومخلصة، كونها جزءاً من الأمر، ومذ كان قومها ذات يوم من حاشية البلاط في زمن الملوك القدامى فإنها، هي أيضاً، سوف توقد الشموع وتضيء الأنوار في تلك الليلة ذاتها ؛ سوف تقيم حفلتها. لكن ما أغرب الصمت، عند دخول المنتزه ؛ والغبش ؛ والهمهمة، والبط السعيد الوئيد ؛ والطيور البطينة تتهادى ؛ ومن هذا القادم وظهره الى أبنية الحكومة، الأمر الذي يليق به كل اللياقة، حاملاً صندوق الرسائل المختوم بالشعار الملكي، من القادم سوى هيو ويتبريد ؛ صديقها القديم هيو ـ هيو الرائع !

قال هيو، بتودد مفرط نوعاً ما : « أسعدت صباحاً يا كلاريسا ! إلى أين تذهبين ؟ » ذلك ان احدهما قد عرف الآخر منذ الطفولة .

قالت السيدة دالاواي : « إنني أحب المشي في لندن. نعم، إنه أفضل من المشي في الريف » .

لقد جاءا تواً هو وزوجته لمراجعة الأطباء، لسوء الحظ. الآخرون يجيئون لمشاهدة اللوحات ؛ يذهبون إلى الأوبرا، يأخذون بناتهم للتنزه في الهواء الطلق ؛ وآل ويتبريد يجيئون « لمراجعة الأطباء ». إن كلاريسا قد زارت زوجته افلين ويتبريد مراراً لا عد لها في دار التمريض. هل أن افلين مريضة ثانية ؟ قال هيو ان افلين ليست على ما يرام ؛ وبنوع من نفخة أو امتلاء في جسده المتكامل الهندام، جسده الرجولي، الوسيم للغاية، المكسو أمثل الكساء (إنه يكاد يكون حسن الملبس اكثر مما ينبغي دائماً، لكنه يفترض فيه ان يكون كذلك وله عمله البسيط في البلاط) أنبأها بأن زوجته تشكو من بعض السقم الداخلي، ليس شيئاً خطيراً، الأمر الذي ستفهمه كلاريسا، كصديقة قديمة، دون ان تتطلب منه توضيحاً. آه نعم، تشكو من ذلك السقم بالطبع ؛ يا له من إزعاج ؛ وشعرت بحنان الأخت البالغ وبالتحرج الغريب في الوقت ذاته من قبعتها. ليست القبعة المناسبة للصباح الباكر، فهل هذا هو السبب ؟ ذلك أن هيو يجعلها تشعر دائماً، وهو ينطلق على عجل، رافعاً قبعته بإفراط نوعاً ما، بأنها تكاد تكون فتاة في الثامنة عشرة، وبالطبع انه قادم لحفلتها الليلة، افلين تصر عليه كل الإصرار، انما سيتأخر قليلاً بعد حفلة القصر الملكي التي عليه ان يأخذ اليها أحد أولاد جِمْ - انها تشعر بالصبيانية المدرسية ؛ لكنها متعلقة به، ويرجع هذا جزئياً الى معرفتها به طيلة العمر، لكنها تحسبه حقاً من النوع الطيب على طريقته الخاصة، وإن كان ريتشارد يكاد يجن جنونه منه، أما بيتر ولش فإنه لم يغفر لها أبداً مودتها له حتى يومنا هذا .

بوسعها أن تتذكر مشهداً بعد آخر مما كان يجري في بورتون ـ بيتر مشتاط غضباً ؛ وهيو بالطبع ليس نداً له بأي شكل من الأشكال، لكنه ليس ذلك الأبله الأكيد الذي يتخيله بيتر ؛ ليس لوحاً جامداً لا غير. حين ارادت امه ان يقلع عن الصيد أو أن يأخذها الى باث [مدينة الحمامات المعدنية] فإنه فعل ذلك دون أن ينبس بكلمة ؛ انه حقاً غير أناني، وأما القول، كما يدعي بيتر، انه لا قلب له ولا عقل، وأنه لا شيء سوى أصوليات سيد انكليزي مهذب، فإنما هذا هو عزيزها هيو في اسوأ احواله لا غير ؛ لعله شخص لا يطاق ؛ لا يحتمل ؛ لكنه من أروع ما يمكن للمشي معه في صباح كهذا .

(حزيران استل كل ورقة على الشجر. وأُمهات حي بمليكو الشعبي يرضعن صغارهن. والرسائل يتبادلها الأسطول مع وزارة البحرية. وشارع أرلنغتون وبيكاديللي يبدوان وكأنهما يغيضان الهواء بالذات في المتنزه فيرفعان أوراقه على نحو ساخن، على نحو لامع، فوق أمواج من تلك الحيوية الرائعة التي تحبها كلاريسا. أن ترقص، أن تركب الخيل، إنها قد شغفت حباً بكل ذلك) .

ذلك أنهما، هي وبيتر، قد يفترقان لمئات السنين، إنها لم تكتب له رسالة على الاطلاق ورسائله جافة كالحطب إنما بغتة يدهمها خاطر، لو أنه كان معي الآن فماذا سيقول ؟ ـ إن أيّاماً معينة، مشاهد معينة، تعيده اليها بسكون، بدون المرارة القديمة ؛ لعل هذه هي مكافأتها على ما أبدته من اهتمام بالناس ؛ لقد عادا الى وسط متنزه سان جيمز في صباح رائع ـ عادا فعلاً. لكن بيتر ـ لم ير أبداً اي شيء من ذلك كله. انه سيضع نظارته على عينيه، إن طلبت منه ذلك، وسينظر. حالة العالم هي التي تثير اهتمامه، واغنر، شعر پوب، طبائع الناس أزلياً، وعيوب نفسيتها هي بالذات. كيف كان يوبخها ! كيف كانا يتجادلان ! قال إنها ستتزوج من رئيس وزراء وتقف في أعلى السلم ؛ دعاها بالمضيفة

المثلى (بكت من جراء ذلك في غرفة نومها)، قال : إن فيها مكونات المضيفة المثلى .

وهكذا فإنها لا تزال تجد نفسها تجادل نفسها في متنزه سان جيمز، لا تزال توحي لنفسها أنها كانت على صواب ـ ولقد كانت كذلك ـ ألا تتزوجه. ففي الزواج يجب أن يتوافر ثمة ترخيص بسيط، استقلال بسيط، بين أناس يعيشون معاً يوماً بعد يوم في بيت واحد، وهذا ما يعطيها إياه ريتشارد، وتعطيه هي إياه. (أين هو هذا الصباح، مثلاً ؟ في لجنة ما، لم تسأل أبداً ما هي). إنما مع بيتر كل شيء يجب اقتسامه ؛ كل شيء يجب التدقيق فيه. وكان الأمر لا يطاق، وحين تطورت المسألة الى ذلك الشجار في الجنينة الصغيرة عند النافورة، كان عليها أن تفصم علاقتها به وإلا كانا يتحطمان، يتدمران كلاهما، كما كانت مقتنعة ؛ وإن كانت قد حملت معها لسنين شيئاً كالسهم يغرز في قلبها الحزن، العذاب : ثم هول اللحظة حين أخبرها أحدهم في حفل موسيقي أنه قد تزوج من امرأة التقاها على الباخرة وهو في طريقه الى الهند ! لن تنسى كل ذلك ابداً. لقد سماها باردة، بلا قلب، متكلفة للحشمة. إنها لم تستطع أبداً أن تفهم كيف يهتم بالآخرين. لكن أولائك النسوة الهنديات استطعن ذلك على ما يفترض ـ سخيفات، حسناوات، ساذجات مهلهلات. وإنها قد بددت اشفاقها. ذلك أنه سعيد تماماً، كما طمأنها ـ سعيد كلياً، وإن كان لم يحقق شيئاً مما تكلموا عنه على الإطلاق، إن حياته بأسرها كانت فشلاً. فأضاف هذا غضباً إلى غضبها .

بلغت بوابات المتنزه. وقفت لحظة، تتطلع الى الحافلات في بيكاديللي .

ولن تتفوه الآن عن أي شخص في العالم بأنه كان كذا أو كان كيت. لقد شعرت بأنها فتية جداً، وفي الوقت ذاته هرمة بصورة لا يوفيها كلام. إنها ثاقبة تقص كالسكين خلال كل شيء وهي في الوقت ذاته خارجاً،

تنظر. وإذ كانت ترقب التاكسيات شعرت بحس سرمدي بكونها في الخارج، في الخارج، بيداً في عرض البحر ووحدها، كانت تشعر دائماً بأن من الخطر جداً، جداً، العيش حتى ليوم واحد. لا لأنها تظن نفسها شاطرة، أو اكثر من الاعتيادي بكثير. اما كيف شقت طريقها في الحياة ببضع جذاذات من المعرفة زودتها بها الآنسة دانيال الألمانية فإنها لا تدري. انها لا تعرف شيئاً، لا من اللغة، لا من التاريخ، وهي لا تكاد تقرأ كتاباً الآن، عدا كتب المذكرات في سرير النوم، مع هذا فالأمر بالنسبة لها يستغرقها كلياً، كل هذا، التاكسيات تمر، وهي لن تقول عن بيتر، ولن تقول عن نفسها، أنا كذا، وأنا كيت .

دار في خلدها وهي تمشي أن موهبتها الوحيدة هي معرفتها بالناس بالسليقة تقريباً. لو انك تضعها في غرفة مع احدٍ ما ففي الحال يرتفع ظهرها كظهر قطة، أو تموء. قصر دفنشاير، قصر باث، والقصر الذي فيه ببغاء الخزف، وكانت قد رأتها جميعها ذات مرة وكلها مضاءة، وتذكرت سيلفيا وفريدي وسالي سيتون ـ مثل هذه الزرافات من الناس، والرقص طيلة الليل، وعربات الجر تمضي متثاقلة الى السوق، والسياقة رجوعاً الى البيت عبر المتنزه. وتذكرت أنها رمت مرة شلنا في بحيرة السرپانتاين. على ان الجميع يتذكرون، والذي تحبه هي هو هذا، هنا، الآن، أمامها، السيدة البدينة في التاكسي. وتساءلت في نفسها وهي تسير نحو شارع بوند هل يهم اذن، هل يهم أنها لا بد منتهية كلياً بشكل محتم، ان كل هذا يجب أن يستمر بدونها، هل تستنكر ذلك ؟ أو أن الاعتقاد بأن الموت ينهي بالتأكيد لا يغدو مورثاً للسلوان ؟ انما وعلى نحو ما في شوارع لندن، على مد الأشياء وجزرها، هنا، هناك، فإنها باقية، بيتر باق، كل منهما يعيش للآخر، كونها، كما هي موقنة، جزءاً من الأشجار في مسقط رأسها، من البيت هناك، البشع والآيل على ما هو عليه الى السقوط، جزءاً من أُناس لم تلتقهم أبداً، كونها منشورة كالضباب بين الناس الذين تعرفهم خير معرفة، والذين يرفعونها على أغصانهم كما قد رأت الأشجار ترفع الضباب

لكنها تنتشر بعيداً جداً على الدوام، حياتها، ذاتها. لكن ما الذي كانت تحلم به وهي تنتظر في واجهة مكتبة هاتشاردز ؟ ما الذي كانت تحاول استرداده ؟ انه صورة من الفجر الأبيض في الريف، اذ قرأت في الكتاب المفتوح :

لا تخشين بعد اليوم قيظ الشمس
ولا عصفات الشتاء الغاضبة[1]

إن هذا العصر المتأخر من تجربة العالم قد ولّد فيهم جميعاً، جميع الرجال والنساء، بئراً من الدموع. الدموع والحزن، الشجاعة والاصطبار، التحمل الرزين والمرفوع الرأس. لاحظ، مثلاً، المرأة التي تعجب بها كل الاعجاب، الليدي بكسبورو، تفتتح السوق الخيرية .

رأت في واجهة المكتبة كتباً كثيرة متنوعة فيها الغث والسمين، مذكرات السيدة اسكويث وكتاب صيد الوحوش في نايجيريا، وكل الكتب مفتوحة. عدد كبير جداً من الكتب، لكن ليس بينها ما يصلح لأخذه الى ايفلين ويتبريد وهي في دار التمريض. ليس هناك شيء يؤنسها ويجعل تلك المرأة الضئيلة الذابلة كل الذبول تبدو، عند دخول كلاريسا عليها، ودية ولو لحظة واحدة، قبل أن تتهيأ للكلام المعتاد الذي لا ينقطع عن أسقام النساء. ما أشد ما أرادت ذلك ـ أن يبدو الناس مسرورين حين تدخل، هكذا قالت كلاريسا في نفسها واستدارت وعادت تسير نحو شارع بوند، منزعجة، لأن من السخف أن تكون لديها أسباب أخرى لفعل الأشياء. قالت في نفسها وهي تنتظر عبور الشارع، ما أحراها لو كانت واحدة من أولئك الناس مثل رتشارد الذين يفعلون الأشياء لذواتها، في حين أنها تفعل الأشياء في كثير من الأحيان ليس ببساطة، ليس من أجل ذواتها، بل لجعل الناس يفكرون كذا أو كيت، سخف مطبق كما تعلم (والآن رفع الشرطي يده) اذ ما من

(1) من قصيدة لشكسبير، تخاطب فتاة ماتت. (المترجم)

احدِ خُدع ابداً لثانية واحدة. آه لو يسعها ان تعيد حياتها كرة اخرى ! دار في خلدها، وهي تقف على الرصيف، ان لو يسعها لبدت مختلفة حتى في طلعتها !

لو يسعها لكانت، في المقام الأول، سمراء كالليدي بكسبورو، ذات بشرة كالجلد المتغضن وعينين جميلتين. لكانت، كالليدي بكسبورو وئيدة ذات أبهة، ضخمة نوعاً ما، مهتمة بالسياسة كأنها رجل، لها بيت في الريف، محتشمة جداً، مخلصة جداً. انها بدلاً من ذلك ذات جسم رفيع كأصبع البازلاء، ووجه صغير سخيف مدبب كوجه طير. صحيح إنها ترفع قامتها جيداً، ولها يدان وقدمان لطيفتان، وتلبس جيداً مع ملاحظة انها لا تنفق على ملابسها إلا قليلاً. لكن في الغالب الآن يبدو هذا الجسد الذي عليها (وقفت تنظر الى لوحة هولندية)، هذا الجسد، بكل قدراته - لا شيء لا شيء على الاطلاق. إن لديها شعوراً غريباً بأنها هي ذاتها غير مرئية ؛ لا تبصر ؛ غير معروفة ؛ إذ لم يعد هناك مزيد من التزوج، مزيد من انجاب الأطفال الآن، بل ليس سوى هذا السير المذهل والرصين بالأحرى مع البقية الباقية منهم، في شارع بوند، هذه كونها السيدة دالاواي ؛ ليس حتى كلاريسا بعد الآن، هذه كونها السيدة ريتشارد دالاواي .

شارع بوند يفتنها ؛ شارع بوند عند الصباح الباكر في الموسم ؛ في أحسن أحواله. دكاكينه؛ ما من عرض باهر؛ ما من بهرجة؛ مَدَّة واحدة من القماش الصوفي في المخزن حيث اشترى والدها بدلاته لخمسين سنة ؛ بضع حبات من اللؤلؤ ؛ سمكة سلمون واحدة على قطعة ثلج .

قالت : « هذا كل ما هنالك » وهي تتطلع الى دكان السماك. وكررت، « هذا كل ما هنالك »، وهي تتوقف لحظة واحدة عند واجهة دكان القفازات حيث كان يمكنك، قبل الحرب، شراء قفازات تكاد تكون بالغة الكمال. وكان عمها نفسه العم وليام يقول ان السيدة تعرف بحذائها وقفازها. كان قد انقلب على جنبه ذات صباح إبان الحرب. وقال : «

حسبي ما عانيت ». قفازات وأحذية، انها شغوفة بالقفازات ؛ لكن ابنتها، حبيبتها أليزابيث لا تهتم مقدار ذرة بأي من الإثنين .

ولا بمقدار ذرة، قالت في نفسها وهي تمضي قدماً في شارع بوند الى محل الزهور والذي يحفظون لها فيه ما تريد عندما تقيم حفلة ما. اليزابيث تهتم بكلبها اكثر من أي شيء آخر. البيت هذا الصباح يفوح برائحة القار. مع ذلك فإن كلب اليزابيث المسكين أفضل عندها من الآنسة كيلمان ؛ طلاء الدستمبر والقار وما الى ذلك أفضل من جلوسهما حبيستين في غرفة نوم خانقة بصحبة كتاب الصلاة ! إنها لميالة الى القول إن أي شيء هو أفضل من ذلك. لكن، قد يكون ذلك مجرد مرحلة تمر بها كل الفتيات كما قال ريتشارد. قد يكون الأمر غراماً. لكن لم مع الآنسة كيلمان التي أسيئت معاملتها بالطبع ؟ يجب أن يأخذ المرء ذلك بنظر الاعتبار مراعاة لها، وقد قال ريتشارد انها قديرة جداً، ذات عقل تاريخي حقاً. على كل إنهما لا تنفصلان، واليزابيث، ابنتها ذاتها، تذهب لقداس العشاء الرباني ؛ ويا لها كيف تهدمت، ثم كيف عاملت الناس المدعوين للغداء الذي لم تعره أي اهتمام، فتجربتها علمتها ان نشوة الوجد الديني تجعل الناس قساة القلب (كذلك يفعل الايمان بالقضايا) ؛ انه يبلد مشاعرهم، ذلك ان الآنسة كيلمان ستفعل اي شيء من اجل الروس، ستجيع نفسها من أجل النمساويين، لكنها وفي السر تتوقع عذاباً أكيداً، فهي على هذه الدرجة من عدم الاحساس وقد ارتدت المشمع الأخضر الواقي من المطر. لقد لبست ذلك المعطف المطري عاماً بعد عام. وما أن تكون في الغرفة خمس دقائق وهي تتصبب عرقاً، حتى تجعلك تشعر بتفوقها، بنقصك ؛ ما أفقرها هي ؛ ما أغناك أنت ؛ كيف انها تعيش في كوخ بحي الفقراء بلا وسادة او سرير او حصير او اي شيء كان، وروحها كلها صدئة وتلك الظلامة لصيقة بها، طردها من المدرسة خلال الحرب ـ مخلوقة مسكينة، حاقدة، وتعيسة الحظ ! ذلك ان المرء لا يكرهها هي ؛ بل يكره التفكير بها ؛ وهذا التفكير جمع اليه بلا شك الكثير مما لا علاقة له بالآنسة كيلمان، فأمسى طيفاً من تلك

الأطياف التي يصارعها المرء في الليل، طيفاً من تلك الأطياف التي تقف حيالنا وتمص نصف دماء حياتنا، طيف المستبدين والطغاة، وكلاريسا، وبرمية نرد أخرى، لو ظهر السواد بدلاً من البياض، كانت بلا شك ستحب الآنسة كيلمان ! لكن ليس في هذه الدنيا. لا .

على انه قد أشاطها غضباً ان تجعل ذلك الغول الوحشي يتململ فيها ! ان تسمع الأحطاب تتقصم وتشعر بالحوافر تنطبع في أعماق تلك الغابة المثقلة بالأوراق، الروح ؛ ألا تكون راضية بما يقرب من التمام، او آمنة تماماً، ذلك ان الوحش سيتململ في اية لحظة، هذه الكراهية، والتي لها القوة، خاصة منذ مرضها، ان تجعلها تشعر بعمودها الفقري يُكشط ويُؤذى ؛ الكراهية التي تمدها بالألم الجثماني، وتجعل المتعة بالجمال، بالصداقة، بكونها معافاة، بكونها محبوبة وتجعل بيتها بهيجاً، تجعلها كلها تهتز، ترتعش، تنثني كما لو ان هناك حقاً غولاً ينبش في الجذور، كما لو ان ظلّه القناعة ما هي إلاّ حب الذات ! هذه الكراهية !

هراء، هراء ! صاحت تخاطب نفسها، وهي تندفع خلال الأبواب الدوارة لمحل مولباري لبيع الأزهار .

تقدمت، خفيفة الوطء، طويلة القامة، منتصبة كل الانتصاب لكي تستقبلها فوراً بالترحاب الآنسة بيم ذات النقرة في ذقنها، واليدين اللامعتي الإحمرار دائماً، كما لو أنهما قد وضعتا في ماء بارد مع الأزهار .

هنالك ثمة ازهار عشب العايق بزهوره الزرق، البازلّة الملونة، باقات من الليلك والقرنفل، كتل من القرنفل، ثمة ورود ؛ وزهر السوسن اي نعم ـ هكذا استنشقت من الأرومة العذبة للجنينة الأرضية اذ وقفت تتحدث مع الآنسة بيم التي تدين لها بالعون، وتظنها رئيفة، ذلك انها كانت رئيفة من سنين خلت، رئيفة جداً، لكنها تبدو أكبر سناً، هذه السنة، وهي تدير رأسها من طرف الى طرف بين زهور السوسن والورود وجدائل الليلك المتأرجحة وعيناها شبه مغمضتين وهي تعب مستنشقة، بعد ضجيج الشارع،

من الشذى اللذيذ، والبرودة الرهيفة، ثم، واذ تفتح عينها، فيالطلعة الورود ما أزهاها زهو المفارش المكشكشة نظيفة من المكوى موضوعة في صحاف القصب؛ والقرنفل الأحمر بدا قاتماً وأنيقاً، مرفوع الرؤوس، وكل البازلّة الملونة منتشرة في دوارقها، من البنفسجية الصبغة، والبيضاء كالوفر، والشاحبة الاصفرار - كأنه الأصيل والفتيات بفساتين الموسلين خرجن لقطف البازلّة الملونة والورد بعد أن انتهى نهار الصيف البديع، بسمائه التي تكاد تكون سوداء الزرقة، بأعشابه، أعشاب العايق الزرقاء الزهور، بقرنفله، بليلكه بين الأوراق الخضر الكبيرة، وإنه لفي تلك اللحظة بين السادسة والسابعة فإذا بكل زهرة - الورد، القرنفل، السوسن، الليك - تتوهج، بيضاء، بنفسجية، حمراء، برتقالية غامقة؛ كل زهرة تبدو متقدة من ذاتها، بنعومة، بنقاء في ألواحها الغابشة؛ وما أحبها اليها الفراشات البيض الرمادية تدور داخلاً وخارجاً فوق فطيرة الكرز، فوق زهور الربيع البيض المسائية!

وما ان بدأت تنتقل مع الآنسة بيم من قُلّة الى قلة، لتختار ما تريد، حتى قالت لنفسها: هراء، هراء، قالتها على نحو ارفق فأرفق، كأن هذا الجمال، هذا الشذى، هذا اللون، والآنسة بيم تودها، تثق بها، كأن ذلك موجة تذرها تفيض عليها فتحيط بتلك الكراهية، بذلك الغول، تحيط بكل ذلك، وترفعها الى أعلى فأعلى حينما - اوه! طلقة مسدس في الشارع!

قالت الآنسة بيم: «الويل من تلك السيارات» وذهبت الى النافذة لتستطلع وعادت فابتسمت باعتذار ويداها مليئتان بزهر البازلّة الملونة، كما لو ان تلك السيارات، واطارات السيارات، كانت خطيئتها هي بالذات.

ان الانفجار العنيف الذي جعل السيدة دالاواي تقفز والآنسة بيم تذهب الى النافذة وتعتذر انما صدر من سيارة وقفت بمحاذاة الرصيف حيال واجهة محل مولباري لبيع الأزهار بالضبط. والسابلة الذين توقفوا بالطبع وحدقوا لم يتوفر لهم من الوقت إلا ما يكفي لرؤية وجه عظيم الأهمية لصق قماشة تنجيد رمادية متموجة الألوان كصدر الحمام، قبل أن تسحب

الستارة يد رجالية فلم يبق ما يرى سوى مربع من صدر الحمام .

على ان الاشاعات نزلت للتداول فوراً من منتصف شارع بوند الى شارع اوكسفورد من جهة والى مخزن الكينسون للعطور من جهة أخرى، وهي تمر على نحو غير مرئي، غير مسموع، كسحابة، سريعة، اشبه بالغلالة على الهضاب، ساقطة مع شيء من وقار السحاب وسكونه الباغتين، ساقطة فعلاً على وجوه كانت لثانية مضت مبلبلة كلياً. لكن اللغز قد مسحها بجناحه الآن، لقد سمعوا صوت السلطة، وروح الدين اطلت وعيناها معصوبتان كل التعصيب وشفتاها فاغرتان كل الفغر. انما ما من أحد عرف وجه من هذا. أ وجه امير ويلز، وجه الملكة، وجه رئيس الوزراء ؟ وجه من هو ؟ ما من احد عرف .

قال ادغار جَيْ. واتكيس، وحزمة من أنابيب الرصاص حول ذراعه، قال على نحو مسموع وبصورة فكهة بالطبع : « سيارة ريِّس الأزراء » .

وسمعه سبتيموس ورين سميث الذي وجد نفسه غير قادر على العبور .

سبتيموس ورين سميث، عمره يناهز الثلاثين، شاحب الوجه، مستدق الأنف، ينتعل حذاء بني اللون ويرتدي معطفاً رثاً، ذو عينين غابشتين فيهما ذلك الطابع من التخوف الذي يسري الى الغرباء فيجعلهم متخوفين هم ايضاً. العالم قد رفع سوطه ؛ أين سيهوى ؟

وتوقف كل شيء. إن خفق مكائن السيارات يرن كنبض يقرع بدون انتظام خلال بدن بأسره. الشمس اضحت حارة بصورة فائقة لأن السيارة قد توقفت خارج واجهة محل مولباري ؛ السيدات العجائز في الطابق العلوي من الحافلات نشرن مظلاتهن السود ؛ هنا مظلة خضراء، هنا حمراء، تنفتح بطقة صغيرة. السيدة دالاواي، وهي تأتي الى النافذة وذراعاها مليئتان بزهور البازلة الملونة، تطلعت الى الخارج بوجهها الوردي الصغير وقد زُمَّ استقصاء. الكل نظروا الى السيارة. سبتيموس نظر. صبيان على الدراجات الهوائية ترجلوا قافزين. حركة المرور اكتظت. وهنالك وقفت السيارة،

بستائر مسدلة، فظن سبتيموس أن عليها نقشة غريبة كأنها شجرة، وروّعه هذا التجمع التدريجي لكل شيء في مركز واحد أمام عينيه، كما لو أن فرعاً ما يكاد يطفو على السطح فيوشك أن يتفجر لهيباً. إن العالم يتأرجح ويرتعش ويهدد بالتفجر لهيباً. ودار في خلده أنه هو الذي سد الطريق. أليس هو الذي أمسى يُنظر إليه ويشار إليه، أليس هو الذي ثُبّت بثقل هناك، جُذّر في الرصيف، لقصد ؟ لكن أي قصد ؟

قالت زوجته : « فلنذهب سبتيموس »، وهي إمرأة صغيرة ذات عينين واسعتين في وجه مستدق شاحب، فتاة إيطالية. لكن لوكريزيا نفسها لم يسعها إلا أن تنظر الى السيارة والى نقشة الشجرة على الستائر : هل أن الملكة في الداخل هناك ـ تتسوق ؟

والسائق، الذي كان يفتح شيئاً، يقلب شيئاً، يغلق شيئاً، مضى الى الصندوق .

قالت لوكريزيا : « هيا بنا » .

لكن زوجها، هما متزوجان منذ حوالي خمسة أعوام الآن، قفز، وجفل، وقال : « حسناً ! » بغضب، فكأنها قد قاطعته .

لا بد أن يلاحظ الناس، لا بد أن يرى الناس. وذكرت في خاطرها الناس، وهي تتطلع الى المتجمهرين يحملقون بالسيارة، الناس الانكليز، مع أطفالهم وخيولهم وملابسهم، وهي معجبة بهم بصورة من الصور، لكنهم هم « ناس » الآن، لأن سبتيموس قد قال : « سأقتل نفسي » ؛ شيء من الفظاعة أن يقال. لو فرضنا أنهم قد سمعوه ؟ نظرت الى المتجمهرين. أرادت أن تصيح النجدة، النجدة ! لتنادي صبيان القصابين ونسوتهم النجدة ! إنها وسبتيموس قد وقفا في شارع النهر (إمبانكمانت) في الخريف الماضي بالذات مزملين بالبردة ذاتها، وسبتيموس يقرأ في جريدة بدلاً من أن يتكلم، فنتشتها منه وضحكت في وجه الشيخ الذي رآهما ! فالمرء يخفي الفشل. يجب أن تخرج بزوجها الى متنزه ما .

قالت : « الآن سنعبر » .

إن لها حقاً في ذراعه، وإن كانت ذراعاً بلا حس. إنه سيمد لها، هي الفتاة البسيطة جداً، المتهورة جداً، في الرابعة والعشرين فقط، بلا صديق في انكلترا، هي التي تركت إيطاليا من أجله، سيمد لها عظاماً .

إن السيارة بستائرها مسدلة وبهيئة من التحفظ المبهم تقدمت نحو بيكاديللي، وهي لما تزل يُحملَق بها، لما تزل تغضن الوجوه على جانبي الشارع بنفحة التبجيل القاتمة ذاتها سواء لملكة أو أمير أو رئيس وزراء فلا أحد عرف. إن الوجه نفسه لم ير إلا مرة واحدة من ثلاثة أشخاص لبضع ثوان. حتى جنسه هو محل خلاف الآن. لكن ما من شك في أن العظمة كانت جالسة في الداخل، العظمة كانت تمر، مخبّأة، في شارع بوند، لا يفصلها إلا باع عن الناس الاعتياديين الذين يحتمل أن يكونوا الآن، أول مرة وآخرها، في دائرة التخاطب قريباً من الجلالة البريطانية، من الرمز الباقي للدولة الذي سيعرف للاثاريين الفضوليين وهم ينقبون في خرائب الزمان، إذ لندن هي درب مكسو بالحشائش وكل اولئك المسرعين حذو الرصيف في صباح الأربعاء هذا، ما هم سوى عظام مع بضعة خواتم زواج ممتزجة بترابها والحشوات الذهبية للأسنان المنخورة الكثيرة العدد. الوجه في السيارة سوف يعرف عندئذ .

دار في خلد السيدة دالاواي أنها ربما تكون الملكة، وكانت تخرج من محل بيع الزهور حاملة باقاتها : الملكة ! ولثانية واحدة اكتسى وجهها بقسمات الاحتشام المفرط اذ وقفت لدى باب المحل في ضوء الشمس والسيارة تمر ببطء شديد. بستائرها مسدلة. دار في خلد كلاريسا ان الملكة ذاهبة الى احدى المستشفيات ؛ الملكة ذاهبة لإفتتاح سوقٍ ما خيرية .

كان التجمهر فظيعاً بالنسبة الى هذا الوقت من النهار. تساءلت كلاريسا مع نفسها : ما الخبر ؟ أموسم الذهاب الى ساحات السباق، لوردز، اسكوت، هارلنغهام ؟ ذلك ان الشارع كان مسدوداً بالزحام. والطبقات الوسطى البريطانية تجلس جانبياً في الطوابق العليا من الحافلات

مع الرزم والمظلات، اجل، بل حتى مع معاطف الفراء في يوم كهذا، وقالت كلاريسا في نفسها إن هذه هي أسخف من أي شيء يمكن ان يتصوره المرء أبداً واكثر تبايناً عنه ؛ والملكة نفسها قد أخرت ؛ الملكة نفسها غير قادرة على المرور. كلاريسا قد اعيقت في احد جانبي شارع بروك. والسيرجون بكهارست، القاضي العتيد، وقف على الجانب الآخر، والسيارة كانت بينهما (السيرجون قد أصدر أحكامه لسنين وهو يميل الى المرأة الحسنة الهندام) حينما كان السائق، وهو ينحني قليلاً جداً يقول او يظهر شيئاً للشرطي، الذي حيا ورفع ذراعه وهز رأسه وحرك الحافلة الى طرف آخر فمرت السيارة ماضية في سبيلها. لقد أخذت طريقها على مهل وبصورة صامتة جداً .

كلاريسا خمنت ؛ كلاريسا عرفت بالطبع ؛ لقد رأت شيئاً ابيض، سحرياً، مدوراً، في يد الساعي، قرصاً كتب عليه اسم ـ أ اسم الملكة، اسم أمير ويلز، اسم رئيس الوزراء ؟ ـ والذي شق طريقه بقوة بهائه الذاتي متقداً (كلاريسا رأت السيارة تتلاشى، تختفي)، لكي يتوهج بين الشمعدانات، بين النجوم الساطعة والصدور مثقلة بالنياشين، هيو ويتبريد وكل اقرانه، من ذوات انكلترا، تلك الليلة في قصر بكنغهام. وكلاريسا، ايضاً، تقيم حفلة. تصلبت قليلاً ؛ هكذا ستقف على أعلى سلمها .

السيارة ذهبت، لكنها تركت ترجرجاً خفيفاً غشى مخازن القفازات ومخازن القبعات ودكاكين الخياطين على جانبي شارع بوند. ولثلاثين ثانية مالت كل الرؤوس الى الاتجاه نفسه ـ نحو النافذة والسيدات توقفن يتخيرن زوجاً من قفازات ـ هل يكون الى عضد الساعد أو أعلى منه، هل يكون ليموني أو رمادي باهت ؟ ـ ؛ حينما انهيت الجملة حدث شيء ما. شيء هو من التفاهة في مناسبات منفردة بحيث لا تستطيع آلة حسابية أن تسجل ذبذبته وإن كانت قادرة على توصيل الهزات الواقعة في الصين، مع هذا فإنه شيء هو بالأحرى مريع في تمامه وعاطفي في جاذبيته العمومية، ذلك أنه

في كل مخازن القبعات ودكاكين الخياطين نظر الغرباء بعضهم الى بعض وفكروا بالموتى، بالعلم ؛ بالامبراطورية. وفي حانة في زقاق أهان أحد رجال المستعمرات سلالة وندزور، مما أدى الى تبادل الكلمات وتكسير أقداح الجعة والى مشاجرة عمومية، مما تردد صداه على نحو غريب عبر الدرب في آذان الفتيات وهن يقتنين لزواجهن الملابس الداخلية البيضاء المقلمة بشريط أبيض نقي. ذلك أن الهياج السطحي الذي أحدثته السيارة العابرة قد كشط، وهو يترسب، شيئاً عميقاً جداً .

ما ان انزلقت السيارة عبر بيكاديللي حتى استدارت تدخل شارع سان جيمز. ثمة رجال طوال، رجال أشداء، رجال حسنو الملبس بستراتهم الطويلة الرسمية وقمصانهم البيضاء وشعورهم مرخاة الى الخلف، وهم، لأسباب يصعب تمييزها، يقفون في النافذة المدورة أمام مخزن وايت وأياديهم خلف الذيول، يتطلعون الى الخارج، وقد أدركوا بالسليقة ان العظمة قد مرت، فهبط عليهم نور الحضور الأزلي الخافت كما هبط على كلاريسا دالاواي. وفي الحال وقفوا وباستقامة اشد وأنزلوا ايديهم، وبدوا على استعداد لخدمة عاهلهم، حدّ فوهة المدفع، اذا دعت الحاجة، كما فعل اسلافهم من قبلهم. ان التماثيل النصفية البيضاء والمناضد الصغيرة في الخلف مغطاة بنسخ من مجلة تاتلير [مجلة الطبقة النسوية الراقية] وبقناني الصودة، بدت وكأنها تظهر الاستحسان ؛ بدت وكأنها تنبىء بغلّة قمح وفيرة وبالقصور الريفية الانكليزية ؛ وأخذت الهمهمة الخافتة لعجلات السيارة ترجع، وكأنها حيطان شرفة هامسة، صوتاً منفرداً يُصيّر رناناً بجبروت كاتدرائية بأسرها. ثم ان مول براث بملفعتها على الكتفين وهي تحمل ازهارها واقفة على الرصيف قد تمنت للصبي العزيز خيراً (إنه امير ويلز بالتأكيد) وكانت ستقذف بثمن دن من جعة ـ باقة من ورد ـ في شارع سان جيمز لولا ان رأت عين الخفير عليها، وهو يثبّط عجوزاً ارلندية عن ولائها المضاد. الحراس في شارع سان جيمز رفعوا ايديهم بالتحية. وشرطي الملكة اليكساندرا ابدى استحسانه .

في هذه الأثناء تجمع جمهور صغير عند بوابات قصر بكنغهام. انهم، وجميعهم فقراء، انتظروا بخمول، وان بثقة ؛ تطلعوا الى القصر ذاته والعلم يرفرف ؛ الى تمثال الملكة فكتوريا، تتماوج على منصتها، واعجبوا بسلالم مياهها الجارية، بزهورها من الجيرانيوم ؛ اختاروا من السيارات المارة في حي المول اولاً هذه، ثم تلك ؛ وهبوا عواطفهم، بكبرياء، للذين خرجوا بنزهة سياقة من عامة الناس ؛ تذكروا تبجيلهم وذلك ابقاء عليه دون تفريط بينما تمر هذه السيارة او تلك ؛ وأتاحوا للاشاعات أن تتراكم طيلة الوقت في عروقهم وان توتر الأعصاب التي في اعجازهم عند التفكير بأن الأُسرة المالكة تنظر اليهم ؛ الملكة تنحني ؛ والأمير يحيي ؛ عند التفكير بالحياة البهيجة التي انعمت بها السماء على الملوك ؛ وبانحناءات الاحترام النسائية التقليدية، وبيت العرائس القديم للملكة ؛ وبالأميرة ماري تتزوج من رجل انكليزي، وبالأمير - آه ! الأمير الذي شابه، كما يقولون، الملك ادوارد العتيد شبهاً رائعاً، لكنه انحف بكثير جداً. الأمير يسكن في قصر سان جيمز ؛ لكنه قد يأتي في الصباح لزيارة والدته .

هذا ما قالته سارة بليجلي وطفلتها على ذراعيها، وهي تهز قدمها عالياً وسافلاً كأن الطفلة في مهدها في بمليكو، لكنها تبقي عيونها على المول، بينما تحيل اميلي كوتيس نظرها في نوافذ القصر وتفكر بالخادمات، الخادمات اللاتي لا يحصى لهن عد، تفكر بغرف النوم، غرف النوم التي لا يحصى لها عد. وما ان انضم اليهما سيد مسن من الذوات مع كلبه التيريير الابرديني الصغير، ورجال لا يشغلهم شاغل، حتى تزايد الجمهور. المستر باولي، الذي يسكن بشقة في ألباني، والذي ختم على منابع الحياة العميقة بالشمع، لكن بوسعه فك الختم بغتة، وبصورة غير لائقة، وبميوعة عاطفية، بواسطة مثل هذا النمط من الأمور - نسوة فقيرات ينتظرن لرؤية الملكة تمر - نسوة فقيرات، اطفال لطفاء، ايتام، ارامل، الحرب - والعياذ بالله - المستر باولي هذا اغرورقت عيناه بالدموع حقيقة. رف النسيم رفيفاً دافئاً جداً في

المول عبر الأشجار الرفيعة، مروراً بتماثيل الأبطال البرونزية فأهاج شجون المستر باولي الوطنية فرفع قبعته اذ استدارت السيارة ولوح بها عالياً اذ تقربت السيارة واتاح للأُمهات الفقيرات من بمليكو أن يقتربن ملتصقات به، ووقف منتصب القامة كل الانتصاب. السيارة اعجلت .

وفجأة رفعت المسز كوتيس نظرها الى السماء. ان صوت طائرة يصم آذان الجمهور بصورة تنذر بالسوء. ها هي تقبل فوق الأشجار، وتنفث دخاناً ابيض من الخلف، فيلتوي ويلتف، يكتب شيئاً ما حقيقة ! يخط حروفاً في السماء ! الجميع رفعوا أبصارهم .

خرت الطائرة ثم ارتفعت فوراً الى علو شاهق، دارت في حلقة، اسرعت، هبطت، صعدت، وانها مهما فعلت وأيان اتجهت فهي تردف خلفها قضيباً كثيفاً منفوشاً من الدخان الأبيض الذي يلتوي مجدولاً في السماء. بحروف. لكن أي حروف ؟ AC ؟ ثم L ؟ انها حروف لا تثبت إلا لحظة واحدة، ثم تتحرك وتذوب وتمّحي في السماء، والطائرة تنطلق بعيداً ثم بدأت مرة اخرى، في حيز آخر من الفضاء، لتكتب E,K وربما Y .

قالت المسز كوتيس : « بلاكسو » بصوت متوتر، مرتعب، ورفعت بصرها محدقة للأعلى، وطفلها، وهو مستقر في ذراعيها متصلباً وأبيض اللون، حدق للأعلى .

غمغمت المسز بليجلي كأنها تسير في نومها : « كريمو » فحدق المستر باولي للأعلى، وقبعته في يده ثابتة كل الثبات. كان الناس في أرجاء المول بطوله واقفين يرفعون أبصارهم الى السماء. وما أن نظروا حتى غدا العالم بأسره صامتاً صمتاً مطبقاً، وعَبرَ سرب من النوارس السماء، يقوده أحد النوارس اولاً، ثم نورس آخر، وفي هذا الصمت والسلام الفائقين، في هذا الامتقاع، هذا النقاء، قرعت الأجراس إحدى عشرة مرة، والصوت يتلاشى هناك في الأعالي بين النوارس .

استدارت الطائرة واسرعت وانقضت أنى شاءت انقضاضاً دقيقاً بمروق سريع، بانطلاق، كمتزلج على جليد -

قالت المسز بليجلي : « هذا E » -

أو كراقص في حلبة -

غمغم المستر باولي : « إنها توفي Toffee » -

(دخلت السيارة من البوابات ولم ينظر اليها أحد)، وما ان قطعت الطائرة الدخان حتى اسرعت تحلق بعيداً، والدخان يتلاشى ويتجمع حول السحب الفسيحة البيضاء .

لقد اختفت ؛ انها وراء السحاب. لا يسمع لها صوت. ان السحب التي انضمت اليها الحروف المتنوعة تجري دون عائق، فكأن من المقدر لها أن تعبر من الغرب الى الشرق في بعثة مهمة جداً لن يكشف عنها ابداً، ومع هذا فإنها لكذلك بالتأكيد - بعثة مهمة جداً. ثم اذا بالطائرة تهرع بغتة، كقطار يخرج من نفق، فتظهر في متنزه غرين، في بيكاديللي، في شارع ريجنت، في متنزه ريجنت، وقضيب الدخان يلتوي وراءها وهي تخر وترتفع شاهقة وتكتب حرفاً بعد آخر - لكن أي كلمة كانت تكتب ؟

رفعت لوكريزيا ورين سميث بصرها وهي جالسة بجنب زوجها على مسطبة في متنزه ريجنت في الممشى المسمى بالممشى العريض .

صاحت « انظر، انظر، سبتيموس » ذلك ان الدكتور هولمز قد أخبرها ان تجعل زوجها يهتم (قال لا علة فيه سوى أنه منحرف المزاج بعض الشيء) يهتم بأشياء خارج نفسه .

فقال سبتيموس في خاطره وهو يرفع بصره انهم اذن يؤشرون لي. ليس بكلمات حقيقية ؛ بمعنى انه لم يستطع قراءة اللغة، لكن الأمر كان من الوضوح بمكان، هذا الجمال، هذا الجمال الرهيف، واغرورقت عيناه بالدمع لمشهد الكلمات الدخانية تذوي فتذوب في السماء وتهبه، بتصدقها الذي لا ينضب وطيبتها الضاحكة، شكلاً بعد آخر من الجمال الذي لا يمكن تصوره منبئة بنيتها

ان تزوده، مجاناً، والى الأبد، ولمحض النظر، بالجمال، بمزيد من الجمال ! فسالت الدموع على خديه .

قالت احدى المربيات لريزيا ان الكلمة هي توفي ؛ انهم يعلنون عن توفي فبدأتا تتهجيان الحروف معاً .

قالت المربية : « كي . . . آر . . . » وسمعها سبتيموس تقول « كي آر » قريباً من اذنه، عميقاً، ناعماً كأرغن رخيم لكن بخشونة في صوتها كصوت الجندب، فحكك ذلك عموده الفقري بالتذاذ وارسل الى مخه موجات من الصوت ما ان ارتجّت حتى انقطعت، انه لاكتشاف بديع حقاً ـ ان الصوت الانساني في حالات جوية معينة (فالمرء يجب ان يكون علمياً، علمياً قبل كل شيء) يستطيع ان يجعل الحياة تدب في الاشجار ! ولحسن الحظ وضعت ريزيا يدها بثقل هائل على ركبته بحيث صار مثقلاً، متحجراً، وإلا فإن الاثارة الناجمة عن اشجار الدردار ستجعله يجن وهي تقوم وتهبط، بكل اوراقها متقدة واللون يتخفف ويتكثف من الزرقة الى خضرة جوف الموجة، كأرياش على هامات الخيل، كرياش على رؤوس السيدات، فالأشجار قامت وهبطت بمثل هذا الافتخار، بمثل هذا الاتقان. لكنه لن يجن. انه سيغمض عينيه ؛ فلا يرى بعد الآن شيئاً .

لكنها تغري ؛ الأوراق حية ؛ الأشجار حية. والأوراق، كونها ترتبط بواسطة ملايين الامشاج ببدنه ذاته، هنالك على المسطبة، فإنها هفت بدنه صعوداً أو هبوطاً ؛ حين يمتد الغصن فإنه هو، كذلك، أدلى بالشيء ذاته. وكانت العصافير وهي تخفق، وتتطاير، وتتساقط نافورات مفلولة، جزءاً من نقشة النمط ؛ الأبيض والأزرق مخططين بأغصان سوداء. الأصوات تتناغم بتعمد مسبق ؛ وفواصلها هي بأهمية الأصوات ذاتها. طفل بكى. وبوق انطلق من بعيد بما يلائم الحال .

وكلها مجتمعاً عنت ميلاد دين جديد ـ

قالت ريزيا « سبتيموس ! » فجفل بعنف. لا بد سيلاحظ الناس .

قالت « سأسير الى النافورة وأعود » .

ذلك أنها لم تستطع تحمل المسألة بعد الآن. للدكتور هولمز أن يقول انه لا علة فيه. لكان احرى لها لو انه ميت ! انها لا تستطيع الجلوس بجنبه حين يحملق هكذا فلا يراها ويجعل من كل شيء شيئاً فظيعاً ؛ السماء والشجرة، الأطفال يلعبون، يسحبون عربات، ينفخون صفارات، يسقطون؛ كل هذا شيء فظيع. وهو لا يقتل نفسه ؛ وهي لا يسعها ان تخبر احداً. « سبتيموس يجهد نفسه بالعمل جداً » ـ هذا كل ما استطاعت ان تخبر أمها به. قالت في نفسها، ان الحب يجعل المرء مستوحداً. انها لا تستطيع ان تخبر أحداً، حتى ولا سبتيموس الآن، واذ أرجعت بصرها الى الخلف فقد رأته جالساً في معطفه الرث وحده، على المسطبة، محني الظهر محملقاً. وانه لمن الجبن للرجل ان يقول انه سيقتل نفسه، لكن سبتيموس قد قاتل ؛ كان شجاعاً ؛ انه ليس سبتيموس الآن. فهي تلبس ياقتها الدانتيل. تلبس قبعتها الجديدة فلا يلاحظ ابداً ؛ وهو سعيد بدونها. ما من شيء يمكن ان يجعلها سعيدة بدونه ! لا شيء ! انه أناني. وهكذا الرجال. ذلك انه غير مريض. الدكتور هولمز قال لا علة فيه. بسطت يدها أمامها. انظروا ! خاتم زواجها ينزلق ـ لقد بلغت من الهزال هذا الحد. انها هي التي تقاسي ـ لكنها ليس عندها من احد لتخبره بما تقاسيه .

بعيدة هي ايطاليا والبيوت البيضاء والغرفة التي تجلس فيها شقيقاتها يصنعن القبعات، والشوارع مزدحمة كل مساء بالناس يسيرون، يضحكون عالياً، وهم ليسوا شبه احياء كالناس هنا، محشورين في كراسي المصحات ينظرون في بضع زهرات قبيحة غرزت في قلل !

« ذلك انه ينبغي لك رؤية حدائق ميلانو » وقالت ذلك جهاراً. لكن لمن ؟

ليس هناك من احد. تلاشت كلماتها. هكذا يتلاشى الشهاب. وشراره يستسلم لليل بعد ان يشق طريقه فيه، ويهبط الظلام، دافقاً فوق

البيوت والأبراج ؛ تتطرى منحدرات التلال الكالحة وتهوى. لكن مع ان البيوت اختفت إلا ان الليل مليء بها ؛ انها، وقد عُرِّيت من اللون وخلت من النوافذ، توجد على نحو اكثر خطلاً، وتشي بما يخيب وضح النهار في نقله ـ الاضطراب وتوتر الأمور وقد تراكمت هناك في الظلام ؛ تكوّر بعضها على بعض في الظلام، محرومة من الانفراج الذي يأتي به الفجر حين يظهر كل شيء للعيان على الفور، اذ يصبغ الفجر الحيطان بيضاء ورمادية، ويحدد كل زجاجة في النوافذ، ويرفع الضباب عن الحقول، ويُظهر الأبقار البنية ـ الحمر وهي ترعى آمنة ؛ كل شيء موجود ثانية. وصاحت ريزيا : أنا وحيدة ! وهي عند النافورة في متنزه ريجنت (محدقة بالهندي وصليبه). كأن الوقت منتصف الليل، حين تنعدم جميع الحدود، وتعود البلاد لتتخذ هيئتها العتيقة، كما رآها الرومان، وهي تقبع ملبدة بالسحب، حين نزلوا الى البر، والروابي لا أسماء لها والأنهار تنعطف الى حيث لا يعرفون الى أين ـ كذلك كانت ظلمتها ؛ حينما بغتة، وكأن جرفاً صخرياً قد بان فوقفت عليه، وقالت كيف انها هي زوجته، تزوجت قبل سنين في ميلان، زوجته، ولن تقول ابداً، ابدا، انه مجنون ! وما ان استدارت حتى سقط الجرف الصخري ؛ وغاصت اسفل، فأسفل، ذلك انه قد ذهب، كما ظنت ـ ذهب، كما هدد، ليقتل نفسه ـ ليرمي بنفسه تحت عجلة ! لكن لا ؛ ها هو هناك ؛ ما زال جالساً وحده على المسطبة، بمعطفه الرث، وقد وضع ساقاً على ساق، يحملق، ويتكلم بصوت مرتفع .

يجب ألا يقطع البشر اشجاراً. يوجد ثمة رب (انه يدون مثل هذه الالهامات على ظهور الأغلفة) غيِّروا العالم. لا أحد يقتل بدافع الكراهية. فليكن معلوماً (دوِّنها). انه انتظر. انه اصغى. عصفور حط على السياج حياله وزقزق سبتيموس، سبتيموس، أربع مرات أو خمس مرات متتالية، واستمر مطيلاً نبراته، ليغرد تغريداً متجدداً وثاقباً بكلمات يونانية كيف انه ليس هناك جريمة، وما ان انضم اليه عصفور آخر حتى غردا اصواتاً متطاولة

وثاقبة بكلمات يونانية، من فوق اشجار في مرج الحياة وراء نهر يسير فيه الموتى. ويعلنان انه ليس هناك موت .

ها هي يده ! ها هم الموتى. ثمة أشياء بيضاء تتجمع خلف السياج حياله. لكنه لم يجرؤ ان ينظر. افينز كان خلف السياج !

قالت ريزيا فجأة، وهي تجلس جنبه : « ماذا تقول » ؟

لقد قاطعته مرة اخرى ! إنها تقاطعه دائماً .

قال: بعيداً عن الناس - يجب ان يفرا من الناس، (وقفز)، على الفور الى هناك حيث توجد مقاعد تحت شجرة وشكل المتنزه الطويل مغموس كباع من شيء اخضر مع قماشة سقف من الدخان الأزرق والوردي عالياً فوق الرؤوس، وهناك سور من بيوت نائية، غير منتظمة، مغبّشة بالدخان، وحركة المرور تطن في دائرة، وعلى اليمين تشرئب حيوانات قاتمة اللون برقابها الطويلة فوق اسيجة حديقة الحيوان، تعوي، تزأر. هنالك جلسوا تحت شجرة .

توسلت اليه قائلة : « انظر » وهي تشير الى رتل من الصبيان يحملون مضارب الكريكيت، واحدهم جرر قدمه، دار حول كعبه وجرر قدمه، كأنه يمثل دور البهلول في قاعة موسيقية .

توسلت اليه قائلة : « انظر »، ذلك ان الدكتور هولمز قال لها ان تجعله يلاحظ اشياء حقيقية، يذهب الى قاعة موسيقية، يلعب الكريكيت - وقال الدكتور هولمز تلك هي اللعبة المطلوبة بالذات، لعبة في الهواء الطلق، اللعبة بالذات الملائمة لزوجها .

كررت القول : « انظر » .

انظر، ان غير المرئي يناديه، الصوت الذي يتصل به الآن، الذي هو اعظم ابناء البشرية، سبتيموس، الذي أخرج مؤخراً من الحياة الى الموت، الاله الذي اتى لتجديد المجتمع، الذي يتمدد كمحلف، كدثار ثلج لا ينخره غير ضياء الشمس، لا يتبدد على الدوام، يشقى الى الأبد، كبش الفداء،

الشقي الأزلي، وناح يقول انه لم يرد ذلك، مزيحاً عنه بتلويح من يده ذلك الشقاء الأزلي، تلك الوحدة الأزلية .

كررت القول : « انظر ». ذلك انه يجب ألا يتكلم بصوت مرتفع في الخارج .

توسلت اليه قائلة : « أوه، انظر »، لكن ما الذي هناك لينظر اليه ؟ بضعة اغنام. هذا كل ما هنالك .

أرادت ميسي جونسون ان تعرف الطريق الى محطة قطار الانفاق لمتنزه ريجنت ـ هل يستطيعان ان يدلاها على الطريق الى محطة قطار الانفاق لمتنزه ريجنت ؟ انها قد وصلت من أدنبرة قبل يومين فقط .

هتفت ريزيا : « ليس من هنا ـ من هناك ! » وهي تبعدها عنهما بإشارتها لئلا ترى سبتيموس .

ظنت ميسي جونسون ان كليهما يبدو غريب الأطوار. كل شيء يبدو غريباً. انها، وهي في لندن أول مرة، جاءت لتزاول وظيفة في مكتب عمها في شارع ليدنهول وتمشي الآن عبر متنزه ريجنت في الصباح فإن هذين الزوجين الجالسين على مسطبة قد أدارا رأسها تماماً ؛ المرأة الشابة اجنبية في الظاهر، والرجل يبدو غريب الأطوار ؛ بحيث لو بلغت ارذل العمر فستظل تتذكر وتجعل هذا يطن بين ذكرياتها، كيف انها مشت عبر متنزه ريجنت ذات صباح جميل في الصيف قبل خمسين سنة. ذلك انها في التاسعة عشرة فقط وقد دبرت امرها اخيراً، لتأتي الى لندن ؛ والآن ما أغرب الأمر، هذان الزوجان اللذان سألتهما عن الطريق، والفتاة جفلت وهزت يدها، والرجل يبدو هرماً بشكل فظيع ؛ يتخاصمان، ربما ؛ ينفصلان الى الأبد ربما ؛ ان شيئاً ما يجري، وهي تعرف ؛ والآن كل هؤلاء الناس (ذلك انها عادت الى الممشى العريض)، والأحواض الحجرية، والأزهار الممشوقة، والعجائز من الرجال والنساء، والمقعدون واغلبهم بكراسي المصحات ـ كل ذلك بدا، بعد أدنبره، غريب الأطوار.

ان ميسي جونسون، وقد انضمت الى ذلك الجمع المتهادي بلطف، المحدق بغموض، الذي يلثمه النسيم - السنجاب يحط ويزدهي بامتشاقه، العصافير ترفرف نافورات من اجل الفتات، الكلاب، منشغلة بالسياج، منشغلة بعضها ببعض، بينما يترقرق الهواء الدافىء الناعم من فوقهم ويضفي على تحديقهم الثابت غير المستعجب الذي به يتلقون الحياة، شيئاً قُلّب الهوى ومُلطّف النزوع - ان ميسي جونسون شعرت على وجه اليقين انها يجب ان تصيح أواه ! (فذلك الشاب على المسطبة قد أدار رأسها تماماً. عرفت ان شيئاً ما يجري) .

أرادت أن تصيح، ياللرعب، ياللرعب. (انها قد تركت اهلها ؛ لقد حذروها مما سيحدث) .

لماذا لم تبق في بلدها ؟ صاحت وهي تدير مقبض البوابة في السياج الحديدي .

ودار في خلد المسز دومبستر (التي تحفظ الفتات للسناجب وغالباً ما تتناول غداءها في متنزه ريجنت)، ان تلك الفتاة لا تعرف شيئاً بعد ؛ وبدا لها فعلاً انٌ الأفضل ان يكون المرء قوياً بعض الشيء، متئداً بعض الشيء، معتدلاً في آماله بعض الشيء. وتذكرت ان برسي يشرب. حسناً، من الأفضل الانجاب. لقد قاست الكثير من جراء ذلك، ولم يسعها إلا أن تبتسم عند مرأى فتاة كهذه. قالت في خاطرها : أنت ستتزوجين، ذلك انك حلوة بما فيه الكفاية. وقالت ايضا : تزوجي، ولسوف تعرفين. اوه، الطاهيات، وما الى ذلك. كل رجل له طريقته. ودار في خلدها : لكن هل كنت أختار مثل هذا تماماً لو كان بوسعي ان اعرف، ولم تستطع إلا ان تتمنى لو تهمس بكلمة لميسي جونسون ؛ ان تحس بلثمة رثاء منها على وجهها البالي المتغضن كالكيس ذلك ان حياتها كانت قاسية. ما الذي لم تعطه للحياة ؟ وروداً، جسداً، قدميها الاثنتين ايضاً. (سوّت العُقَد المكورة تحت تنورتها » .

وقالت في نفسها بتهكم : ورود. كل هذا كلام فارغ يا عزيزتي. فالحقيقة، ومع مسائل الأكل والشرب والجماع، الأيام السيئة والحسنة، لم تكن الحياة محض مسألة ورود، ورغم هذا، دعيني أقول لك انني انا لا أرغب بمقايضة حظي بحظ اية امرأة أخرى في بلدتي !. لكنها تتوسل ان يُرثى لها. الرثاء. لأنها لم تتمتع بالورود. نشدت ان ترثي لها ميسي جونسون، وهي تقف قرب الواح الزنبق .

آه لكن تلك الطائرة ! ألم تَتُقْ المسز دومبستر دائماً الى رؤية أصقاع أجنبية ؟ ان لديها ابن أخ من المبشرين. الطائرة حلقت عالياً وانطلقت. كانت هي تذهب دائماً للسباحة في البحر في مارغيت، ليس بعيداً عن الجرف ؛ لكنها كانت تضيق ذرعاً بالنسوة اللاتي يخفن من الماء. الطائرة تمرق وتهوي. شعرت المسز دومبستر بالغثيان. ارتفعت الطائرة ثانية، فراهنت ان فيها ولدا لطيفاً، والطائرة ذهبت بعيداً بعيداً، تسرع وتتلاشى، بعيداً، انطلقت بعيداً: تحلق عالياً فوق غرينيتش وكل الصواري ؛ فوق الجُزَيْرَة الصغيرة من الكنائس الرمادية، سانت بول والبقية الباقية، الى أن تنتشر في الجانب الآخر من لندن الحقول والغابات البنية القاتمة حيث طيور الدجُ المغامرة تتقافز بجسارة، ترنو بعجالة، تنتش الحلزون وتدقه على حجرة، مرة، مرتين، ثلاث .

والطائرة انطلقت بعيداً، بعيداً، حتى لم تعد سوى شرارة لامعة ؛ بدت إلهاماً ؛ تركيزاً ذهنياً ؛ رمزاً لروح الانسان (هكذا تصورها المستر بنتلي وهو يقلب حديقته الصغيرة المتجذرة بالعشب في غرينيتش)، رمزاً لتصميم الانسان، رمزاً موّاراً حول شجرة الأرز لكي ينطلق من بدنه، الى ما وراء بيته، بواسطة الفكر، اينشتاين، التكهن، الرياضيات، نظرية مندل - انطلقت الطائرة بعيداً .

وإذ وقف رجل رث المظهر يستعصي على الوصف حاملاً حقيبة جلدية على سلم كاتدرائية سان بول، عندئذ تردد في وقفته، ذلك لأن في

الداخل بلسماً يشفي، وترحيباً عظيماً، وقبوراً عديدة عليها رايات خفاقة، ورموز انتصارات ليست على جيوش بل، قال في نفسه، على تلك الروحية الموبوءة الساعية لطلب الحقيقة التي تتركني في الوقت الحاضر بلا موقع، واكثر من هذا، فالكاتدرائية تقدم الرفقة، وتدعوك الى العضوية في مجتمع ما ؛ عظماء الرجال ينتسبون لها ؛ شهداء قد ماتوا من أجلها، قال في نفسه : لماذا لا تدخل، وتضع هذه الحقيبة الجلدية المحشوة بالكراريس امام محراب، صليب، أمام الرمز لشيء قد ارتفع شاهقاً فلا يبلغه السعي والطلب وقرع الكلمات بالكلمات فغدا كله روحاً، منزوع الجسد، شبحياً - لماذا لا تدخل ؟ وبينما هو في تردده مرت الطائرة فوق ميدان لودغيت .

كان الأمر غريباً، وساكناً. ما من صوت يسمع من فوق ضوضاء المرور. الطائرة تبدو كأنها لا يقودها أحد، كأنها تسرع بإرادتها الحرة ذاتها. والآن، وإذ هي تتثنى عالياً، عالياً وباستمرار، كأنها شيء يرتقي في نشوة الوجد، في ابتهاج صاف، فقد دفق من خلفها دخان أبيض يدور حلقات، ويكتب الحروف : ت، و، ف، ي .

قالت كلاريسا دالاواي للخادمة التي فتحت الباب : « ما الذي ينظرون اليه ؟ » كانت ردهة البيت باردة كأنها قبو. رفعت السيدة دالاواي يدها الى عينيها، وما أن أغلقت الخادمة الباب، وسمعت هي هسهسات ثوب لوسي، حتى شعرت كأنها راهبة قد تركت الدنيا وأخذت تحس بالغلالات المعتادة وبالاستجابة للولاءات القديمة تلفها لفاً .

الطاهية تصفر في المطبخ. سمعت السيدة دالاواي نقر الآلة الكاتبة. إنها حياتها، وما أن أرخت رأسها فوق منضدة الردهة حتى انحنت تحت التأثير الواقع، وشعرت مباركة ومطهرة، وقالت لنفسها وهي تتناول الدفتر وفيه رسالة تلفونية كيف أن لحظات كهذه هي براعم على شجرة الحياة، إنها أزهار الظلام (كما لو أن وردة ما جميلة قد تفتحت لعينيها وحدهما).

إنها لم تؤمن بالله لحظة واحدة، إنما دار في خلدها وهي تتناول الدفتر أن رد الفضل للخدم في الحياة اليومية هو من باب أولى، أجل، وللكلاب وطيور الكناري، وفي المقدمة لريتشارد زوجها الذي هو أساس المسألة كلها بما فيها من أصوات مرحة وأضواء خضراء، وللطاهية حتى وهي تصفر، ذلك ان المسز ووكر إرلندية وتصفر طيلة النهار ـ ودار في خلدها أن على المرء أن يرد الفضل بالمثل من هذا الخزان السريّ من اللحظات الرهيفة، ورفعت الدفتر بينما وقفت لوسي بجنبها تحاول ان تفسر لها .

« ان السيد دالاواي، يا سيدتي ـ »

وقرأت كلاريسا في دفتر الرسائل التلفونية : « الليدي بروتون تود أن تعلم هل بوسع السيد دالاواي ان يتغدى معها اليوم » .

« ـ السيد دالاواي، يا سيدتي، قد طلب مني ان أخبرك بأنه سيتغدى خارج البيت » .

قالت كلاريسا : « عجباً » ! وشاركتها لوسي خيبة الأمل كما أرادت ان تشاركها (لكن ليس عصرة القلب) : شعرت بالوفاق بينهما، فهمت التلميح ؛ فكرت كيف يحب الذوات ؛ وشّت مستقبلها ذاته بالسكينة ؛ وحملت مظلة السيدة دالاواي وهي تتناولها منها كأنها سلاح مقدس تخلعه آلهة بعد أن أبلت بلاء حسناً في ساحة المعركة، ووضعتها في مشجب المظلات .

قالت كلاريسا : « لا تخشَي بعد اليوم ». لا تخشي قيظ الشمس ؛ ذلك ان صدمتها من دعوة الليدي بروتون لريتشارد على الغداء بدونها قد جعلت اللحظة التي هي فيها ترتعش، كنبتة في قاع نهر تحس بالصدمة من مجداف عابر فترتعش : هكذا اهتزت : هكذا ارتعشت .

لم توجه لها، اذن، ميليسينت بروتون الدعوة، ويقال ان مآدبها للغداء هي حفلات مؤنسة جداً. ما من غيرة سوقية يمكن ان تفصلها عن ريتشارد. لكنها تخشى الزمن ذاته، وتقرأ في وجه الليدي بروتون، وكأنه مزولة نحتت

في جلمود، تضاؤل الحياة ؛ كيف ان نصيبها ينقص سنة بعد سنة ؛ ما أضأل قدرة الهامش المتبقي على الامتداد بعد الآن، وعلى الامتصاص، كما في السنين الفتية، لألوان الوجود وأملاحه ونبراته، بحيث انها تملأ الغرفة التي تدخلها، وتشعر هالباً، وهي تقف مترددة لحظة واحدة على عتبة صالتها للاستقبال، بتوتر رهيف، كالتوتر الذي قد يصد غواصاً قبل ان يغوص بينما يأخذ البحر بالعتمة والالتماع من تحته، والأمواج، التي تنذر بالتكسر لكنها تقتصر على شق سطحها برفق، تترامى وتخفي ما تحتها وتكسو الطحالب التي قلّبتها للتو بقشرة لؤلؤية .

وضعت الدفتر على منضدة الردهة. بدأت تصعد السلم ببطء، ويدها على الدرابزين، كما لو أنها قد غادرت حفلة ما، فتعود هذه الصديقة حيناً وتلك الصديقة حيناً بوجهها، بصوتها، الى الذاكرة ؛ كما لو انها قد اغلقت الباب وخرجت ووقفت وحدها شخصاً منفرداً في الليل المريع، بل الأدق، وقفت في وهج هذا الصباح الحزيراني الواقعي، وهو بالنسبة الى البعض صباح ناعم متوهج بتويجات الورد، كما تعرف هي ذلك، وتشعر به، اذ توقفت عند نافذة السلم المفتوحة التي تُدخل رفرفة الستائر، عواء الكلاب ؛ ودار في خلدها وهي تشعر فجأة بنفسها وقد ذوت، هرمت، خلت من المشاعر ان النافذة انما تدخل كدح النهار، وهبوبه، وازدهاره، كما هو في الخارج، خارج النافذة، خارج بدنها وذهنها الذي انخذل الآن، مذ ان الليدي بروتون، التي يقال ان مآدبها للغداء مؤنسة جداً، لم توجه لها الدعوة .

وكراهبة تترك الدنيا، او كطفل يسكتشف برجاً، صعدت الى الطابق العلوي، توقفت عند النافذة، جاءت الى الحمام. هناك اللينوليوم الأخضر وحنفية تقطر. هناك فراغ يحف بلب الحياة ؛ غرفة علّية. ان على النساء ان يخلعن رداءهن الباذخ. عليهن عند الظهيرة ان يضعن عنهن ملابسهن. غرزت دبوس الشعر في وسادة الابر ووضعت قبعتها الصفراء ذات الريش

على السرير. الأغطية نظيفة، وقد زُمّت بشدة بشريط ابيض عريض من طرف الى طرف. اضيق فأضيق سيكون فراشها. الشمعة ذائبة الى النصف فهي قد قرأت متوغلة في مذكرات البارون ماربوت. قرأت لساعة متأخرة من الليل عن تراجع نابوليون عن موسكو. ذلك ان البرلمان يجتمع ساعات طويلة حتى ان ريتشارد اصرَّ عليها، بعد مرضها، ان تنام دون ان يقلقها شيء. لقد فضلت حقاً أن تقرأ عن التراجع عن موسكو. هو عرف ذلك. اذن الغرفة عِلّية ؛ الفراش ضيق ؛ واذ استلقت هناك تقرأ، ذلك ان نومها متقطع، فإنها لم تستطع ان تبدد العذرية التي حفظها لها الإنجاب والتي تلتصق بها كأنها ملحف. عذرية بديعة في المراهقة وفجأة تحل لحظة ـ مثلاً عند النهر في الغابات في كليفدون ـ حينما خانته، خلال توتر ما متقلص في هذه الروح الباردة. وبعدئذ في اسطنبول ومرة اخرى واخرى. ان بوسعها ان ترى ما الذي ينقصها. إنه ليس الجمال، ليس العقل. انه شيء ما مركزي من الاشياء التي تتغلغل، شيء ما دافىء يشق السطوح ويرقرق الاتصال البارد بين الرجل والمرأة، او بين النساء بعضهن مع بعض. ذلك بالذات هو ما تستطيع ان تدركه بشكل غامض. انها تستنكره، لديها تحرّج منه او وسواس جاءها من مكان لا يعرفه إلا الله، او بعثت به الطبيعة (وهي حكيمة دائماً) : مع ذلك فهي لا يسعها ان تقاوم الاستسلام احياناً لفتنة امرأة، لا لفتنة فتاة، امرأة تعترف، وغالباً ما هن يعترفن لها، بورطة ما، بحماقة ما. وسواء كان الأمر هو الاشفاق عليهن، او جمالهن، أو انها أسنّ منهن، او حادثة ما ـ كشذى خافت، او لحن وتري ينبعث من الجيران (فبهذه الغرابة هي قوة الأصوات في لحظات معينة)، فانها عندئذ تشعر بلا ريب ما يشعر به الرجال. انما للحظة واحدة فقط، لكنها تكفي. انه كشف مباغت، صبغة كحمرة الخجل التي يحاول المرء ان يكبحها، ثم ما ان تنتشر حتى يستسلم المرء لانتشارها، فيهرع الى الحافة القصوى وهنالك يرتعش فيحس بالعالم يقترب عن كثب، ينتفخ بمغزى ما مدهش، بضغط ما من عاطفة الوجد، التي تشق جلدها الرقيق فتدفق وتسيل بتسام فائق فوق

الصدور والبثور. عندئذ، ولتلك اللحظة، فانها ترى اضاءة ؛ عود ثقاب يشتعل في زعفران، معنى باطنياً يكاد يتم الافصاح عنه. لكن الوصل يتراجع، الشيء الصلب يرق. الأمر ينتهي ـ اللحظة. وفي الضد من لحظات كهذه (مع نساء ايضاً) يتناقض الفراش (وقد خلعت قبعتها) مع البارون ماربوت والشمعة نصف الذائبة. واذ هي تستلقي يقظة فقد زقزقت الأرضية ؛ البيت المضاء اعتم فجأة، ولو رفعت رأسها لسمعت طقة المقبض يرخيها ريتشارد بما يمكنه من اللطف وينسل الى الطابق العلوي بجواربه، وعندئذ يُسقط، كما يحدث له مراراً وتكراراً، قنينة الماء الساخن، فيلعن أجداده ! ما أكثر ما غصت بالضحك !

لكن مسألة الحب هذه (قالت في خاطرها، وهي تضع معطفها جانباً)، هذا الغرام بالنساء. سالي سيتون مثلاً، علاقتها في الأيام الخوالي بسالي سيتون. ألم يكن ذلك، على كل حال، غراماً ؟

إنها قد جلست على الأرض ـ كان ذلك هو انطباعها الأول عن سالي ـ جلست على الأرض وذراعاها حول ركبتيها، تدخن سيجارة. أين كان ذلك ؟ في بيت مانينغز ؟ في بيت كنلوك جونز ؟ في حفلة ما ؟ (لا تستطيع التأكيد أين)، ذلك أنها تتذكر بدقة قولها للرجل الذي كانت معه: « من هي هذه ؟ ». فأخبرها، وقال إن أبَويْ سالي ليسا على وفاق (ما أشد ما صدمها ذلك ـ أن يختصم أبوا المرء !). لكنها لم تستطع أن ترفع نظرها عن سالي طيلة تلك الأمسية .

كان جمالها فائقاً من النوع الذي تعجب به كل الإعجاب، سمراء، واسعة العينين، مع تلك الخاصية التي تجسدها دائماً لأنها ليست فيها ـ نوع من الانطلاق، فكان بوسعها أن تقول أي شيء، أن تفعل أي شيء، خاصية هي اكثر شيوعاً في غير الانكليزيات منها في الانكليزيات. سالي كانت تقول دائماً إن في عروقها دماً فرنسياً وأن أحد أسلافها كان في خدمة ماري أنطوانيت، فقُطع رأسه، وترك خاتماً من المرجان. جاءت ربما في ذلك

الصيف لتقيم في بورتون، إذ وصلت على غير توقع بدون فلس واحد في جيبها، ذات ليلة بعد العشاء، فأزعجت العمة هيلينا المسكينة حد أنها لم تسامحها مطلقاً. كان قد حدث في بيتهم خصام فظيع. لم يكن لديها فلس واحد بالمعنى الحرفي للكلمة حين جاءتهم تلك الليلة ـ كانت قد رهنت دبوساً للزينة لتدفع أجرة الطريق. هرعت اليهم في نوبة انفعال. جلستا ساعات الليل كلها تتحدثان. وسالي هي التي جعلتها تشعر، أول مرة، كم كانت الحياة محصنة في بورتون. لم تكن تعرف عن الجنس ـ لم تكن تعرف شيئاً عن المشاكل الاجتماعية. كانت قد رأت ذات مرة شيخاً يسقط ميتاً في حقل ـ وأبقاراً بعد ولادة عجولها. لكن العمة هيلينا لم تكن ترغب في بحث اي شيء (حين أعطتها سالي كتاباً لوليام موريس [المعروف بكتاباته عن التعاونيات] فقد كان لا بد من تغليفه بورق أسمر) هنالك جلستا، ساعة بعد ساعة، تتحدثان في غرفة نومها في أعلى البيت، تتحدثان عن الحياة، وكيف انهما ستصلحان العالم. أرادتا تأسيس جمعية لإلغاء الملكية الخاصة، وقد كتبتا رسالة بالفعل وإن لم ترسل. كانت الأفكار بالطبع أفكار سالي ـ لكنها سرعان ما تحمست مثلها ـ قرأت أفلاطون في الفراش قبل الإفطار، قرأت موريس، قرأت شيلي على مدار الساعة .

كانت قوة سالي مدهشة ـ موهبتها، شخصيتها. كانت لديها مثلاً طريقتها مع الأزهار. كانت عندهم في بورتون دائماً مزهريات بسيطة لا ترتاح لها العين ممدودة على طول المائدة. لكن سالي تخرج، تقطف زهر الخطمي والداليا ـ كل أنواع الأزهار التي لم تشاهد مجتمعة على الإطلاق ـ تقص رؤوسها، وتضعها في دوارق لتسبح فوق الماء. كان التأثير باهراً ـ عند الدخول للعشاء وقت الغروب. (بالطبع حسبت العمة هيلينا شيئاً شريراً أن تعامل الزهور مثل هذه المعاملة). ثم نسيت إسفنجتها فركضت في الممر عارية. أما تلك الخادمة العجوز العابسة ألين أتكنز فقد راحت تدمدم ـ « لو فرضنا أن أحداً من السادة الذوات يراها ؟ » حقاً انها كانت تصدم الناس. قال بابا : إنها غير مرتبة الهندام .

والشيء الغريب، عند النظر في الماضي، هو النقاء، الاستقامة، في شعورها نحو سالي. لم يكن كالشعور نحو الرجل. كان شعوراً نزيهاً كلياً، ثم ان له خاصية لا يمكن ان توجد إلا بين النساء، بين نساء شببن لتوهن عن الطوق. كان شعوراً واقياً، من جانبها، ينبعث من إحساس بكونهما في رابطة معاً، من هاجس بأن شيئاً ما لا بد سيفرقهما (كانتا تتكلمان عن الزواج بوصفه كارثة دائماً)، مما أدى الى هذه الفروسية، الى هذا الشعور الواقي الذي كانت تحس به هي من جانبها اكثر مما كانت تحس به سالي. ذلك ان سالي في تلك الأيام كانت متهورة كلياً، كانت تقوم بأسخف الأشياء من باب التظاهر، تركب الدراجة الهوائية حول سياج الشرفة. تدخن السيكار. خرقاء كانت ـ خرقاء جداً. لكن الفتنة كانت طاغية، بالنسبة اليها على الأقل، بحيث أن بوسعها أن تتذكر وقوفها في غرفة نومها في أعلى البيت تحمل دورق الماء الحار بيدها وتصيح « انها تحت هذا السقف . . إنها تحت هذا السقف ! »

لا، إن الكلمات لا تعني لها شيئاً على الاطلاق الآن. انها لا تستطيع الحصول حتى على صدى لعاطفتها القديمة. لكن بوسعها ان تتذكر انفعالها من جراء الاثارة بحيث تتجمد اوصالها وأن تتذكر تصفيفها شعرها بنوع من النشوة (الآن بدأ الشعور القديم يعود اليها، اذ أخرجت دبابيس شعرها، ووضعتها على طاولة الزينة، وبدأت تصفف شعرها) وطيور الغدفان تتهادى صعوداً وهبوطاً في نور الأصيل الوردي، وأن تتذكر ارتداءها ملابسها ونزولها الى الطابق الأرض، وشعورها اذ تخترق الصالة « لو كان لي أن أموت الآن، لكان لي الآن أسعد الموت »[1]. ذلك ان شعورها ـ شعور عطيل، وقد أحست به، وهي مقتنعة بهذا الإحساس، وبالقوة نفسها التي

(1) من ترجمة الاستاذ جبرا ابراهيم جبرا لمسرحية عطيل لشكسبير. الفصل الثاني، المشهد الأول. السطران 189، 190. (المترجم)

أراد شكسبير أن يحس عطيل بها، كل ذلك لأنها كانت تنزل للعشاء بفستان أبيض لتلاقي سالي سيتون !

كانت ترتدي الشاش الوردي ـ هل هذا ممكن ؟ بدت، على كل حال، وكلها ضياء، تتقد كأنها طير، أو فقاعة طارت فحطت لتلتصق لحظة واحدة بغصن من العلّيق. لكن ليس هناك ما هو أشد غرابة من عدم اكتراث الناس الكلي حين يكون المرء عاشقاً (وهل هذا إلا العشق ؟) العمة هيلينا ذهبت تتسكع بعد العشاء، بابا يقرأ الجريدة. بيتر ولش ربما كان هناك، والآنسة كومنغز العجوز، جوزيف بريتكوف كان هناك بالتأكيد، ذلك أنه يأتي كل صيف، الشيخ المسكين، لأسابيع وأسابيع. ويتكلف قراءة الألمانية بحضورها، لكنه يعزف البيانو فعلاً ويغني مقطوعات من برامز بلا صوت يصلح للغناء .

كان هذا محض خلفية لسالي. لقد وقفت بجنب الموقد تتحدث، بذلك الصوت الجميل الذي يجعل من أي شيء تقوله يبدو كأنه غزل ـ وتتكلم مع بابا، الذي أخذ ينجذب إليها ضد ارادته نوعاً ما (لم ينس لها إعارته اياها احد كتبه ثم وجده مبللاً في الشرفة)، فقالت فجأة : « عيب يا ناس ان نجلس هنا في الداخل » ! فخرجوا جميعاً الى الشرفة يسيرون ذهاباً واياباً. استمر بيتر ولش وجوزيف بريتكوف يتحدثان عن واغنر. تأخرت هي وسالي خلف الآخرين قليلاً ثم جاءت ارهف لحظات حياتها كلها وهما تمران بقلة حجرية ذات عروة فيها أصص من زهور. سالي توقفت ؛ قطفت زهرة، قبلت كلاريسا من الشفتين. لكأن العالم انقلب رأساً على عقب ! الآخرون اختفوا : ها هي وحدها مع سالي. فشعرت انها قد منحت هدية، مغلفة، وقيل لها ان تحتفظ بها لا غير، وألا تنظر اليها ـ فصاً من ماس، شيئاً نفيساً كل النفاسة، يضم الالهام والشعور الديني ! ففتحت غطاءه وهما تسيران (ذهاباً واياباً، ذهاباً واياباً)، او ان التألق اتقد اتقاداً من باطنه ـ حين واجههما جوزيف نفسه وبيتر : سألهما هذا الأخير : « تنظران في النجوم » ؟

كان ذلك كمن يرتطم وجهه بجدار من صوان في الظلام ! كان أمراً مروعاً؛ كان لفظيعاً، ليس بالنسبة اليها. انها شعرت فقط كيف ان سالي تُخاشن اساساً، تُساء معاملتها، شعرت بمعاداة بيتر ؛ بغيرته ؛ بتصميمه على التدخل في شؤون صحبتهما. كل هذا رأته كما يرى المرء الطبيعة في وهجة برق - وسالي (وقد بلغ اعجابها بها أقصاه ! لا تنهزم وتمضي في طريقها ببسالة. لقد ضحكت وجعلت جوزيف العجوز يخبرها بأسماء النجوم، الأمر الذي يحب القيام به بكل جدية. لقد وقفت هناك : واصغت. سمعت اسماء النجوم .

قالت كلاريسا في نفسها « يا لهذه الفظاعة » ! كما لو انها قد عرفت طوال الوقت ان شيئاً ما سيقطع عليها سعادتها. سيشيع فيها المرارة.

مع هذا فقد كانت مدينة لبيتر ولش بالكثير فيما بعد. انها دائماً حين تفكر به فإنها تفكر بخصوماتهما لسبب ما - ربما لأنها كانت تريد كثيراً ان تحظى برأيه الطيب عنها. وهي مدينة له بكلمات : « المائع عاطفياً »، « المتمدين » ؛ يبتدئان في كل يوم من حياتها وكأنه يرشدها. هذا الكتاب مثلاً هو كتاب مائع عاطفياً ؛ هذا الموقف من الحياة هو موقف مائع عاطفياً. لعلها هي ذات « ميوعة عاطفية » اذا فكرت بالماضي. وتساءلت ما الذي سيفكر به حين يعود، أنها قد كبرت في السن ؟ هل سيقول ذلك، أو أنها ستراه يفكر، حين يعود، في انها قد كبرت في السن ؟ صحيح. انها منذ مرضها يكاد يغزوها الشيب .

واذ وضعت دبوس الزينة على المنضدة فقد اعترتها عصرة مفاجئة، كأن المخالب الثلجية قد انتهزت الفرصة، إبان تأملها، فأنشبت فيها. انها ليست مسنة. لقد دخلت تواً عامها الثاني والخمسين. ان شهوراً وشهوراً من العمر لما تزل دون مساس. حزيران، تموز، آب ! كل شهر منها باق بأسره او يكاد، ثم وكأن القطرة الساقطة تلتقط، غاصت كلاريسا (وهي تتجه نحو طاولة الزينة) في قلب اللحظة ذاته، هناك - لحظة هذا الصباح

من حزيران، وهي ترى المرآة، طاولة الزينة، وكل قناني التجميل من جديد، فتجمع كل كيانها بنقطة واحدة (إذ نظرت في المرآة)، مبصرة الوجه الوردي الرهيف للامرأة التي ستقيم حفلة في تلك الليلة نفسها، وجه كلاريسا دالاواي ؛ وجهها هي نفسها .

كم من ملايين المرات رأت فيها وجهها، ودائماً بالتقلص ذاته الذي لا يمكن ادراك كنهه ! انها تزم شفتيها حين تنظر في المرآة. ذلك لتعطي وجهها خاصية. تلك هي بنفسها ـ ثاقبة ؛ أشبه شيء بالسهم المارق ؛ واضحة. تلك هي بنفسها حين يقوم جهد ما، او دعوة ما بأن تكون كما هي، يقوم بتجميع الأجزاء بعضها الى بعض، وهي وحدها تعلم شدة تباين هذه الأجزاء وتنافرها، فتؤلفها هكذا من أجل الآخرين فقط مجموعة في مركز واحد، في ماسة واحدة، في امرأة واحدة تجلس في صالة الاستقبال فتخلق نقطة التقاء، تخلق بلا ريب اشعاعاً في بعض النفوس الخامدة، ملجأ ربما يلجأ اليه المستوحد ؛ لقد عاونت شباناً كانوا ممتنين من جميلها، حاولت ان تكون هي هي دائماً، دون ان تبدي شيئاً ينبىء بجوانبها الأخرى ـ العيوب، الغيرة، الغرور، الشك، مثل هذا الذي ساورها لأن الليدي بروتون لم توجه لها الدعوة للغداء الأمر الذي هو، (أخذت تمشط شعرها اخيراً) بمنتهى الوضاعة ! والآن، اين هو فستانها ؟

فساتين السهرة معلقة في خزانة الملابس. انتزعت كلاريسا، وهي تغور بيدها في النعومة، فستانها الأخضر برفق وحملته الى النافذة. انها كانت قد شقته. احدهم داس على الذيل. لقد شعرت بالفستان وهي في حفلة السفارة ينبزل من الأعلى فيما بين الطيات. الأخضر يشع في الضوء الاصطناعي، لكنه يفقد لونه الآن في الشمس. انها سترفوه. خادماتها لديهن الكثير من العمل .

إنها ستلبسه الليلة. ستأخذ خيوطها الحريرية، مقصها ـ ثم، ما هو الشيء الآخر ؟ كشتبانها بالطبع، وتنزل الى غرفة الجلوس، ذلك انها يجب

ان تكتب ايضاً، وان تتأكد ان الأمور تجري عموماً على ما يرام .

قالت في خاطرها، وهي تتوقف على صحن السلم، وتجمع شمل ذلك الشكل الماسي، ذلك الشخص المنفرد، قالت ما أغرب ان تعرف السيدة دنو اللحظة ذاتها، طباع بيتها بذاتها ! اصوات خافتة تتعالى لولبياً من جوف السلم، هسهسة ادوات التنظيف ؛ نقر ؛ طرق ؛ تصاعد الصوت حين ينفتح الباب الخارجي، صوت يكرر رسالة في الطابق تحت الأرضي ؛ رنين الفضة على صينية، فضة نظيفة للحفلة. كل شيء للحفلة .

(أما لوسي التي دخلت صالة الاستقبال بصينيتها مرفوعة، فقد وضعت الشمعدانات الضخمة على رف الموقد، والعلبة الفضية في الوسط، وأدارت سمكة الدولفين البلورية نحو الساعة. انهم سيأتون ؛ سيقفون، سيتحدثون بنبرات متصنعة تستطيع هي تقليدها، سيدات وذواتاً. وسيدتها هي الأروع من بينهم جميعاً - سيدة الفضيات والبياضات والخزفيات، ذلك ان الشمس، وأدوات الطعام الفضية، والأبواب مخلوعة عن مفاصلها، وعمال رامبيلماير، كل ذلك يجعلها تحس، وهي تضع قاطعة الورق على الطاولة المطعمة، بأنها قد انجزت شيئاً. انظروا ! انظروا ! قالت تكلم زميلاتها القديمات في ذلك المخبز، حيث جربت الخدمة اول مرة في كاتيرهام، وهي تحدق بتطفل في الزجاج. انها الليدي انجيلا ترافق الأميرة ماري ؛ واذ بالسيدة دالاواي تدخل) .

قالت كلاريسا، « آه، لوسي، الفضيات تبدو لطيفة فعلاً » !

وقالت، وهي تدير سمكة الدولفين البلورية للامام، « وكيف كان استمتاعكم بالمسرحية الليلة الماضية » ؟ فأجابتها لوسي : « اوه، كان عليهم الخروج قبل النهاية ! كان عليهم الرجوع الى المنزل في الساعة العاشرة ! لذا فإنهم لا يعرفون ماذا حصل». فقالت، «هذا من سوء الحظ فيما يبدو». (ذلك ان خدمها يمكنهم ان يتأخروا في البقاء في الخارج اذا استأذنوها). وقالت، وهي تتناول من وسط الأريكة وسادة عادية فتضعها

بين ذراعي لوسي مع دفعة بسيطة : « هذه مخزية » ثم صاحت :

« أخرجيها ! اعطيها للمسز ووكر مع احتراماتي ! اخرجيها » !

توقفت لوسي عند باب صالة الاستقبال وهي تحمل الوسادة وقالت باستحياء عظيم، وقد احمرت قليلاً، ألا يسعها المساعدة في رفو هذا الفستان ؟

قالت لها السيدة دالاواي ان لديها ما يكفي من العمل اصلاً، لديها ما تقوم به غير هذا .

قالت السيدة دالاواي : « لكن، شكراً، لوسي، أوه، شكراً»، واستمرت تقول شكراً، شكراً (وهي تجلس على الأريكة وفستانها فوق ركبتيها، ومقصها وخيوطها الحريرية)، استمرت تقول شكراً، شكراً، امتناناً منها لخادماتها عموماً عن مساعدتهن لها على ان تكون على هذه الشاكلة، على ان تكون ما أرادت ان تكون، رقيقة الجانب، كريمة القلب. خادماتها يحببنها. ثم فستانها هذا ـ أين الشق ؟ والآن ابرتها لكي تلضمها. هذا فستان مفضل لديها، احد الفساتين التي صممتها سالي باركر، ويكاد يكون، وا أسفاه، آخر فستان صممته على الاطلاق، ذلك ان سالي قد تقاعدت الآن، وتسكن في إيلينغ، وقالت كلاريسا في خاطرها اذا سنحت لي لحظة واحدة (لكن لن تسنح لها ابداً لحظة واحدة بعد الآن)، فسأذهب وأزورها في إيلينغ لأنها ذات شخصية فذة، وهي فنانة حقيقية. كانت سالي تفكر بأشياء بسيطة لا تخطر على بال ؛ مع هذا ففساتينها ليست شاذة ابداً. يمكن ارتداؤها في هاتفيلد وفي قصر بكنغهام. لقد ارتدتها هي في هاتفيلد وفي قصر بكنغهام .

وران عليها الهدوء، والسكينة، والرضا، اذ اخذت ابرتها، وهي تسحب خيط الحرير بسلاسة حتى يتوقف وقفته الرقيقة فيجمع الطيات الخضر بعضها لبعض، فتربطها ربطاً لطيفاً جداً بالحزام. هكذا في يوم صيف تتجمع الأمواج، تتوازن كل التوازن، وتهوي ؛ تتجمع وتهوي ؛

والعالم بأسره يبدو وكأنه يقول « هذا كل ما هنالك » على نحو ممل أكثر فأكثر، الى ان يقول حتى القلب في الجسد المستلقي في الشمس على الشاطىء، يقول ايضاً هذا كل ما هنالك. يقول القلب، لا تخشَ بعد اليوم. يقول القلب، لا تخشَ بعد اليوم، وهو يودع وقْره الى بحر ما، بحر يتنهد جماعياً لكل الأحزان، ويجدد الدورة، فيبدأ، ويجمّع، ثم يدعها تهوي. والجسد وحده يصغي للنحلة العابرة ؛ للموجة تتكسر ؛ للكلب ينبح، من بعيد ينبح وينبح .

هتفت كلاريسا : « عجباً، جرس الباب الخارجي » ! وأوقفت حركة ابرتها. انها ما ان اوقظت حتى اصغت. قال الرجل المسن في الردهة : السيدة دالاواي ستستقبلني وكرر القول : « اي نعم، ستستقبلني»، وهو يزيح لوسي جانباً بكل لطف، ويهرع صاعداً الى الطابق الأعلى بكل سرعة. تمتم وهو يهرع صاعداً : « نعم، نعم، نعم، انهاسوف تستقبلني. بعد خمس سنين في الهند، كلاريسا سوف تستقبلني » .

تساءلت السيدة دالاواي وهي تسمع وقع اقدام على السلم، « من الذي يمكن ان ـ ما الذي يمكن ان ـ » (فقد خالته شيئا فظيعاً ان تقاطع في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم الذي تقيم فيه حفلتها). سمعت يداً على الباب. وهمت باخفاء فستانها، كعذراء تصون الشرف، تحترم الخلوة. الآن انزلق المقبض النحاسي. الآن انفتح الباب، فإذا به يدخل ـ ولثانية واحدة لم تستطع ان تتذكر اسمه ! كانت في غاية الدهشة لرؤياه، في غاية الغبطة، في غاية الخجل، وفي غاية البغتة المطبقة ان تجد بيتر ولش يأتي اليها على غير توقع صباحاً ! (لم تكن قد قرأت رسالته) .

قال بيتر ولش : « وكيف حالك؟». وهو يرتجف بالفعل، وأخذ كلتا يديها ؛ قبّل كلتا يديها. دار في خلده انها قد كبرت، وجلس. قال في خاطره انه لن يقول لها شيئاً عن ذلك، فإنها قد كبرت. دار في خلده انها تنظر اليه، واستبد به حرج مفاجىء، وإن كان قبّل منها اليدين. وضع يده

في جيبه وأخرج سكينة جيب كبيرة وفتح نصلها الى النصف .

دار في خلد كلاريسا انه هو هو بالضبط ؛ النظرة الغريبة الأطوار نفسها ؛ البدلة المرقطة بالمربعات نفسها ؛ وجهه خلاف المعتاد بعض الشيء، أنحف قليلاً، أذبل ربما، لكنه يبدو بخير حال بشكل فظيع، يبدو هو هو تماماً .

هتفت تقول : « يا للروعة ان أراك مرة أخرى ! » كان قد أخرج سكينته. دار في خلدها ان هذا أشبه شيء به .

قال انه وصل الليلة الماضية فقط ؛ عليه ان يذهب الى الريف فوراً ؛ وكيف الأمور، كيف الجماعة ـ ريتشارد، أليزابيث ؟

وأردف : « وما كل هذا » ؟ مسدداً سكينته نحو فستانها الأخضر .

دار في خلد كلاريسا انه انيق جداً في ملبسه ؛ على أنه ينتقدني دائماً .

قال في خاطره، ها هي هنا ترفو فستانها ؛ ترفو فستانها كالمعتاد ؛ تلهو وتعبث ؛ تذهب الى الحفلات، تهرع الى مجلس العموم وتعود وما الى ذلك، فكر بهذا وهو يزداد انفعالاً، يزداد تهيجاً اذ ليس هنالك شيء في الدنيا اسوأ لبعض النساء من الزواج، هكذا قال في خاطره ؛ والسياسة ؛ وان يكون لديها زوج من حزب المحافظين، مثل ريتشارد الرائع. هذه هي المسألة، هذه هي المسألة، ردد ذلك في خاطره وهو يغلق سكينته خطفاً .

قالت كلاريسا : « ريتشارد على أحسن حال. وهو الآن يجتمع في لجنة » .

وفتحت مقصها، وقالت هل يمانع ان تكمّل تواً ما كانت تصنعه بفستانها، ذلك ان لديهم حفلة تلك الليلة ؟

وأضافت : « ولن ادعوك اليها. عزيزي بيتر » !

لكن ما ألذ ان يسمعها تقول ذلك ـ عزيزي بيتر ! حقاً إن كل شيء لذيد جداً ـ الفضيات، المقاعد، كل هذا لذيذ جداً !

سألها لماذا لا تدعوه الى حفلتها ؟

قالت كلاريسا في خاطرها، طبعاً طبعاً انه فتان ! فتان على أكمل وجه ! وتساءلت في نفسها تقول اني اتذكر الآن كم كان من المستحيل علي جداً ان اقرر ـ ولماذا قررت ـ ألا أتزوجه في ذلك الصيف الفظيع ؟

هتفت، وهي تضع يدها الواحدة فوق الأخرى على فستانها : « ما أعجب ان يكون مجيئك هذا الصباح » .

وأردفت : « هل تتذكر كيف كانت الستائر ترفرف باستمرار في بورتون » .

قال : « كانت ترفرف »، وتذكر تناوله الإفطار وحده على نحو نشاز جداً، مع والدها ؛ مات ولم يكتب لكلاريسا. لكنه لم ينسجم ابداً مع باري نفسه ذلك الشيخ المشاكس، المتردد الضعيف الارادة، والد كلاريسا جوستين باري .

قال: «لطالما تمنيت ان انسجم بشكل أفضل مع والدك »

قالت كلاريسا « لكنه لم يكن ميالاً لأي أحد من اصدقائنا اراد ان ـ » وكادت تقرض لسانها لأنها تذكرت ان بيتر اراد ان يتزوج منها .

دار في خلد بيتر انه يتذكر بالطبع ؛ ودار في خلده ان ذلك كاد يحطم قلبه ؛ فهيمن عليه حزنه الذي ارتفع كقمر يُرى من شرفة، شاحب الجمال بنور يقبس من نهار يولّي. قال في خاطره : لقد تفاقمت تعاستي منذ ذلك الحين. وكما لو كان يجلس فعلاً هنالك في الشرفة فإنه مال قليلاً نحو كلاريسا ؛ مدّ يده ؛ رفعها ؛ وتركها تسقط. هناك فوقهم تدلى، ذلك القمر. انها هي ايضاً بدت وكأنها تجلس معه في الشرفة، في ضوء القمر .

قالت : « هربرت يملك بورتون الآن. انا لا أذهب الى هنالك ابداً الآن » .

عندئذ، وكما يحدث في شرفة في ضوء القمر، حين يشعر احدهم بالخجل لأنه ضجر اصلاً، ومع هذا، واذ يجلس الآخر صامتاً، بمنتهى السكون، ناظراً بحزن الى القمر، فإنه لا يرغب بالكلام، يحرك قدمه،

يتنحنح، يلحظ بعض اللوالب الحديدية على ساق الطاولة، يحرك ورقة شجر، لكنه لا يقول شيئاً ـ هكذا فعل بيتر ولش الآن. ففيم الرجوع على هذا النحو الى الماضي ؟ هكذا قال في خاطره. فيم تذكيرها اياه بالماضي مرة أخرى ؟ فيم تجعله يشقى وكانت قد عذبته عذاب الجحيم ؟ لماذا ؟

قالت : « هل تذكر البحيرة ؟ » وسألته بصوت باغت، تحت ضغط عاطفة فجأت قلبها، ووترت عضلات حنجرتها، وقلصت شفتيها في وضع متشنج حين قالت « البحيرة » ذلك أنها كانت طفلة ترمي الخبز للبط بين والديها، وكانت في الوقت ذاته إمرأة شبت عن الطوق تأتي الى والديها وهما واقفان عند البحيرة، تحمل حياتها في حضنها، حياتها التي ما فتئت، إذ هي تقترب منهما، تكبر وتكبر في حضنها، الى أن أضحت حياة كاملة، حياة تامة، والتي وضعتها بجنبهما وقالت : « هذا هو ما صنعت منها ! هذا ! » وما الذي صنعته ؟ ماذا، حقاً، إذ هي جالسة هناك مع بيتر تخيط هذا الصباح ؟

نظرت الى بيتر ولش، إن نظرتها، وهي تمر من خلال ذلك الزمن كله وتلك العاطفة كلها، قد وصلت اليه مرتابة، حطت عليه دامعة، وارتفعت وحلقت ترفرف بعيداً، كطير يمس غصناً ويحلق فيرفرف بعيداً. وبكل بساطة مسحت كلاريسا عينيها .

قال بيتر : « نعم، نعم » كما لو أنها سحبت الى السطوح شيئاً آذاه بالتأكيد وهو يطفو. أراد ان يصرخ، كفى، كفى ! ذلك أنه ليس مسناً، حياته لم تنته، ولا بأية صورة من الصور. ولم يتجاوز الخمسين إلا تواً قال في خاطره، أأخبرها، أم لا ؟ إن بوده أن يفرغ كل ما في صدره. وقال في خاطره لكنها بمنتهى البرود ؛ تخيط، هي ومقصها ؛ ديزي ستبدو اعتيادية بجنب كلاريسا. وكلاريسا ستظنني فاشلاً، وإني لكذلك بنظرهم، بنظر آل دالاواي. إي نعم، لا ريب لديه في ذلك انه فاشل، بالقياس الى كل هذا ـ المنضدة المطعمة، قاطعة الورق المنضودة عليها، سمكة الدولفين

والشمعدانات، أغطية الكراسي وطبعات الصور الملونة الانكليزية القديمة القيّمة ـ قال في خاطره إنه فاشل ! إني أمقت هذا الفرح والرضا بالنفس في هذه المسألة كلها، وهذا صنيع ريتشارد، وليس صنيع كلاريسا، خلا أنها تزوجته. (هنا دخلت لوسي الغرفة تحمل فضيات، مزيداً من الفضيات، لكن لوسي بدت كما ظن فاتنة، رشيقة، أنيقة الحركة، وهي تنحني لتضع ما تحمله). ودار في خلده أن هذا يجري طيلة الوقت ! اسبوعاً بعد اسبوع، حياة كلاريسا، بينما أنا ـ قال في خاطره، وفي الحال بدا وكأن كل شيء يشع منه، رحلات، ركوب خيل، خصومات ؛ مغامرات، حفلات البريدج، غراميات، عمل، عمل، عمل، وأخرج سكينته علناً، سكينته القديمة ذات المقبض من عظم القرن والتي بوسع كلاريسا أن تقسم انه كان يحملها طيلة هذه السنين الثلاثين ـ واطبق بقبضته عليها .

قالت كلاريسا في خاطرها ما أغرب هذه العادة الاستثنائية ! اللعب بسكين دائماً والأنكى انه دائماً يجعل المرء يشعر بالتفاهة، بفراغ العقل، بكونه مجرد مهذار سخيف، هذا هو دأبه. وقالت في خاطرها وأنا أيضاً واستدعت وهي تتناول ابرتها، كما تستدعي ملكة نام عنها حرسها وتركوها بلا حماية (لقد فوجئت تماماً بزيارته ـ وأغمّها) بحيث يستطيع من هب ودب الدخول دون استئذان فينظر اليها حيث تستلقي في العليق يتثنى فوقها، استدعت لعونها الأشياء التي قامت بها، الأشياء التي تودها، زوجها، اليزابيث، وباختصار نفسها التي لا يكاد يعرفها بيتر إلا قليلاً الآن، استدعتها كلها لتوافيها فتصد عنها العدو .

قالت « حسناً، وما حدث لك » ؟ وهكذا فقبل ابتداء معركة ما تضرب الخيل بحوافرها الأرض، تهز رؤوسها، والضياء يلتمع على خواصرها، تنثني رقابها. وهكذا تحدى بيتر ولش وكلاريسا أحدهما الآخر وهما جالسان جنباً إلى جنب على الأريكة الزرقاء. لقد فارت قواه غيظاً وتلاطمت فيه. جمع من شتى الأصقاع كل أنواع الأشياء ؛ الثناء ؛ عمله

في أوكسفورد ؛ زواجه الذي لا تعلم عنه شيئاً على الاطلاق ؛ كيف انه قد أحب ؛ كيف أنه أدى واجبه على العموم .

هتف يقول : « ملايين الأشياء » ! وما أن استحثه تجميع القوى التي تهجم الآن في هذه الجهة وتلك وأعطاه معاً وفي الوقت عينه شعوراً مخيفاً ومنعشاً حد الافراط، شعوراً بكونه يُحمَل سريعاً في الهواء على أكتاف أُناس لا يستطيع رؤيتهم، حتى رفع يديه الى جنبيه .

جلست كلاريسا بانتصاب تام ؛ وحبست أنفاسها .

قال : « إني مغرم »، ليس بها على كل حال، بل بأخرى نشأت في العتمة بحيث لا يمكنك مساسها بل يجب عليك القاء اكليلك على العشب في الظلام .

وكرر القول : « مغرم »، وهو يتكلم الآن بجفاف نوعاً ما مع كلاريسا دالاواي ؛ وأضاف : « مغرم بفتاة في الهند ». لقد أودع اكليله. وبوسع كلاريسا ان تفعل ما تفعله بذلك .

قالت : « مغرم » ! ان يخنقه وهو بعمره بربطة عنقه ذلك الغول ! وليس ثمة من لحم في رقبته ؛ يده حمراء ؛ وهو يكبرني بستة أشهر ! وأرسلت اليها عيناها الاشارة ؛ لكنها في قلبها كأنها تقول : فليكن ؛ انه مغرم. شعرت انه يمتلك ذلك ؛ إنه مغرم .

لكن الغرور الذي لا يقهر ويصرع دائماً الحشود المناهضة له، النهر الذي يقول امضِ، امض، امض ؛ ومع ان الغرور يقر بأننا قد لا يكون لنا هدف على الإطلاق، إلا انه يقول إمض، إمض، هذا الغرور الذي لا يقهر قد بث في خديها لوناً ؛ جعلها تبدو فتية جداً ؛ وردية جداً ؛ لامعة العينين جداً إذ جلست وفستانها على ركبتها، وابرتها ترتعش قليلاً وهي تمدها الى نهاية خيط الحرير الأخضر. انه مغرم ! ليس بها. بإمرأة ما أصغر، بالطبع .

قالت : « ومن هي » ؟

والآن يجب انزال هذا التمثال من مرتفعه ووضعه بينهما .

قال : « الامرأة متزوجة، لسوء الحظ ؛ زوجة رائد في الجيش الهندي » .

وابتسم بحلاوة ساخرة غريبة إذ وضع الامرأة بهذه الطريقة السخيفة حيال كلاريسا .

(قالت كلاريسا في خاطرها فليكن، انه مغرم) .

وواصل يقول بطريقة معقولة جداً: «إن لديها طفلين صغيرين؛ ولداً وبنتاً؛ وقد جئت لمراجعة وكلائي المحامين بشأن الطلاق.»

وقال في خاطره ها هم امامك ! افعلي بهم ما تشائين، يا كلاريسا ! ها هم اولاء امامك ! وبدا له ان زوجة الرائد في الجيش الهندي (حبيبته ديزي) وطفليها الصغيرين اصبحوا، لحظة بعد لحظة، اكثر روعة لما نظرت كلاريسا اليهم ؛ لكأنه قد أوقد كريوة شمعية في صحن فإذا بشجرة رائعة تتصاعد في هواء صميميتهم المنعش المضمخ بماء البحر (ذلك لأنه، من بعض النواحي، ما من احد فهمه، شعر معه، كما فهمته وشعرت معه كلاريسا) ـ هواء صميميتهم الرهيفة .

دار في خلد كلاريسا ان هذه المرأة قد تملقته بالاطراء، قد خدعته؛ رسمت صورة المرأة، زوجة الرائد في الجيش الهندي، بثلاث ضربات من سكين. يا للضياع ! يا للحماقة ! ففي حياته بطولها كان بيتر يخدع على هذه الشاكلة ؛ اولاً فصله من أوكسفورد ؛ ثم زواجه من فتاة على المركب وهو في طريقه الى الهند ؛ الآن زوجة رائد ـ حمداً لله انها قد رفضت الزواج منه ! مع هذا، فإنه مغرم ؛ صديقها القديم، عزيزها بيتر، مغرم .

سألته : « ولكن ما الذي ستفعله » ؟ قال، أوه، إن مكتب المحامين، السيدين هوپر وغريتلي، سيتولى الأمر. في هذه الأثناء قلّم بالفعل أظافره بسكينته الجيبية .

صرخت بينها وبين نفسها في انفعال لا يكبح، بالله عليك، أترك سكينتك جانباً ! إن هذا هو خروجه السخيف عن المألوف، إنه ضعفه ؛ ثم

ان عدم تفكيره التام فيما يشعر به الآخرون هو الذي يضايقها، قد ضايقها دائماً ؛ والآن وبعمره هذا، فما اسخفه .

قال بيتر في خاطره أنا أعرف كل هذا ؛ انا اعرف من أجابه، كلاريسا ودالاواي ومن لف لفهما. فكر بذلك وهو يمرر اصبعه حذو نصل سكينه ؛ لكني سأري كلاريسا ـ واذا به في هذه اللحظة ينفجر بالبكاء مما اثار دهشته المطبقة. لقد ألقت به فجأة تلك القوى التي لا يمكن السيطرة عليها، مرمياً في الهواء ؛ أجهش ؛ أجهش بلا حياء، وهو جالس على الأريكة، والدمع يسيل على خديه .

انحنت كلاريسا للأمام، وأخذت يديه، وسحبته اليها، وقبلته ـ شعرت بالفعل بوجهه على وجهها قبل ان تغمد في صدرها الرياش المشهرة الفضية البروق كالعشب المترامي في زوبعة استوائية، والتي ما أن خفت حتى تركتها ممسكة بيده، مربتة على ركبته، فعادت الى جلستها تشعر بارتياح استثنائي معه وقلبها منشرح، وقد اعتراها كل ذلك على حين غرة، فحدثت نفسها تقول لو أني كنت قد تزوجته لكان هذا الجذل جذلي طوال النهار !

وانتهى الأمر بالنسبة اليها. غطاء الفراش ممدود والسرير ضيق. لقد صعدت الى البرج وحدها وتركتهم يقطفون التوت الأسود في الشمس. الباب قد أوصد، وهنالك بين غبار الجص المتساقط ونفايات اعشاش الطيور بدا المنظر نائياً، والأصوات رفيعة ومقشعرة (تذكرت هذا ذات مرة في ليثهيل)، فصاحت ريتشارد، ريتشارد ! كنائم يفزع في الليل ويمد يداً في الظلام طلباً للنجدة. وعاد اليها امر الغداء مع الليدي بروتون. لقد تركها ؛ قالت في نفسها، وهي تطوي يديها فوق ركبتها : إني وحيدة الى الأبد .

كان بيتر ولش قد نهض ومضى الى النافذة ووقف وظهره الى كلاريسا، ينفض منديلاً كبيراً مزركشاً من طرف الى طرف. بدا حاذقاً وجافاً وجهماً، وعظام كتفيه النحيفة سترفع سترته قليلاً ؛ تمخّط بعنف. قالت كلاريسا في خاطرها بعنف شديد خذني معك، كما لو أنه يقدم من فوره

على رحلة ما عظيمة ؛ من ثم، وفي اللحظة التالية، كان الوضع وكأن الفصول الخمسة من مسرحية ما مثيرة جداً ومهيجة للعواطف قد انتهت الآن وهي قد عاشت فيها عمراً وفرّت، فعاشت مع بيتر، والآن انتهى الأمر .

وحان وقت التهيؤ للمغادرة، وكامرأة تجمع اشياءها، معطفها، قفازها، ومنظار الأوبرا، فتنهض للخروج من المسرح الى الشارع، قامت كلاريسا من الأريكة وذهبت الى بيتر .

ودار في خلده كيف أن من الغرابة بمكان انها لا تزال لديها القوة، إذ أقبلت برنينها وهفهفتها، انها لا تزال لديها القوة، اذ أقبلت عبر الغرفة، لتجعل القمر، الذي يمقته، يبزغ في بورتون على الشرفة في سماء الصيف .

قال، وهو يمسك بها من الكتفين : « خبريني - هل انت سعيدة، كلاريسا ؟ هل ان ريتشارد » -

انفتح الباب .

فقالت كلاريسا، بعاطفية، وربما بشكل مسرحي متكلف : « ها هي حبيبتي اليزابيث » .

قالت اليزابيث وهي تتقدم : « كيف حالك » ؟

دقت ساعة بيغ بن نصف الساعة بصوت انطلق بينهم بقوة فائقة، كما لو ان شاباً يافعاً، غير مكترث، لا يأبه بشيء، يؤرجح كرات الأثقال الحديدية في هذه الجهة وتلك .

صاح بيتر : « مرحباً، اليزابيث » ! وهو يدس منديله في جيبه، ويذهب الى السيدة دالاواي على عجل قائلاً : « في امان الله كلاريسا ». دون ان ينظر اليها، فيغادر الغرفة على عجل، ويهرع نازلاً الى الطابق الأرضي ليفتح باب الردهة .

صاحت كلاريسا : « بيتر ! بيتر ! حفلتي ! تذكر حفلتي الليلة » ! وهي تتبعه الى صحن السلم، وكان عليها ان ترفع صوتها في هدير الهواء الطلق، فبدا صوتها، وقد طغت عليه ضوضاء المرور ورنين جميع الساعات

تدق، صوتاً خافتاً ضعيفاً، ونائياً جداً اذ أغلق بيتر ولش الباب وهي تصيح من خلفه : « تذكر حفلتي الليلة » !

قال بيتر ولش وهو ينحدر ماشياً في الشارع، تذكر حفلتي، تذكر حفلتي، مكلماً نفسه بايقاعية وانسجام مع جريان الصوت ؛ الصوت المباشر الصرف لساعة بيغ بن تدق نصف الساعة. (الدوائر المثقلة تذوب في الهواء). قال في خاطره، ما هذه الحفلات ؟ حفلات كلاريسا. لماذا تقيم هذه الحفلات ؟ لا لأنه يلومها او يلوم هذا الرجل المصطنع المقبل نحوه ببدلة رسمية والقرنفلة في عروة سترته. شخص واحد فقط في الدنيا يمكن ان يكون كما هو عليه، مغرماً. وها هو، هو هذا الرجل المحظوظ، هو نفسه، وقد انعكس على زجاج نافذة معرض للسيارات في شارع فكتوريا. عموم الهند تمتد وراءه ؛ سهول، جبال، اوبئة الهيضة الوافدة ؛ مقاطعة يديرها بحجم ارلندة مرتين ؛ قرارات توصل اليها وحده ـ هو، بيتر ولش المغرم الآن اول مرة في حياته حقاً. جال في خاطره ان كلاريسا قد اضحت جافة ؛ وساوره ظن أنها أمست، الى ذلك، ذات ميوعة عاطفية بعض الشيء، وهو يتطلع بالسيارات الفارهة التي تبلغ طاقتها ان تقطع ـ كم من الأميال بكم من اللترات ؟ ذلك ان فيه نزعة للميكانيك ؛ وقد اخترع محراثاً في مقاطعته، قد طلب إرسالية من عجلات سحب من انكلترا، لكن العمال الهنود ما كانوا ليستعملونها، كل هذا لا تعرف عنه كلاريسا شيئاً على الاطلاق .

الطريقة التي قالت بها « هذه حبيبتي اليزابيث » ! ـ ذلك ما أزعجه. لم لا تقول « هذه اليزابيث » ببساطة ؟ كان قولها خالياً من الإخلاص. واليزابيث لم تسترح بدورها لذلك. (لا تزال الاهتزازات الأخيرة للصوت العظيم المتصاعد تخض الهواء خضاً حواليه ؛ نصف الساعة ؛ لا يزال الوقت مبكراً، مجرد الحادية عشرة والنصف بعد). ذلك انه يفهم الشباب ؛ يودهم. قال في خاطره ثمة شيء من البرود في كلاريسا دائماً. كان فيها

دائماً، حتى وهي فتاة، نوع من الحياء الذي يغدو في أواسط العمر عرفاً تقليدياً، ثم ينقضي كل شيء، ينقضي كل شيء، قالها وهو ينظر بتجهم نوعاً ما في الأعماق الزجاجية، ويتساءل في نفسه ترى هل انه ضايقها بزيارته في تلك الساعة ؟ واستبد به الخجل فجأة لأنه كان سخيفاً ؛ لأنه بكى ؛ وكان مائعاً عاطفياً ؛ اخبرها بكل شيء كالعادة، كالعادة .

وكما تمر سحابة على وجه الشمس، يرين الصمت على لندن، ويرين على العقل. الجهاد يتوقف. الزمن يرف على الصارية. هنالك نتوقف ؛ هناك نقوم واقفين. وهيكل العرف والعادة هو وحده الذي يدعم بصلابته الجسد الانساني. وقال بيتر ولش لنفسه حيث لا شيء هناك، وشعر بخوائه، بفراغه المطبق في الباطن وقال في خاطره : كلاريسا رفضتني. وقف هناك يفكر، كلاريسا رفضتني .

آه، دقت كنيسة القديسة مارغريت، كأنها مضيّفة تأتي الى صالتها على دقة الساعة بالضبط، فتجد ضيوفها هناك سلفاً. انا لست متأخرة. لا، انها الحادية عشرة والنصف بالضبط، تقول. مع هذا، وعلى انها على صواب تام، فإن صوتها، كونه صوت المضيفة، يتردد في فرض فرديته. إن حزناً ما على الماضي يمنع ذلك، قلقاً ما على الحاضر. إنها الحادية عشرة والنصف، تقول، ورنين كنيسة القديسة مارغريت ينزلق الى فجوات القلب ويدفن نفسه في حلقة إثر حلقة من الصوت، كشيء حي يريد ان يفضي بنفسه، أن ينشر نفسه، أن يكون، بارتعاشة من الصوت، ساكناً ـ مثل كلاريسا نفسها، كما يتصورها، وهي تنزل السلالم على دقة الساعة ترتدي البياض. فكر أنها كلاريسا بالذات، وفكر بعاطفة عميقة وبتذكرٍ لها فائق الوضوح وإن كان محيراً، كما لو أن هذا الجِرْس قد دخل الغرفة مثل سنين خلت، حيث جلسا في لحظة من لحظات الصميمية الحميمة العظيمة، فانتقل من أحدهما الى الآن وترك المكان، محملاً باللحظة كنحلة محملة بالعسل. لكن أية غرفة ؟ أية لحظة ؟ ولماذا كان سعيداً بتلك الدرجة من العمق حين كانت الساعة تدق ؟ ثم، وإذ تلاشى صوت كنيسة القديسة

مارغريت، فقد أخذ يفكر بأن كلاريسا كانت مريضة، والصوت عبّر عن الوهن والشقاء. وتذكر ان السبب كان قلبها، وأن التصاعد المفاجىء للدقة النهائية قد أعلن عن موت من النوع الذي يباغت في خضم الحياة، كلاريسا تسقط حيث وقفت، في صالتها. صاح : لا ! لا ! إنها ليست ميتة ! أنا لست مسناً، صاح وغذ السير في جادة وايتهول، وكأن مستقبله يترامى أمامه، شديد العنفوان، لا ينتهي .

إنه ليس مسناً، أو مقولباً، أو مجدباً بأية حال. أما بشأن اهتمامه بما يتقولونه عنه ـ آل دالاواي، آل ويتبريد، ومن لف لفهم، فهو لا يهتم قيد أنملة ـ ولا قيد انملة (وإن كان صحيحاً أنه سيترتب عليه ان يتبين، في وقت أو آخر، هل يستطيع ريتشارد معاونته في الحصول على عمل ما) انه، وهو يوسع الخطى، محملقاً، قد نظر شزراً في تمثال دوق كيمبريدج. لقد طرد من اوكسفورد ـ صحيح. لقد كان اشتراكياً، فهو بمعنى من المعاني فاشل ـ صحيح. وقال في خاطره مع هذا، فإن مستقبل الحضارة مودع في ايدي شبان على هذه الشاكلة، شبان من مثل ما كان هو عليه، قبل ثلاثين سنة خلت، بحبهم المبادىء المجردة، شبان يطلبون كتباً ترسل اليهم طول المسافة من لندن الى قمة في الهمالايا، يقرأون العلم، يقرأون الفلسفة. قال في خاطره إن المستقبل مودع في أيدي شباب على هذه الشاكلة.

ثمة خشخشة كخشخشة الأوراق في غاب جاءت من خلفه، يصحبها حسيس، صوت وطء منتظم، ما ان تجاوزه حتى دمغ أفكاراً بلا ارادة منه، وطء منضبط الخطو، يسير في جادة وايتهول. صبيان بالبزة العسكرية، يحملون البنادق، يمشون مشيتهم العسكرية وعيونهم شاخصة للأمام، يمشون مشيتهم العسكرية وسواعدهم متصلبة، وعلى وجوههم تعبير كحروف الكلام المسطور حول قاعدة تمثال والذي يطري الواجب، وعرفان الجميل، والاخلاص، وحب انكلترا.

ودار في خلد بيتر ولش أنه تمرين رائع جداً، وقد بدأ يساير الخطى

معهم. لكنهم لا يبدون أشداء. انهم نحيلون في الغالب، صبيان في السادسة عشرة، قد يقفون، غداً أمام قصع الرز، وقوالب الصابون الموضوعة على رفوف. إنهم الآن يلوح عليهم وقار غير ممزوج بلذة حسية أو هموم يومية، هو وقار الاكليل الذي أتوا به من فينزباري بيفمانت الى القبر الخالي. لقد أخذوا عهداً على انفسهم. حركة المرور احترمت ذلك. الشاحنات أوقفت.

قال بيتر ولش في خاطره لا استطيع مسايرتهم، اذ هم يمشون مشيتهم العسكرية في جادة وايتهول، والحق أنهم مشوا فتجاوزوه وتجاوزوا الآخرين كلهم، بطريقتهم الراسخة، كما لو أن ارادة واحدة هي التي تحرك السيقان والسواعد تحريكاً منسقاً، وكما لو أن الحياة بتنوعاتها وانطلاقاتها قد وضعت تحت رصيف من الأنصاب والأكاليل وخدرت حتى آلت بالانضباط الى جثمان متصلب وإن كان جثماناً محملقاً. وخيل له أن على المرء ان يحترم ذلك: المرء قد يستهزىء لكن عليه ان يحترم ذلك. ودار في خلد بيتر ولش ها هم اولاء ذاهبون، وهو يتوقف عند حافة الرصيف، وكل التماثيل المجلية، نلسون، غوردون، هافيلوك، الأشباح السوداء الشامخة لمحاربين عظام، تقف ناظرة الى الأمام. كما لو انهم ايضاً قد قاموا بنكران الذات الزاهد نفسه (شعر بيتر ولش انه هو، ايضاً، قد جعلها نكراناً عظيماً للذات) وقد سحقوا تحت المغويات نفسها، وحققوا بعد طول عناء حملقة رخامية. لكن بيتر ولش لم يرد الحملقة لنفسه اطلاقاً، وإن كان بوسعه أن يحترمها في الآخرين. بوسعه ان يحترمها في الصبيان. خيل له أنهم لا يعرفون بعد مشاكل الجسد، اذ اختفى الصبيان السائرون في مشيتهم العسكرية باتجاه منطقة الستراند ـ وقال في خاطره: كل المشاكل التي عانيتها، قالها وهو يعبر الطريق ويقف تحت تمثال غوردون، غوردون الذي عبده في صباه، غوردون يقف وحيداً بساقه مرفوعة وقد شبك ذراعيه ـ فقال في خاطره غوردون المسكين .

وإذ لم يكن أحد يعرف بعد أنه في لندن، عدا كلاريسا، والأرض

بعد الرحلة لا تزال تبدو له جزيرة، فإن غرابة الوقوف وحيداً حياً، غير معروف في الحادية عشرة والنصف في ميدان الطرف الأغر، قد استبدت به. ما الأمر ؟ أين أنا ؟ ولماذا يفعلها المرء على اية حال ؟ هكذا دار في خلده، والطلاق يظهر له شيئاً غير شرعي كلياً. شعر ان باطن عقله يتسطح كمستنقع، وأطبقت عليه ثلاث عواطف عظيمة، التفهم؛ عمل الخير، وأخيراً ابتهاج رهيف لا يكبح كما لو أنها من أجل الآخرين، كأن في باطن عقله يداً أخرى سحبت الخيوط وفتحت المغاليق، وأنه هو الذي لا علاقة له بالأمر، قد وقف مع هذا عند مفتتح جادات لا تنتهي لو شاء لجاس فيها. انه لم يشعر منذ سنين بهذا القدر من الفتوة .

لقد نجا بجلده فهو حر كلياً ـ كما يحدث عند انحلال العادة المستحكمة فينحني العقل وينثني، كلهيب منفلت، ويبدو، كأنه على وشك الخلاص من سيطرتها. قال بيتر في خاطره لم أشعر منذ سنين بهذا القدر من الفتوة، وهو ينجو فراراً (ساعة لا غير أو ما يقرب منها بالطبع) من كونه ليس هو بالضبط، ويشعر كطفل يهرب الى الخارج فيرى وهو يركض مربيته نفسها تلوح لنافذة أخرى غير التي هرب منها. قال في خاطره هذه فتاة جذابة جداً. كان يسير عبر ميدان الطرف الأغر باتجاه شارع هايماركيت فأقبلت فتاة بدت، وهي تتجاوز تمثال غوردون، وكأنها تنضو، كما خيل الى بيتر ولش، غلالة اثر غلالة، حتى غدت المرأة بالذات التي فكر فيها على الدوام؛ شابة، لكنها مهيبة؛ مرحة، لكنها متحفظة؛ سوداء، لكنها فاتنة.

وما ان استقام ولمس بأصابعه خفية سكينته الجيبية حتى بدأ يسير خلفها، يعقب هذه المرأة، هذه الاثارة التي بدت حتى وظهرها اليه كأنها تلقي عليه ضوءاً يربطهما، ضوءاً يتخيره بمفرده، كما لو ان هدير حركة المرور العشوائي قد همس اسمه خلال ايد مجوفة، ليس بيتر، بل اسمه الخاص الذي به ينادي نفسه في افكاره ذاتها. « أنت »، قالت، « أنت »، فقط، وكانت تقولها بقفازيها الأبيضين وبكتفيها. عندئذ فإن البردة الطويلة

الرلبهلة، التي حركتها الريح وهي تسير متجاوزة مخزن دينت في شارع كوكسبور، لقد انفتحت بلطف مطوّق، برقة حزينة، كما سينبسط ساعدان ليأخذا بالاحضان الرجل المتعب .

لكنها ليست متزوجة؛ انها شابة : دار في خلد بيتر أنها شابة جداً، والقرنفلة الحمراء التي رآها عليها وهي تقبل عبر ميدان الطرف الأغر تتقد مجدداً في عينيه وتجعل شفاهها حمراً. لكنها انتظرت على الرصيف. ثمة احتشام يحف بها. انها ليست خبيرة بالدنيا، مثل كلاريسا، ليست غنية، مثل كلاريسا. وتساءل وهي تتهادى ترى هل هي محترمة ؟ خيل اليه ان هذه فطنة منه، فطنة تخرج لسانها كأنه لسان سحلية مرتعش (فالمرء يجب ان يختلق، يجب ان يبيح لنفسه قليلاً من الاستطراد)، فطنة باردة متمهلة، فطنة مارقة كالسهم؛ لا تثير ضجيجاً.

ومضت؛ فعبرت وهو يتبعها. إن آخر ما يرغب فيه هو ان يحرجها. مع هذا لو وقفت فسيقول « تعالي الى شيء من الايس كريم »، سيقول، وهي ستجيب، بكل بساطة، « لبيك ».

لكن اناساً آخرين صاروا بينهما في الشارع، فعرقلوه، وحجبوها. واصل هو السير؛ وتبدلت هي. ثمة لون في خديها؛ هزء في عينيها؛ قال في خاطره انه مغامر، متهور، متسرع، جريء، بل هو (وقد وصل ليلة أمس من الهند) قرصان رومانسي حقاً، لا يأبه لكل هذه الآداب الاجتماعية اللعينة، والبرانس الصفراء والغلايين وصنارات صيد السمك في واجهات المخازن؛ والاحترامات والسهرات والشيوخ المهندمين يرتدون القمصان البيضاء تحت صديرياتهم .

انه قرصان مغامر. ومضت هي تسير وتسير، عبر بيكاديللي، الى شارع ريجنت، أمامه قدماً، بردتها، قفازها، كتفاها، فتمتزج كلها بالشرائط والدانتيل ورياش الملافع الطويلة في الواجهات، لتخلق روحية البهرجة والنزق التي تتهافت خارجة من المخازن الى الرصيف، كضياء سراج يقع

مرتعشاً ليلاً فوق اسيجة الوشيع في الظلام .

عبرت، ضاحكة وحلوة الطلعة، شارع اوكسفورد وشارع بورتلاند الكبير واستدارت الى احد الشوارع الفرعية الصغيرة، والآن، والآن تقترب اللحظة العظيمة، ذلك انها الآن قد أبطأت، فتحت حقيبتها، وبنظرة واحدة باتجاهه، انما ليست نحوه، القت بالوداع، وأوجزت الأمر كله فطرحته مظفراً الى الأبد، وأولجت مفتاحها ثم فتحت الباب، ودخلت ! رن في أذنيه صوت كلاريسا يقول تذكر حفلتي، تذكر حفلتي. كان البيت من تلك البيوت الحمراء المسطحة ذات السلال المتدلية من الأزهار، سلال يحفها من سوء اللياقة ما هو مبهم. انتهى الأمر.

قال في خاطره حسناً لقد استأنست بمتعتي؛ استأنست بها، قال وهو يتطلع الى السلال المتأرجحة من زهور الجيرانيوم الشاحبة. ولقد تبددت هباء ـ متعته، ذلك انها كانت متعة نصف مختلقة، كما يعلم جيداً؛ متعة مخترعة؛ هذا العمل الطائش مع الفتاة؛ متعة مختلقة؛ كما يختلق المرء الجزء الأفضل من الحياة ـ اختلاق المرء لذاته؛ اختلاق الفتاة؛ خلق أنس رهيف، وزيادة. لكنه كان شيئاً نشازاً، وحقيقياً تماماً؛ كل هذا لا يستطيع المرء اقتسامه أبداً ـ وقد تبدد هباء .

استدار؛ مشى يقطع الشارع، وهو يفكر بالعثور على مكان ما يجلس فيه، حتى يحين موعده مع مكتب المحاميين السادة هوپر وغريتلي. الى أين يذهب ؟ لا يهم. فليمش وليقطع الشارع، اذن، نحو متنزه ريجنت. إن حذاءه يطرق على الرصيف : « لا يهم »؛ ذلك أن الوقت مبكر، ما زال الوقت مبكراً جداً.

كان الصباح رائعاً ايضاً. وكالنبض في قلب سليم دفقت الحياة في الشوارع. ليس ثمة تخبط ـ ولا تردد. وهناك، وقفت سيارة عند أحد الأبواب، كاسحة ومستديرة، بشكل دقيق، بمحافظة على الميقات، بلا جلبة، وفي اللحظة الصحيحة بالضبط. وترجلت فتاة، حريرية الجوارب،

مزينة بالرياش، وتلاشت عن النظر سريعاً، ولكنها ليست جذابة بالنسبة اليه جاذبية خاصة (ذلك انه قضى وطره). ومن خلال الباب المفتوح رأى بيتر حاشية رائعة من الخدم والحشم، كلاباً صينية صفراوية السمرة، صالات مرصوفة الأرضية بمعينات بيضاء وسوداء بستائرها البيض مرفرفة، رأى كل ذلك واستحسنه. لندن هي انجاز رائع بطريقتهاالخاصة، على كل حال، لندن؛ هذا الفصل من السنة؛ الحضارة. وبما أنه ينحدر من اسرة انغلو ـ هندية أدارت لثلاثة أجيال على الأقل شؤون قارة بكاملها (قال في نفسه ما أغرب العاطفة التي أحس بها عن هذا، رغم ما فيه من نفرة من الهند والامبراطورية والجيش)، فإن هناك لحظات تبدو له فيها الحضارة، حتى من هذا النمط، غالية كأنها ملك شخصي؛ لحظات من الفخر بانكلترا؛ بحاشية الخدم والحشم، بالكلاب الصينية؛ بالفتيات وهن آمنات. ظن أن كل ذلك هو من السخف بمكان، مع هذا فإنه موجود. وبدا له ان الأطباء ورجال الأعمال والنساء القديرات، وكلهم يقومون بأعمالهم، الكل يراعون المواقيت، يقظون، أشداء، انما يمثلون شيئاً رائعاً، وأن هؤلاء طيبون يأتمنهم المرء على حياته، وانهم رفاق في فن العيش، ويعينون المرء على اكمال شوطه. ان المسرحية، رغم هذا الشيء وذاك، يمكن احتمالها في الواقع جداً؛ وإنه لسوف يجلس في الظل ويدخن.

ها هو متنزه ريجنت. نعم. انه كان قد تمشى في متنزه ريجنت وهو طفل ـ قال في نفسه ان من الغريب ان تعاودني فكرة الطفولة دائماً ـ نتيجة لرؤية كلاريسا، ربما؛ ذلك ان النساء يعشن في الماضي اكثر منا. انهن يتعلقن بأماكن معينة؛ وبآبائهن ـ المرأة فخورة دائماً بأبيها. قال في خاطره ان بورتون مكان لطيف، مكان لطيف جداً، لكني لم أستطع ان انسجم أبداً مع الشيخ. حدثت مشاجرة عنيفة ذات ليلة ـ جدل حول شيء أو آخر. لا يستطيع ان يتذكر ما هو. سياسة على ما يفترض.

نعم، انه يتذكر متنزه ريجنت؛ الممشى الطويل المستقيم؛ البيت

الصغير حيث يشتري المرء النفاخات الى اليسار؛ تمثال اخرق عليه كتابة منقوشة في موقع أو آخر. تطلع يبحث عن مقعد فارغ. انه لا يريد ان يزعجه احد (على ما هو عليه من شعور بالدوار قليلاً) فيسأله عن الوقت. ثمة مربية مسنة شيباء، مع طفل نائم في عربته ـ ذلك افضل ما يستطيع ان يجده؛ الجلوس في نهاية المصطبة بجنب تلك المربية .

دار في خلده، وهو يتذكر فجأة اليزابيث تدخل الغرفة وتقف بجنب امها، انها فتاة ذات مظهر غريب الأطوار. كبرت؛ شبّت عن الطوق تماماً، ليست حسناء بالضبط؛ وسيمة بالأحرى؛ لا يمكن ان تكون قد تجاوزت ثمانية عشر عاماً. لعلها غير منسجمة مع كلاريسا. « ها هي حبيبتي اليزابيث » ـ هذا النمط من الأشياء ـ لِمَ لا « ها هي اليزابيث » ببساطة ؟ ـ تحاول ان تبرهن، كأغلب الأُمهات ان الأشياء ليست ما هي عليه. فكر في انها تتكل على فتنتها اكثر مما ينبغي. وتبالغ في ذلك.

كان دخان السيجار الثر الكريم يدوّم بارداً على حنجرته؛ وهو ينفخه مرة اخرى بحلقات تتصدى للهواء بشجاعة مدة لحظة واحدة؛ دخان ازرق؛ دائري ـ قال في نفسه سأحاول أن أتبادل وحدي كلمة مع اليزابيث الليلة ـ ثم بدأ الدخان يتهادى على شكل ساعات الرمل فيتلاشى؛ ظنها اشكالاً غريبة يتخذها الدخان. وفجأة أغلق عينيه، ورفع يده بجهد، ورمى عقب سيجاره الثقيل. ان أكمة عظيمة طفحت بسلاسة عبر عقله، وانجرفت عبره تدفع اغصاناً، أصوات اطفال، وقع اقدام، وأُناساً يمرون، وحركة مرور مغمغمة، حركة مرور ترتفع وتنخفض. غرق عميقاً عميقاً في ريش النوم وزغبه، غرق فأخمدت انفاسه.

استأنفت المربية الشيباء حياكتها اذ بدأ بيتر ولش بالشخير على المقعد الحار بجنبها، انها بردائها الرمادي، وهي تحرك يديها دون عناء وإن بهدوء بدت وكأنها المنادية بحقوق النائمين، كأنها طيف من تلك الطيوف الشبحية

التي تلوم هسقاً في غابات من سماء وغصون. والمسافر المستوحد، مطارد الدروب، مهزهز شجيرات السرخس، ومدمر اغراس الشوكران العظيمة، ما أن يرفع نظره فجأة حتى يرى الجسم العملاق في نهاية الرحلة.

انه، وهو الملحد في دينه ربما، يؤخذ على حين غرة بلحظات من التجلي الفائق. وهو يرى ان لا شيء يوجد خارجنا سوى الحالة العقلية؛ سوى الرغبة بالسلوان، بالفرج، بشيء ما خارج هؤلاء الأقزام التعساء، خارج هؤلاء الرجال والنساء الهزيلين، القبيحين، الجبناء. لكنه يرى انه اذا كان يستطيع ان يتصور تلك المرأة فإنها اذن موجودة على نحو ما، واذ يتقدم في الدرب وعيناه على سماء وأغصان فإنه سرعان ما يضفي على ما يرى نضجاً انثوياً؛ يرى بعجب كيف تغدو الأغصان وقورة؛ كيف تغدو جليلة، اذ يحركها النسيم، فتتخلى عن الاحسان والادراك والغفران، بحفيف قاتم من الأوراق، ثم ترتمي عالياً فتتخزي وقار سيمائها بعربدة سكر هوجاء.

مثل هذه هي الرؤى التي تقدم قروناً عظيمة هي رمز الخصب في الأساطير، قروناً ملأى بالثمار، تقدمها للمسافر المستوحد، او تتمتم في اذنه كصفارات انذار تتلاشى بعيداً على أمواج البحر الخضر، او تنقذف في وجهه كباقات ورد، او تخرج الى سطح الماء كوجوه شاحبة يفوج صيادو السمك في طوفان لعناقها.

مثل هذه هي الرؤى التي تقوم دون انقطاع بتعويم الشيء الحقيقي، بالسير بجنبه، بوضع وجوهها في مقدمته؛ انها غالباً ما تستحوذ على المسافر المستوحد فتسلبه الإحساس بالأرض، والرغبة بالعودة، وتعطيه كبديل سلاماً شاملاً، حتى كأن كل حميّا العيش هذه هي البساطة ذاتها (هكذا يظن اذ يتقدم في رحلة الغاب)؛ فإذا بألف الف شيء يندمج بشيء واحد؛ واذ بهذا الشيء المؤلف على ما هو عليه من سماء وغصون قد ظهر من البحر الهائج (انه مسن، جاوز الخمسين الآن) كأنه استُخلص من

الأمواج لكي يمطر من يديه الرائعتين رحمة، ادراكاً، غفراناً. لذا يقول في نفسه ألا ليتني لا أعود أبداً الى ضياء المصباح؛ الى غرفة الجلوس؛ لا أكمل ابداً كتابي؛ لا أنفض أبداً غليوني؛ لا أنادي ابداً على المسز تيرنو لترفع المائدة؛ بل بالأحرى ذرني أسير قدماً الى هذا الشيء العظيم، فهو سيحملني بهزة من رأسه على شفقه القطبي ويذرني انفجر الى لا شيء مع الآخرين.

مثل هذه هي الرؤى. وسرعان ما يصل المسافر المستوحد الى ما وراء الغابة؛ هنالك تقبل امرأة مسنة الى الباب بعيون مظللة بأيد مرفوعة، ربما بحثاً عن عودته، وصديريتها البيضاء خافقة، فتبدو المرأة (فبهذه القوة هو هذا السقم) وكأنها تبغي، في أرجاء الصحراء، ابناً ضائعاً؛ تبحث عن فارس محطم؛ تبدو وكأنها هي الأُم التي قتل ابناؤها في معارك العالم. وهكذا، وإذ يتقدم المسافر المستوحد في شارع القرية حيث النساء يقفن حائكات والرجال يحفرون في الحديقة، فإن الأصيل يبدو مشؤوماً؛ الأشكال ساكنة؛ حتى لكأن قدراً جباراً، معروفاً لديهم فينتظرونه بلا وجل، يوشك ان يجرفهم الى إبادة كاملة.

أما في الداخل ما بين الأشياء الاعتيادية، الخزانة، المائدة، أسكفّة النافذة بما عليها من جيرانيوم، فتغدو على حين غرة خطوط جسم مالكة المنزل، وهي تنحني لرفع غطاء المائدة، تغدو لينة في الضياء، شعاراً محبوباً لا يحرِّم علينا معانقته إلا تذكر العلاقات الانسانية الباردة. رفعت المربى، أغلقت عليه في الخزانة.

« هل من شيء آخر الليلة، يا سيدي »

لكن يجيب مَنْ المسافر المستوحد ؟

إذن فقد حاكت المربية المسنة وفي كنفها الطفل النائم في متنزه ريجنت. إذن فقد شخر بيتر ولش. أفاق بفجاءة باغتة، وهو يقول لنفسه : « موت الروح ».

قال لنفسه جهاراً : « يا الهي ! » وهو يتمطى ويفتح عينيه. « موت الروح ». إن الكلمات تتصل بمشهدٍ ما، بغرفةٍ ما، بماضٍ ما كان يحلم به، وغدا ذلك أوضح؛ المشهد، الغرفة، الماضي الذي كان يحلم به.

حدث هذا في بورتون ذلك الصيف، في أوائل التسعينات، حينما كان مدنفاً بغرام كلاريسا. كان هناك عدد كبير من الناس، يضحكون ويتكلمون، وقد جلسوا حول المائدة بعد تناول الشاي، وكانت الغرفة تسبح بضياء أصفر وتمتلىء بدخان السجائر. كانوا يتكلمون عن رجل تزوج من خادمته، أحد الذوات من المناطق المجاورة، نسي اسمه : لقد تزوج من خادمته، وجيء بها الى بورتون للزيارة وكانت زيارة فظيعة. كانت قد أفرطت في ملبسها على نحو أخرق، وقالت عنها كلاريسا، وهي تقلدها، إنها « كالببغاء ذات العرف » والزائرة لم تتوقف أبداً عن الكلام. مضت تتكلم وتتكلم، وراحت تستمر بالكلام. كلاريسا قلدتها.

عندئذ قالت إحداهن ـ كانت سالي سيتون ـ هل يختلف شعور المرء اذا عرف أن زوجته كانت قد حملت، قبل زواجها، بطفل ؟ (في تلك الأيام لم يكن يتجاسر أحد على مثل هذا في جلسة مختلطة من الجنسين). بوسعه أن يرى الآن كلاريسا وقد حال لونها الى وردي براق، لقد تشنجت بشكل ما، وقالت : « أوه، لن استطيع أبداً أن أكلمها مرة أخرى ! » وعندها ظهر على جميع الجالسين حول مائدة الشاي وكأنهم يرتعدون. كان الأمر بمنتهى المضايقة.

لم يلمها لأنها اكترثت للواقعة إنما طريقتها هي التي أزعجته، إذ أن فتاة نشئت كما نشئت هي كانت لا تعرف في تلك الأيام شيئاً، خجولة، قاسية، متعجرفة؛ متكلفة للاحتشام بافراط. « موت الروح ». قال ذلك بالسليقة، واضعاً علامة فارقة على المناسبة كما كان دأبه ـ موت روحها.

الجميع ارتعدوا؛ الجميع بدوا وكأنهم ينحنون، إذ تكلمت، ثم قاموا وهم مختلفون عما قبل. بوسعه أن يرى سالي سيتون، طفلة ارتكبت

وقاحة، وهي تنطوي للأمام، وقد احمرت خجلاً، وتهم بالكلام، لكنها خائفة، فكلاريسا كانت ترعب الناس فعلاً. (كانت هي أقرب الصديقات الى كلاريسا، وهي معهم دائماً، مخلوقة جذابة، وسيمة، سمراء، مشهورة بالجسارة العظيمة في تلك الأيام، وكان قد اعتاد أن يعطيها السيجار الذي كانت تدخنه في غرفة نومها، وهي إما كانت مخطوبة لأحدٍ أو متخاصمة مع أسرتها، وپاري نفسه لا يودهما على حدٍ سواء، مما كان آصرة عظيمة بينهما). ثم أن كلاريسا، وهي لا تزال تظهر الاستياء منهم جميعاً، كانت قد نهضت، وأبدت عذراً ما، وخرجت، وحدها. وإذ فتحت الباب، دخل ذلك الكلب الأشعث الكبير الذي يجري وراء الغنم. فرمت بنفسها عليه، واستسلمت لانفعالات عاطفية. كان الأمر كما لو أنها تقول لبيتر ـ كل شيء كان موجها إليه، وهو يعرف ذلك ـ « إني أدري أنك حسبتني خرقاء بشأن تلك المرأة الآن؛ لكن تأمل مدى تعاطفي الفائق؛ أنظر الى محبتي الكلب روب ! »

كانت لديهما دائماً هذه القوة الغريبة العجيبة في الاتصال ببعضهما بدون كلمات. فهي تعرف فوراً انتقاده اياها. عندئذ تفعل شيئاً مكشوفاً للغاية للدفاع عن نفسها، كهذه الجلبة مع الكلب ـ لكن ذلك ما انطلى عليه أبداً، فهو دائماً ينفذ في أعماق كلاريسا. لا لأنه يقول شيئاً، بالطبع؛ انه يجلس بادي الكآبة ليس إلا. هذه هي الطريقة التي كانت تبدأ بها خصوماتهما في الغالب.

أغلقت كلاريسا الباب. وفي الحال انقبضت نفسه كل الانقباض. وبدا كل شيء بلا جدوى ـ الاستمرار في الحب؛ الاستمرار في الخصام؛ الاستمرار في تسوية الامور، ثم يذهب هو متسكعاً وحده، بين المشتملات، والاسطبلات متطلعاً في الخيول. (البيت كان متواضعاً جداً، آل باري لم يكونوا أثرياء ابداً؛ لكن كان هناك دائماً سائسون وصبيان اسطبل ـ كلاريسا تحب الركوب ـ وسائق عربة عجوز ـ ماذا كان اسمه ؟ ـ ومربية

عجوز، مودي أو غودي، اسم من هذا القبيل كانوا يسمونها به، وكان المرء يؤخذ اليها لزيارتها في غرفة صغيرة فيها الكثير من الصور الفوتوغرافية، الكثير من أقفاص الطيور).

كانت أُمسية فظيعة ! أخذ يزداد كآبة شيئاً فشيئاً، ليس بشأن ذلك فقط، بل بشأن كل شيء. فهو لا يستطيع أن يراها؛ لا يستطيع ان يفسر لها، لا يستطيع حسم الموضوع. ثمة أُناس موجودون دائماً ـ وهي تستمر على وضعها كأن شيئاً لم يحدث. ذلك هو الجانب الشيطاني فيها ـ هذا البرود، هذا التخشب، شيء عميق جداً فيها، وقد شعر به مرة أخرى هذا الصباح وهو يتكلم معها، تصلب لا يخترق. مع هذا يعلم الله أنه أحبها. إن لديها قوة ما غريبة شاذة في اللعب على أعصاب المرء، تحويل أعصاب المرء الى أوتار مشدودة، نعم.

لقد ذهب للعشاء متأخراً بعض الشيء، بفكرة غبية هي أن يلفت اليه الأنظار، فجلس بجنب المس باري العجوز ـ العمة باري شقيقة السيد باري التي يفترض فيها أن تتصدر المائدة. هنالك جلست بملفعتها الكشمير البيضاء ورأسها صقب النافذة ـ سيدة عجوز مربعة، لكنها كانت لطيفة معه، فقد عثر لها على زهرة ما نادرة، ذلك أنها اختصاصية عظيمة بالنبات، تمشي فتدك الأرض بجزمة ثخينة وعلبة الصفيح السوداء معلقة بين كتفيها لجمع العينات. جلس بجنبها، ولم يستطع الكلام. كل شيء بدا وكأنه يتراكض أمامه. فجلس هناك فقط، يأكل. من ثم، وفي منتصف الوجبة حمل نفسه على النظر نحو كلاريسا للمرة الأولى. كانت تتحدث مع شاب على يمينها. وجاءه وحي مفاجىء فقال لنفسه : « إنها ستتزوج ذلك الرجل». لم يكن يعرف حتى اسمه.

كان هذا بالطبع في ذلك العصر، ذلك العصر بالذات، إذ جاء دالاواي، وكلاريسا دعته « ويكهام »، كان هذا هو بداية المسألة كلها. إن أحدهم قد أتى به : وكلاريسا فهمت اسمه خطأ. قدمته للجميع باسم ويكهام. وأخيراً قال هذا : « أنا اسمي دالاواي ! » ـ كانت تلك هي رؤيته

الأُولى لريتشارد ـ شاب أشقر نشاز نوعاً ما، وهو يجلس على كرسي حديقة، ويقول على رسله : « أنا اسمي دالاواي ! » فمسكتها سالي عليه؛ كانت تسميه دائماً فيما بعد « أنا اسمي دالاواي ! »

كان في ذلك الوقت فريسة لايحاء كثير. هذا مثلاً ـ أنها ستتزوج دالاواي ـ كان ايحاء مذهلاً ـ مصعقاً في حينه. كان ثمة ـ ماذا يقول ؟ ـ ثمة نوع من اليسر في طريقتها مع ريتشارد؛ شيء أُمومي؛ شيء رقيق. كانا يتكلمان عن السياسة. حاول طيلة وجبة العشاء ان يسترق السمع ليعرف ماذا كانا يقولان.

ويستطيع أن يتذكر بعد ذلك وقوفه بجنب كرسي المس باري نفسها في صالة الاستقبال. وأقبلت كلاريسا، بأصولها الكاملة، كمضيفة حقيقية، فأراد أن تقدمه الى أحد ما ـ تكلمت وكأنهما لم يلتقيا من قبل أبداً، مما أشاطه غيضاً، مع هذا فإنه حتى عندئذ أعجب بها بشأن ذلك. إنه يعجب بشجاعتها؛ بغريزتها الاجتماعية؛ يعجب بقوتها على إنجاز الأمور. دعاها « المضيفة المثالية » وعندها أجفلت كلياً لكنه قصد أن يشعرها بذلك. كان يريد أن يفعل أي شيء لايذائها، بعد رؤيته إياها مع دالاواي. وهكذا تركته. وتولد لديه شعور بأنهم قد تجمعوا كلهم معاً في مؤامرة ضده ـ يضحكون ويتكلمون ـ من وراء ظهره. هنالك وقف بجنب كرسي المس باري وكأنه قُدّ من خشب، يتكلم عن الأزهار البرية. إنه ما عانى قبلاً من شقاء الجحيم لهذه الدرجة أبداً ! لا بد أنه نسي حتى أن يتصنع الاستماع؛ أخيراً أفاق؛ رأى المس باري تبدو قلقة نوعاً ما، مستاءة نوعاً ما، وعيناها الجاحظتان مسمرتان، كاد أن يصيح أنه لا يسعه أن يصغي لأنه في جهنم ! بدأ الناس يخرجون من الصالة. سمعهم يتكلمون عن تناول معاطفهم؛ عن كونها باردة على الماء، وما أشبه. إنهم يذهبون بزورق في البحيرة في ضوء القمر ـ إحدى الأفكار الجنونية لسالي. بوسعه أن يسمعها تصف القمر. وخرجوا جميعاً. وتركوه وحده.

قالت العمة هيلينا: « ألا تريد الذهاب معهم ؟ » ـ يا للسيدة العجوز

المسكينة ! ـ انها قد خمنت. فاستدار فإذا بكلاريسا هناك. لقد عادت لتأخذه. فاجتاحه كرمها ـ طيبتها.

قالت : « هيا بنا. إنهم ينتظرون ».

لم يشعر بمثل هذه السعادة في حياته بأسرها أبداً ! وبدون كلام سُوِّيت المسألة. سارا الى البحيرة. لقد حظي بعشرين دقيقة من السعادة المثالية. صوتها، ضحكتها، فستانها (شيء يعوم، أبيض، قرمزي)، روحيتها، إقدامها المغامر؛ إنها جعلتهم ينزلون جميعاً من القارب ويستكشفون الجزيرة؛ إنها أجفلت دجاجة؛ وضحكت؛ وغنت. وعلم علم اليقين أن دالاواي كان طيلة الوقت يقع في غرامها؛ وهي تقع في غرام دالاواي؛ لكن الأمر لم يكن ليبدو أنه يهم. لا شيء يهم. جلسا على الأرض وتحدثا ـ هو وكلاريسا. كان أحدهما يدخل بال الآخر ويخرج منه دون مجهود. ثم انتهى الأمر بثانية واحدة. قال لنفسه اذ هما يستقلان الزورق « إنها ستتزوج ذلك الرجل » قالها بصورة كليلة، بدون استهجان؛ لكن الأمر كان شيئاً واضحاً. دالاواي سيتزوج كلاريسا.

دالاواي جذّف بهم الى الشاطىء. لم يقل شيئاً. ولكن ما ان راقبوه يقفز على دراجته الهوائية ليركبها مسافة عشرين ميلاً عبر الغابات، متمائلاً يتهادى في الدرب، ملوحاً بيده فيختفي، حتى بدا لهم بصورة من الصور أنه قد أحس بالسليقة، وعلى نحو ذريع، وقويّ، بكل ذلك، الليل؛ الغرام؛ كلاريسا. إنه يستحق أن يحظى بها.

أما بالنسبة الى بيتر فإنه كان أخرق. كانت متطلباته من كلاريسا (بوسعه أن يرى ذلك الآن) متطلبات خرقاء. إنه طلب أشياء مستحيلة. وخلق مشاجرات فظيعة. إنها كانت ربما تقبل لو كان أقل خطلاً. سالي ظنت هذا فكتبت اليه في ذلك الصيف رسائل طويلة؛ كيف أنهما قد تحدثا عنه، كيف أنها قد امتدحته، كيف أن كلاريسا انفجرت بالبكاء، لقد كان صيفاً استثنائياً ـ كله رسائل، مشاجرات، برقيات ـ تصل بورتون في الصباح

الباكر، والسهر عندهم الى أن يفيق الخدم؛ الإفطار المريع هو والسيد باري نفسه وحدهما على انفراد؛ العمة هيلينا مرعبة لكنها متلطفة؛ سالي تهرع به لمحادثات في مشتل الخضروات؛ كلاريسا في الفراش مصابة بالصداع.

إن المشاجرة النهائية، المشاجرة الفظيعة التي يعتقد أنه قد أهمته أكثر من أي شيء آخر في حياته بأسرها (لعل هذه مبالغة ـ ومع ذلك فإنها تبدو بتلك الأهمية الآن)، حدثت في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم شديد الحرارة جداً. وما أدى الى المشاجرة كان أمراً تافهاً ـ قالت سالي على الغداء شيئاً عن دالاواي، وسمته « أنا اسمي دالاواي »، وعند ذلك توترت كلاريسا فجأة، واحمرت على شاكلة كانت فيها، وقالت توبخهم بحدة « كفانا هذه النكتة السمجة ». كان هذا كل ما هنالك؛ أما بالنسبة اليه فقد كان هذا كما لو أنها قد قالت له « إني ألهو بك ليس إلا؛ اني متفاهمة مع ريتشارد دالاواي ». هكذا فهمها. لم ينم منذ ليال. قال في نفسه : « يجب إنهاء الأمر بطريقة أو بأخرى ». أرسل اليها قصاصة بواسطة سالي يسألها أن تلتقيه عند النافورة في الثالثة. أضاف في آخرها على عجل : « شيء مهم جداً قد حدث ».

كانت النافورة تقع في وسط أكمة صغيرة، بعيداً عن البيت، وحولها دغل وشجر من جميع الجهات. هنالك أتت، حتى قبل الوقت، فوقفا والنافورة بينهما، والماسورة النفاثة (وكانت مكسورة) تقطر بلا انقطاع. كيف تلتصق المشاهد بالذهن ! مثلاً الطحلب الأخضر الزاهي.

إنها لم تتحرك. وظل هو يقول : « خبريني بالحقيقة، خبريني بالحقيقة ». كان يشعر كأن جبينه سينفجر. بدت متشنجة، متحجرة. لم تتحرك. وهو يكرر « خبريني بالحقيقة »، حين أطل فجأة ذلك الشيخ بريتكوف، حاملاً جريدة التايمز؛ فحملق بهما، وفغر فاهاً؛ ومضى، كلاهما لم يتحرك. وهو يكرر « خبريني بالحقيقة ». شعر أنه يحفر في شيء صلب مادياً؛ كانت هي غير مطاوعة. كانت كالحديد، كحجر الصوان، تقف وقد

تصلب أعلى ظهرها، وحينما قالت: «لا فائدة. لا فائدة. هذه هي النهاية» - بعد أن كان قد تكلم ساعات، كما خيِّل اليه - والدموع تسيل على خديه - فقد كان الأمر كما لو أنها قد لطمته على وجهه. استدارت، وتركته، فذهبت.

صاح «كلاريسا! كلاريسا!». لكنها لم ترجع أبداً. انتهى الأمر. وترك تلك الليلة. ولم يرها أبداً مرة أخرى.

صاح إنه لشيء فظيع، فظيع، فظيع!

مع هذا، فالشمس حارة. مع هذا، فالمرء يتغلب على الأمور. مع هذا فللحياة طريقة تضيف بها يوماً إلى يوم آخر. ودار في خلده، وهو يتثاءب ويبدأ بملاحظة ما حوله، ان متنزه ريجنت مع هذا لم يتغير إلا قليلاً جداً منذ كان صبياً، باستثناء السناجب - مع هذا، فيفترض أن هناك ثمة ما يعوض - واذا بإلزي ميتشل الصغيرة، التي كانت تلتقط الحصى لتضيفها الى المجموعة التي كانت هي وأخوها يجمعانها على رف الموقد في غرفتهما، تفرغ فجأة ملء كف من حصاها في حجر المربية ثم تعدو بأقصى سرعة فتصطدم بساقي سيدة. ضحك بيتر ولش.

لكن لوكريزيا وارين سميث تقول لنفسها: إن الأمر بغيض؛ كانت تسأل نفسها لماذا أقاسي، وهي تسير في الممشى العريض. كانت تقول لا؛ لا أستطيع احتمال الأمر بعد الآن، وكانت قد تركت سپتيموس، الذي لم يعد سپتيموس، يقول أشياء عنيفة، قاسية، شريرة، يتكلم مع نفسه، يتكلم مع رجل ميت، على المقعد هناك؛ كانت تقول ذلك حين عدت الطفلة بأقصى سرعتها فاصطدمت بها، وسقطت منبطحة، وانفجرت بالبكاء.

كان ذلك مريحاً لها نوعاً ما. أنهضت الطفلة، ونفضت ثوبها، وقبلتها.

أما بالنسبة اليها فإنها لم تأت بسوء، إنها قد أحبت سپتيموس؛ إنها

كانت سعيدة؛ وكان عندها بيت جميل، ولا تزال شقيقاتها يسكنّ هناك، يصنعن القبعات. فلماذا يجب أن تقاسي هي بالذات ؟

الطفلة هرعت لتعود مباشرة الى مربيتها، وريزيا رأتها توبَّخ. تواسى، تحمل من المربية التي وضعت حياكتها جانباً، والرجل البادي اللطف أعطاها ساعته لتفتحها بنفخةٍ من فمها ليلاطفها ـ لكنْ لماذا يجب أن تتعرض هي بالذات للأذى ؟ لماذا لم تترك وشأنها في ميلانو ؟ لماذا تعذب ؟ لماذا ؟

إن مشهد الممشى العريض، والمربية، والرجل بالبدلة الرمادية، وعربة الطفل، هذا كله اضطرب أمامها وهو يتموج في عينيها قليلاً بفعل الدموع. ولئن هز أركانها هذا المعذِّب الخبيث فهذا هو حظها. لكنْ لماذا ؟ لكأنها طير يحتمي تحت التجويف الرقيق لورقة الشجر، فترف عيناه للشمس حين تتحرك الورقة؛ ويجفل حين يتكسر غصن يابس. إنها مكشوفة للأذى. محاطة بأشجار بالغة الضخامة، بغيوم شاسعة في عالم غير مكترث، مكشوفة، معذبة، لماذا يجب أن تقاسي ؟ لماذا ؟

عبست؛ ضربت الأرض بقدمها، يجب أن تعود مرة أخرى الى سپتيموس إذ كاد الوقت يحين لذهابهما الى السير وليام برادشو. يجب أن تعود اليه وتخبره، تعود اليه جالساً هناك على الكرسي الأخضر تحت الشجرة، يتكلم مع نفسه، أو مع الرجل الميت أفينز الذي لم تقابله إلا مرة واحدة في المخزن. كان قد بدا رجلاً هادئاً لطيفاً. وهو صديق حميم لسپتيموس، وقد قتل في الحرب. لكن مثل هذه الأمور تحدث للجميع. الجميع لديهم أصدقاء قتلوا في الحرب. الجميع يتخلون عن شيء ما حين يتزوجون. تخلت هي عن موطنها. جاءت لتعيش هنا، في هذه المدينة الفظيعة. لكن سپتيموس يتيح لنفسه ان يفكر في أشياء مريعة. وهي تستطيع أن تفكر لو حاولت. إنه ما فتىء يغدو غريباً أكثر فأكثر. قال إن الناس تتكلم خلف جدران غرف النوم. المسز فيلمور ظنت ذلك مستغرباً. وهو يرى أشياء أيضاً ـ لقد رأى رأس امرأة عجوز وسط نبتةٍ من السرخس. مع

هذا، بوسعه أن يكون سعيداً حين يشاء. كانا قد ذهبا الى هامبتون كورت في باص جلسا في أعلاه، فكانا على أسعد حال. كانت جميع الزهور الصغيرة الحمر والصفر قد تفتحت على العشب، قال إنها كمصابيح عائمة، وتكلم وثرثر وضحك، يؤلف الأقاصيص. فجأة قال وهما يقفان عند النهر: « الآن سنقتل أنفسنا »، ونظر الى الماء نظرة كانت قد رأتها في عينيه حين يمر قطار، أو باص ـ نظرة كأن شيئاً قد فتنه؛ وشعرت بأنه ذاهب عنها فأمسكت به من ذراعه. لكنْ كان في تمام الهدوء، في تمام الاتزان عند العودة الى البيت، إنه ليتجادل معها بشأن قتل أنفسهما؛ ويشرح كيف أن الناس أشرار؛ كيف أنه يراهم يختلقون الأكاذيب وهم يمرون بالشارع. قال إنه يعرف كل أفكارهم؛ إنه يعرف كل شيء. وقال إنه يعرف معنى العالم.

فلما عادا لم يكن يستطيع السير إلا بالكاد. استلقى على الأريكة وجعلها تمسك بيده لتمنعه من السقوط، وصاح الى أسفل السافلين، في اللهيب، ورأى وجوهاً تضحك منه، تسبه بشتائم مقززة فظيعة، من خلف الجدران، والأيادي تؤشر حول الستارة الحاجزة، في حين كانا وحدهما فقط. لكنه بدأ يتكلم بصوت مرتفع، يجيب الناس، يجادلهم، يضحك، يبكي، وينفعل كل الانفعال ويستكتبها أشياء يمليها عليها، هراء صرفاً؛ عن الموت، عن الآنسة إزابيل پول. لم تعد تستطيع الاحتمال. ستعود الى أهلها.

إنها قريبة الآن، وهي تراه يحملق في السماء، يتمتم، يشبك يديه. مع هذا قال الدكتور هولمز إنه لا علة فيه. ما الذي حدث إذن ـ لماذا فقد عقله، لماذا جفل حين جلست بجنبه، عبس وابتعد وأشار الى يدها، أخذ يدها، نظر اليها جَزِعاً.

أَ لأنها كانت قد خلعت خاتم الزواج ؟ قالت له « يدي صارت نحيفة جداً. وضعت الخاتم في محفظة نقودي ».

أسقط يدها. خال أن زواجهما انتهى، وشعر بمعاناة أليمة، وبارتياح.

إن الحبل قد قطع؛ فتعالى صعداً؛ إنه حر، إذ قُضي أنه هو، سپتيموس، سيد الناس، يجب أنه يكون حراً؛ وحيدٌ هو (مذ خلعت زوجته خاتم زواجها؛ مذ تركته)، سپتيموس، وحيد مدعوٌ أمام جمهرة الناس أن يسمع الحقيقة، أن يعي المعنى، وسيقدم في النهاية الآن، بعد كل ضنى الحضارة ـ اليونان، الرومان، شكسبير، داروين، وهو نفسه الآن ـ سيقدم كاملاً إلى. . . . « إلى من ؟ » سأل جهاراً، فأجابته الأصوات التي تخشخش فوق رأسه : « إلى رئيس الوزراء ». إن السر الأعظم يجب أن يقال للوزارة؛ أولاً، ان الاشجار حية؛ ثم أنْ لا جريمة؛ ثم، الحب، والحب الكوني، تمتم مع نفسه، وهو يلهث، يرتعش، يُخرج بألم هذه الحقائق الأليمة التي اقتضت جهداً ذريعاً للنطق بها، لما انطوت عليه من العمق البالغ، من الصعوبة البالغة، لكنها حقائق بدلت العالم الى الأبد.

ردد في نفسه قائلاً لا جريمة؛ الحب؛ وهو يخبط في جيبه بحثاً عن بطاقته وقلمه الرصاص، فإذا بكلب صغير يشمشم سرواله فجفل بسكرات من الخوف. إن الكلب ينقلب رجلاً ! وهو لا يستطيع أن يرقب حدوث هذا ! إنه لأمر شنيع، فظيع، أن يرى كلباً يغدو رجلاً ! وفي الحال هرول الكلب مبتعداً.

كان الله رحيماً به كل الرحمة، لطيفاً به بلا حدود. لقد أبقى عليه، وصفح عن ضعفه. لكنْ ما هو التفسير العلمي (ذلك أن المرء يجب أن يكون علمياً قبل كل شيء) ؟ لماذا ينفذ ببصره خلال الأجسام، لماذا يعرف الغيب، عندما تغدو الكلاب بشراً ؟ إنها موجة الحر على ما يفترض، وهي تفعل فعلها في مخ صيرته دهور النشوء الأبدية حساساً. فالجسد، علمياً، يذاب منزوعاً عن العالم. إن جسده نُقع حدّ الميوعة حتى لم يبق منه سوى ألياف الأعصاب، ونُشر كأنه غلالة على صخر.

جلس مستلقياً في مقعده، منهكاً لكنه مشدود الأزر. جلس يستريح، ينتظر، قبل أن يدلي مرة أخرى بتأويله للإنسانية بجهد ومعاناة. لقد تربع في السماك الأعلى، على سنام العالم. أما الأرض فقد اهتزت من تحته.

الأزهار الحمر نمت خلال جسده؛ أوراقها الصلبة تهش عند رأسه. والموسيقى بدأت تصدح صقب الصخور في الأعالي هنا. وتمتم في نفسه يقول ان هذا منبه سيارة في الشارع اسفل مني؛ أما هنا في الأعالي فإنها تقصف من صخرة الى صخرة، فتنقسم، وتلتقي بصدمات من صوت يرتفع بأعمدة ناعمة (أن تكون الموسيقى مرئية لهو اكتشاف) ثم تغدو نشيداً وطنياً، نشيداً وطنياً قد ضفره الآن ناي الراعي الفتى (تمتم يقول هذا شيخ ينفخ في صفارة رخيصة عند حانة عمومية) نشيداً يبقبق آتياً من نايه إذ وقف الفتى بلا حراك، ثم ما ان ارتقى صعداً حتى عزف مقطوعته الحزينة الرهيفة وحركة المرور تجري من تحته. وظن سپتيموس أن مرثية الفتى هذه قد عزفت في خضم حركة المرور. وهو الآن يتراجع في الثلوج، الورد معلق حوله ـ والورد الأحمر الكثيف الذي ينمو على جدار غرفة نومي، ذكّر نفسه. توقفت الموسيقى. إن لديه قرشه، وفكر في الأمر ملياً، فمضى الى الحانة التالية.

لكنه هو نفسه ظل على متن صخرته، كملاح غريق على صخرة. قال في خاطره اني انحنيت على حافة الزورق وسقطت. ومضيت تحت البحر. لقد كنت ميتاً، ومع هذا، فإني الآن حي، لكن دعني استريح أكثر، قالها بتوسل (إنه يتكلم مع نفسه مرة أخرى ـ شيء فظيع، فظيع !)؛ وكما لو قبل الاستيقاظ من النوم، وأصوات الطيور والعجلات ترن وتثرثر في انسجام غريب، وتأخذ بالتعالي أكثر فأكثر، والنائم يحس بنفسه مقترباً من شواطىء الحياة، فهكذا أحس انه يقترب من الحياة، والشمس لا تفتأ تتزايد حرارة وصيحات تتعالى، وشيء ما عظيم على وشك الحدوث.

وما كان عليه إلا أن يفتح عينيه لكنْ ثمة وقرٌ عليهما؛ ثمة خوف. زرّ عينيه؛ ضغطهما. ونظر؛ رأى متنزه ريجنت أمامه. خصل طويلة من ضوء الشمس توددت على قدميه. الأشجار تمايلت، تبارقت، وبدا كأن العالم يقول، نحن نرحّب؛ نحن نقبل؛ نحن نخلق. بدا كأن العالم يقول، الجمال. وكما لو يراد إثبات ذلك (علمياً) فإنه أيان نظر، في البيوت، في

المتحجرات، في الوعول تتمطى على أوتاد السياج فإن الجمال ينبثق على الفور. أن ترقب ورقة شجر ترتجف في دفقة هواء فهذا جذل رهيف. وعالياً في السماء تخر طيور السنونو، وتدور، ملقية بنفسها داخلة خارجة، مدوِّمة، ومع هذا فهي ذات سيطرة كاملة دائماً كما لو تمسكها خيوط مطاطية. والذباب يرتفع ويهبط؛ والشمس تقع مرةً على هذه الورقة ومرة على تلك، بمزاح، فتؤلقها بتبرٍ ناعم بطيبة خاطر، ومرة بعد أخرى ثمة رنين (قد يكون منبه سيارة) يهزج بروعة على سيقان العشب ـ كل هذا، على ما هو عليه من سكون ومعقولية، على كونه لم يصنع إلا من أشياء اعتيادية، كل هذا هو الحقيقة الآن؛ الجمال، هو الحقيقة الآن. الجمال في كل مكان.

قالت ريزيا : « حان الوقت »

إن كلمة « وقت » فلعت قشرتها؛ انهالت بنفائسها الغنية تدفق عليه؛ ومن شفتيه تساقطت كلمات كالشظايا، كالجذاذات من مسحاج النجارة، تساقطت دون صنع منه، كلمات مرصوصة، بيض، مهداة للوقت، قصيدة خالدة مهداة للوقت. ثم غنى. وأفينز أجاب من وراء الشجرة. غنى أفينز : الموتى في ثيساليا بين زنابق الأوركيد. هنالك انتظر حتى انتهت الحرب، والآن الموتى، الآن أفينز نفسه ـ

صاح سپتيموس : « سألتك بالله ألا تجيء ! » ذلك أنه لا يستطيع أن ينظر الى الموتى.

لكن الغصون انفرجت. إن رجلاً ببدلة رمادية يسير نحوهما حقيقة. إنه أفينز ! ولكنْ لا طين عليه، ولا جروح؛ إنه لم يتغير. صاح سپتيموس اني يجب أن أخبر العالم بأسره، ورفع يده (إذ اقترب الرجل الميت بالبدلة الرمادية) رفع يده كعملاق ندب مصير الانسان عصوراً في الصحراء وحيداً ويداه تضغطان على جبينه، وأخاديد اليأس على خديه، والآن يرى ضوءاً على تخوم الصحراء، ضوءاً يتسع عرضاً فيقع على الشخص الأسود اللون سواد الحديد (وقام سپتيموس من مقعده نصف قيام)، ومع حشر من البشر

يجثون وراءه تلقى بوجهه، هو الحزين العملاق، لهنيهةٍ واحدة كل الـ ـ.

قالت ريزيا وهي تحاول إجلاسه : « لكني تعيسة جداً، سپتيموس ».

الملايين تتباكى نادبة، الملايين حزنت عصوراً. إنه سيلتفت مستديراً نحوهم، فيخبرهم في بضع لحظات، في بضع لحظات أخرى فقط، عن هذا الارتياح، عن هذا الجذل، عن هذا الالهام المذهل ـ

وكررت ريزيا القول : « الوقت يا سپتيموس، ما هو الوقت ؟ »

إنه يتكلم، إنه يجفل، لا بد لهذا الرجل من أن يلحظه. انه ينظر اليهما.

قال سپتيموس : « سأخبرك بالوقت » قالها ببطء شديد، بدوار شديد، وهو يبتسم بغموض للرجل الميت، بالبدلة الرمادية. وما أن جلس مبتسماً حتى دقت الساعة الربع ـ الثانية عشرة إلا ربعاً.

قال بيتر ولش في خاطره وهو يمر بهما، هذا لأنهما من الشبان، أن يتشاجرا مشاجرة فظيعة ـ والفتاة المسكينة بدت يائسة كل اليأس ـ في الضحى. تساءل في نفسه ترى عن أي شيء ؟ ما الذي كان يقوله لها الشاب بالمعطف حتى يجعلها تبدو على هذه الشاكلة، أية ورطة أوقعا نفسيهما فيها حتى يبدو كلاهما بهذه الدرجة من القنوط في صباح صيفي بديع ؟ إن الشيء اللطيف بشأن العودة الى انكلترا، بعد خمس سنين، هي الحالة التي تظهر بها الأشياء، في الأيام الأولى على كل حال، فكأن المرء لم يرها أبداً من قبل؛ عشاق يتشاجرون تحت شجرة، الحياة المنزلية الخاصة في المتنزهات. لم يكن قد رأى لندن بهذه الدرجة من الفتنة أبداً ـ نعومة المسافات؛ الخضرة؛ الحضارة، بعد الهند؛ كل هذا دار في خلده وهو يتمشى على العشب.

هذا الاستعداد لتقبل الانطباعات قد سبب خرابه بلا ريب. إنه لا يزال وهو في عمره، كأنه فتى بل كأنه فتاة، تراوده المتقلبات المتوالية في المزاج؛ أيام حسنة، أيام سيئة، بدون سبب على الاطلاق؛ السعادة لمرأى

وجه حسن، التعاسة التامة لمشهد إمرأة رثة الملبس. وبالطبع يقع المرء بعد الهند في غرام كل امرأة يلتقيها. ثمة طراوة تحف بهن؛ حتى أفقر النساء تلبس أحسن مما كانت تلبس قبل خمس سنين بالتأكيد؛ لم تكن الموضة ابداً على ما يرى بمثل هذه الدرجة من اللياقة، القباءات السوداء الطويلة، الرشاقة؛ الأناقة، وثم عادة التصبيغ اللذيذة والعامة الشيوع فيما يظهر. كل امرأة حتى المحترمة ذات ورد يتفتح تحت جلد شفاف كالزجاج. الشفاه منحوتة نحتاً بسكين؛ جدائل شعر بلون الحبر الهندي، ثمة تصاميم، فن، في كل مكان؛ إن تغييراً من نوع ما قد حل. وسأل بيتر ولش نفسه : ما الذي يفكر فيه الشباب ؟

تلك السنوات الخمس ـ ١٩١٨ إلى ١٩٢٣ ـ كانت كما خيل اليه مهمة جداً على نحوٍ ما. الناس كأنهم مختلفون. الجرائد مختلفة. هناك مثلاً الآن رجل يكتب بصراحة تامة في احدى الاسبوعيات المحترمة عن المراحيض. هذا ما لم تكن تستطيع فعله قبل عشر سنين ـ أن تكتب بصراحة تامة عن المراحيض في صحيفة اسبوعية محترمة. وثم هذه العادة في تناول أحمر الشفاه، أو علبة المساحيق، والتزين أمام الناس. كان على ظهر الباخرة عند العودة الى الوطن الكثير من الفتيان والفتيات ـ بيتي وبيرتي يتذكرهما على الخصوص ـ وهم يتواصلون على المكشوف تماماً، والأم نفسها جالسة تراقب وهي تحوك باردة برودة الثلج. والفتاة تقف هادئة وتزين وجهها بالمساحيق أمام الجميع. ولم يكونا مخطوبين. بل كانا يستمتعان بوقت طيب لا أكثر؛ ولا يجرح ذلك شعور أي من الطرفين. لقد كانت صلبة صلابة الظفر ـ الفتاة ما اسمها ؟ ـ لكنها نمط جيد جداً. انها تصلح أن تكون زوجة جيدة جداً في الثلاثين ـ إنها ستتزوج حين يروق لها ان تتزوج رجلاً ما ثرياً وتسكن في بيت كبير بالقرب من مانشيستر.

تساءل بيتر ولش في نفسه، والآن من هي التي قد فعلت ذلك ؟ كان يستدير في سيره ليدخل الممشى العريض ـ من هي التي تزوجت رجلاً ثرياً

وتسكن في بيت كبير بالقرب من مانشيستر ؟ إنها امرأة كتبت مؤخراً رسالة طويلة، متدفقة، عن « الأقحوان الأزرق ». كانت رؤيتها للاقحوان الأزرق هي التي جعلتها تفكر فيه وفي الأيام القديمة - سالي سيتون بالطبع ! إنها سالي سيتون - آخر إمرأة في العالم يتوقع المرء أن تتزوج من رجل ثري وتسكن في بيت كبير بالقرب من مانشيستر، سالي المتهورة، الجسورة، الرومانسية !

لكن سالي ربما كانت من أحسن الموجودين بين كل تلك الزمرة العتيقة، زمرة أصدقاء كلاريسا من آل ويتبريد، آل كندرزلي، آل كننغهام، آل كينلوك - جون. كانت سالي تحاول فهم الأمور من الجانب الصحيح على كل حال. لقد تغلغلت في حقيقة هيو ويتبريد على كل حال - هيو الرائع. في حين كانت كلاريسا والآخرون مأخوذين به.

بوسعه أن يسمعها تقول : « من هم آل ويتبريد ؟ تجار فحم. أهل سوق محترمون ».

كانت تشمئز من هيو لسببٍ ما، فتقول : إنه لا يفكر في شيء سوى في مظهره. كان عليه ان يكون دوقاً. واذ ذاك سيضمن الزواج من إحدى الأميرات الملكيات. وبالطبع كان هيو يحترم الارستقراطية البريطانية احتراماً فائقاً جداً، طبيعياً جداً، متسامياً جداً، احتراماً لم يجد له مثيلاً على الاطلاق في أي إنسان عرفه. حتى كلاريسا كان عليها أن تقر بذلك. أوه، لكنه كان قريباً الى القلب جداً، غير أناني تماماً، أقلع عن الصيد إرضاء لأُمه العجوز - يتذكر ميلاد عماته لا يفوته منه شيء، وما الى ذلك.

ويجب القول، لإعطاء سالي حقها العادل، إنها قد تغلغلت في أعماق كل هذا. من الأمور التي يتذكرها جيداً جدل نشب صباح يوم أحد في بورتون عن حقوق المرأة (ذلك الموضوع البالي العتيق) حينما فقدت سالي أعصابها فجأة، وانفجرت، وقالت لهيو إنه يمثل كل ما هو بغيض أشد البغض في حياة الطبقة الوسطى البريطانية. قالت له إنها تعده مسؤولاً

عن حالة « اولئك الفتيات المسكينات بائعات الهوى في ميدان بيكاديللي » ـ هيو، الجنتلمان المثالي، هيو المسكين ! ـ كان على اشد ما يمكن ذعراً ! قالت بعدئذ (فقد دأبا على اللقاء في مشتل الخضروات لتبادل المعلومات) : إنها قد فعلت ذلك عمداً. بوسعه أن يسمعها تقول : « إنه لم يقرأ شيئاً، لم يفكر في شيء، لم يشعر بشيء » بذلك الصوت القاطع الذي ينم عن أكثر مما تعرفه بكثير. قالت إن صبيان الاسطبل فيهم من الحياة أكثر مما في هيو. قالت إنه عيّنة نموذجية لنمط خريجي المدارس الخاصة، ما من بلدٍ سوى انكلترا يستطيع أن ينتجه. لقد كانت على أشدها ازدراء له، لسبب ما؛ كانت تشعر بحقد ما عليه. إن شيئاً ما قد حدث ـ نسيه ـ في غرفة التدخين، كان قد أهانها ـ قبّلها؛ شيء لا يصدق ! ما من أحد يصدق كلمة واحدة ضد هيو بالطبع. ومن يستطيع ؟ تقبيل سالي في غرفة التدخين ! لو صدرت التهمة من احدى نبيلات الطبقة الراقية فربما؛ لكن ليس من تلك الصعلوكة، سالي التي لا تملك قرشاً واحداً باسمها، وليس لها أب أو أم يقامر في مونت كارلو. ذلك أن هيو من بين جميع الناس الذين عرفهم اطلاقاً كان أكثرهم تنفجاً ـ أشدهم خنوعاً ـ لا، إنه لا يتمسح بالأذيال بمعنى الكلمة، فهو من الاعتداد المتكلف بالنفس بحيث لا ينحدر الى هذا المستوى. قرينه الصحيح هو خادم خاص من الطراز الأول ـ شخص يسير الى الوراء حاملاً حقائب؛ يمكن الوثوق به لإرسال البرقيات ـ لا يمكن الاستغناء عنه بالنسبة الى السيدات المضيفات. ولقد عثر على عمله ـ تزوج من السيدة المحترمة إفلين؛ حصل على مركز ما في البلاط. يعتني بأقبية نبيذ الملك، يلمّع أزرار الأحذية الامبراطورية، يجوب بسراويل مزمومة عند الركبتين وبياقات منشاة وقمصان مزركشة بالدانتيلا. ما أقسى الحياة ! وظيفة بسيطة في البلاط !

لقد تزوج من هذه السيدة المحترمة افلين. وهما يسكنان في هذه الأطراف كما يظن (كان يتطلع الى البيوت الفخمة ذات الأُبهة المطلة على المتنزه)، ذلك أنه كان قد تغدى هناك ذات مرة في بيت فيه شيء فريد، لا

يحتمل أن يكون موجوداً في أي بيت آخر، شأنه شأن كل مقتنيات هيو ـ لعله كان خزائن للبياضات. عليك أن تذهب وتتطلع الى المقتنيات ـ عليك ان تنفق الكثير من الوقت وتظهر اعجابك على الدوام بالأشياء كائنة ما كانت، خزائن البياضات، بيوت الوسائد، أثاث البلوط القديم، لوحات كان هيو قد حصل عليها بثمن بخس بدراهم معدودة. لكن السيدة هيو تخلت أحياناً عن المظاهر. كانت امرأة من اولئك النساء الضئيلات المغمورات الشبيهات بالفئران واللاتي يعجبن بالرجال الكبار. إنها تكاد تكون تافهة. ثم، وعلى حين غرة، تقول شيئاً غير متوقع تماماً ـ شيئاً قارصاً، ان فيها مخلفات متبقية عن الطراز الفخم، ربما. والمسائل الجادة هي أكثر من طاقتها بعض الشيء ـ إنها مسائل تجعل الجو ثقيلاً. إذن انهما يسكنان هنا، مع خزائن البياضات، وجهابذة الرسم القدامى، ومع بيوت الوسائد المؤطرة بدانتيلا حقيقية، في منزل بمعدل خمسة أو عشرة آلاف باون سنوياً على ما يفترض، في حين أنه هو، الذي يكبر هيو بسنتين يستجدي عملاً.

إنه وهو في الثالثة والخمسين صار عليه أن يأتي اليهم ويرجو منهم أن يعينوه في دائرة من دوائر السكرتارية، أن يوجدوا له عملاً كمساعد مدرس لتدريس الصبيان اللاتينية، أو أن يكون رهن اشارة موظف كبير في مكتب ما، شيئاً يدر عليه خمسمئة باون في السنة؛ ذلك أنه إذا تزوج ديزي، فإنهما لن يستطيعا، حتى مع تقاعده، أن يدبرا أمرهما مطلقاً بأقل من ذلك. بوسع ويتبريد تعيينه على ما يفترض؛ أو دالاواي. ولا يضيره أن يطلب من دالاواي. إنه طراز طيب أصيل؛ محدود الأفق قليلاً؛ ثخين المخ قليلاً، نعم؛ لكنه طراز طيب أصيل. فأي أمر يأخذه دالاواي على عاتقه فإنه يقوم به على الصورة المعقولة الواقعية نفسها بدون لمسة من خيال، بدون شرارة من ألمعية، لكن بلطف لا يوصف، لطف من هم على طرازه. كان ينبغي له أن يكون من ذوات الريف ـ لقد ضاع في السياسة. إنه يكون في أحسن أحواله في الهواء الطلق، مع الخيل والكلاب ـ ما كان أجوده مثلاً حين سقط كلب كلاريسا، ذلك الكلب الأشعث الكبير، في مصيدة فانشق مخلبه

نصفين، وكلاريسا أصابها الدوار، وقام دالاواي بكل شيء، ضمد؛ صنع جبائر؛ قال لكلاريسا ألا تكون حمقاء، هذا ما أحبته فيه، ربما ـ ذلك ما كانت تحتاج اليه.» «الآن؛ يا عزيزتي، لا تكوني حمقاء. إمسكي هذا ـ ناوليني ذلك »، وكان يتكلم طيلة الوقت مع الكلب وكأنه إنسان.

لكنْ كيف استطاعت أن تزدرد كل ذلك الهراء عن الشعر ؟ كيف استطاعت أن تبيح له التمشدق برأيه عن شكسبير ؟ فقد تحفز ريتشارد دالاواي بصورة جدية ووقورة فقال، لا ينبغي لرجل مستور أن يقرأ سونيتات شكسبير لأنها كالتسمّع على الآخرين من ثقوب المفاتيح (فضلاً عن ذلك، العلاقة التي تصفها السونيتات لم تكن علاقة يستحسنها). لا ينبغي لرجل مستور أن يسمح لزوجته أن تزور بيت شقيقتها المتوفاة وفيه زوجها الأرمل. شيء لا يصدق. تمنى لو يرشقه باللوز السكري، فقد حدث ذلك وهم على العشاء. لكن كلاريسا ابتلعت كل ذلك، حسبته بمنتهى الاستقامة؛ بمنتهى الاستقلالية؛ علم الله أنها حسبته عقلاً من أكثر العقول التي عرفتها أصالة على الاطلاق .

كان ذلك احدى الأواصر بينه وبين سالي. كانت هناك حديقة اعتادا السير فيها، مكان مسور، فيه أكمات ورد وقنّبيط هائل الحجم ـ بوسعه أن يتذكر سالي تنتزع وردة، تتوقف لتعجب من جمال أوراق اللهانة في ضوء القمر (إنه لشيء يفوق العادة كيف أن كل ذلك يعود اليه بصورة زاهية، أشياء لم يفكر فيها منذ سنين)، بينما هي تناشده، شبه هازلة بالطبع، أن يتلقف كلاريسا، أن ينقذها من آل هيو ومن آل دالاواي ومن كل « ذات أمثل » من الآخرين الذين سوف « يخنقون روحها » (كانت في تلك الأيام تنظم الكثير من الشعر)، ويجعلون منها محض مضيفة، ويشجعون نزوعها الى ملذات الدنيا. لكن يجب على المرء أن ينصف كلاريسا. إنها لم تكن لتقدم على الزواج من هيو على أية حال. كانت لديها فكرة واضحة تماماً عما تريده. كانت عواطفها كلها على السطح. أما في الأعماق فقد كانت

بمنتهى الدهاء ـ أفضل بكثير من سالي في حكمها، مثلاً، على سجايا الناس، ومع كل هذا فهي انثوية صرف؛ بتلك الموهبة الفائقة، تلك الموهبة النسوية، في أن تخلق عالماً خاصاً بها أيّان وجدت. انها لتدخل الصالة، فتقف، كما رآها تقف مراراً، في الرواق وكثير من الناس حولها. انما هي كلاريسا التي يتذكرها المرء. لا لأنها باهرة؛ ليست جميلة على الاطلاق؛ ولا هي حلوة الرسوم : وما نطقت أبداً بشيء يتميز بالذكاء؛ مع هذا، فها هي، ها هي.

لا، لا ! إنه لم يعد مغرماً بها ! إنه شعر فقط، بعد أن رآها في الصباح، بين مقصها وخيوطها الحريرية، وهي تستعد للحفلة، شعر أنه غير قادر على التخلص من التفكير فيها؛ استمرت تعاوده وتعاوده كجسم نائم ينقلب عليه في عربة قطار؛ مما لا يعني غرامه بها، بالطبع، إنما هو التفكير فيها، انتقادها، البدء مرة أخرى، بعد ثلاثين سنة، بمحاولة لتحليلها. إن الشيء الصريح الذي يقال عنها إنها تنزع الى الدنيا، تهتم أكثر مما ينبغي بالرتبة والمجتمع ومسايرة العالم ـ وهذا صحيح بمعنى من المعاني؛ لقد اعترفت له به. (بوسعك دائماً أن تجعلها تقر إذا أجهدت نفسك باقناعها؛ كانت صادقة مع نفسها). وما كانت تقوله هو أنها تكره كل إمرأة رثة الثياب، وكل رجل محافظ رجعي، وكل فاشل، من أمثاله على ما يفترض؛ كانت ترى أنه لا يحق للناس التسكع مترهلين، وأيديهم في جيوبهم؛ انهم يجب أن يفعلوا شيئاً، أن يكونوا شيئاً؛ وأولاء الرفيعات الشأن، الدوقات الكونتيسات الشائبات اللاتي يلتقيهن المرء في صالونها، وهنّ أبعد شيء، كما كان يشعر، عن أي شيء ذي أهمية ولو بمقدار ذرة، كن يمثلن شيئاً حقيقياً لها. قالت مرة ان الليدي بكسبارو تنتصب في قامتها (كذلك كانت تفعل كلاريسا ذاتها؛ إنها لم تتكاسل أبداً بأي معنى من المعاني؛ كانت مرفوعة القامة كسهم، متصلبة بعض الشيء في الواقع). كانت تقول ان لديهن نوعاً من الشجاعة التي كلما تقدم بها العمر كلما ازداد احترامها لها. وفي كل هذا يوجد الكثير جداً من دالاواي بالطبع، الكثير جداً من روحية

الحماس للخدمة العامة، والامبراطورية البريطانية، والاصلاح الكمركي، وطبقة الحكم، الروحية التي استحوذت عليها ومن شأن هذه الروحية أن تفعل ذلك. كان عليها، وهي بضعف ذكاء زوجها أن ترى الأشياء من خلال عينيه ـ وهذه هي احدى كوارث الحياة الزوجية. إنها يجب عليها دائماً، على استقلال عقلها، أن تقتبس كلام ريتشارد فتستشهد به ـ في حين يمكن للمرء أن يعرف ما يفكر فيه ريتشارد تفصيلاً بقراءة جريدة الصباح ! هذه الحفلات مثلاً هي كلها من أجله، أو من أجل فكرتها عنه (وانصافاً لو زاول ريتشارد الزراعة في نورفوك لكان اسعد حالاً) لقد جعلت من صالونها نوعاً من قاعة للاجتماعات، وهي ذات عبقرية في هذا. طالما رآها مراراً وتكراراً تتولى شاباً طريّ العود، فتلويه، وتقلبه، وتوقظه؛ تحركه منطلقاً. ثمة بالطبع عدد لا يحصى من أناس ثقلاء يتكأكأون حولها. لكن ثمة أناس يأتون ممن هم نشاز ولا يتوقع مجيئهم؛ فنان أحياناً؛ كاتب أحياناً؛ طير غريب في ذلك الجو. ووراء كل ذلك تلك الشبكة من الزيارات وترك البطاقات، وإظهار اللطف للناس؛ الركض هنا وهناك مع باقات الزهور، والهدايا الصغيرة؛ إن فلانة الفلانية ذاهبة الى فرنسا ـ يجب أن تكون لديها وسادة هوائية؛ هذه الأمور تمتص قواها امتصاصاً حقيقياً؛ كل ذلك التحرك الذي لا ينقطع وتزاوله نسوة على شاكلتها؛ لكنها تفعل ذلك بصميمية، وبسليقة طبيعية.

ومن الغرابة بمكان أنها كانت من أكثر الذين عرفهم تشكيكاً بالخالق وربما (وهذه نظرية دأب على اختلاقها لتفسير أمرها، نظرية في تمام الوضوح من بعض النواحي وفي تمام الابهام من نواح أخرى) ربما كانت كلاريسا تقول لنفسها بما أننا جنس مقضي عليه بالفناء، مكبل بسفينة غارقة (كانت قراءاتها المفضلة وهي فتاة لكتّاب مثل هكسلي وتندول، وكانا من الشغوفين بهذه التشبيهات البحرية)، وبما أن كل شيء هو نكتة سخيفة فلنقم بدورنا على أية حال، ولنلطف من شقاء زملائنا السجناء (هكسلي مرة أخرى)؛ ولنزين زنزانتنا بالأزهار والوسائد الهوائية، ولنكن على قدر

ما نستطيع من التقوى. إن هؤلاء الوحوش الآلهة، لن يجعلوا كل شيء يجري على هواهم وكما يشتهون ـ ففي حسبانها أن الآلهة، التي ما فتئت تنتهز الفرص لايقاع الأذى والاحباط والافساد في حياة الكائنات الانسانية، إنما تطرد من الساحة جدياً إذا ما تصرفت هي كسيدة، على كل حال. هذا الطور قد جاء مباشرة بعد وفاة شقيقتها ـ ذلك الأمر الفظيع. أن تقتل أختك أمام عينيك الاثنتين بالذات، فتاة هي أيضاً على شفا الحياة، والأكثر موهبة من بينهم، يكفي أن يحيل المرء الى حاقد، هكذا كانت كلاريسا تقول دائماً. أما فيما بعد فلعلها لم تكن بهذا الوثوق المؤكد؛ إنها لم تكن ترى أن هناك آلهة؛ ولا لوم على أحد، وهكذا فقد استنبطت هذا الدين الخاص بالملحدين والقاضي بفعل الخير من أجل الخير .

وبالطبع انها تستمتع بالحياة بشكل ذريع. الاستمتاع من طبيعتها (وإن كان عندها تحفظاتها، والله أعلم؛ فحتى هو، كثيراً ما شعر أنه لا يستطيع أن يضع أكثر من صورة قلمية مختصرة لها، بعد كل هذه السنين). وعلى أية حال، ليس فيها أي حقد؛ ولا شيء من ذلك التحسس بالفضيلة الأخلاقية الذي هو بمنتهى التقزيز في النساء الطيبات. إنها تستمتع على العموم بكل شيء. إذا سرت معها في هايد پارك، فالأمر مرة لوح من زنابق، مرة طفل في عربة، مرة شيء من دراما بسيطة خرقاء تختلقها بنت اللحظة. (إنها في أغلب احتمال كانت تكلم هذين العاشقين لو أنها ظنتهما تعيسين). وكلاريسا فيها حس بالفكاهة هو فعلاً حس رهيف، لكنها في حاجة الى ناس، دائماً في حاجة الى ناس لاستخراجه مع النتيجة الحتمية في تبديد وقتها، في أغدية وأعشية وإقامة حفلاتها هذه التي لا تنقطع، تهرف، وتقول أشياء لا تعنيها، فتثلم النصل الحاد في ذهنها، وتخسر قدرتها على التمييز. إنها لتجلس هنالك في صدر المائدة وهي تعاني الأمرّين من أحد المساعدين الثانويين ممن يكونون نافعين لدالاواي ـ انهما يعرفان أثقل الناس دماً في أوروبا، أثقلهم بصورة شنيعة ـ أما اذا دخلت اليزابيث فيجب أن يُتفرغ لها كلياً. كانت في آخر زيارة له طالبة في مدرسة

ثانوية، في الطور الذي لم تنضج معالمه بعد، فتاة مدورة العينين، شاحبة الوجه، وليس فيها أي شيء من أمها، مخلوقة صامتة، بلهاء، تتلقى كل شيء، وكأنه أمر مسلم به، وتتيح لأمها أن تحيطها بجلبة، وعندئذ تقول : « هل أذهب الآن ؟ » كأنها طفلة في الرابعة؛ فتوضح كلاريسا أن اليزابيث ذاهبة تلعب الهوكي بذلك المزيج من الأنس والافتخار الذي يبدو أن دالاواي نفسه يثيره فيها. والآن فإن اليزابيث « خارج المسألة » على ما يفترض؛ وقد ظنته محافظاً رجعياً وهزأت من أصدقاء أمها. آه حسناً، فليكن. دار في خلد بيتر ولش وهو يخرج من متنزه ريجنت حاملاً قبعته بيده، ان التعويض عن تقدم العمر هو هذا بكل بساطة؛ ان العاطفة تبقى على ما كانت عليه من قوة أبداً، لكن المرء يكسب ـ أخيراً ! القدرة على إضافة النكهة العظمى الى الوجود ـ القدرة على الامساك بالتجربة، على تقليبها ظاهراً وباطناً بتؤدة في الضياء .

وإنه لاعتراف فظيع (ارتدى قبعته مرةً أخرى)، لكنْ وفي الثالثة والخمسين، لم يعد المرء في حاجة الى الناس إلا بالكاد. إن الحياة نفسها، كل لحظة منها، كل قطرة منها، هنا، في هذه الهنيهة، الآن، في الشمس، في متنزه ريجنت، تكفي، بل هي أكثر مما يجب. إن عمراً بأسره لهو أقصر مما ينبغي، الآن وقد اكتسب المرء التمكن من اضفاء النكهة كاملة؛ من استخلاص كل مثقال من المتعة، كل لون من المعنى؛ فاذا كلاهما أكثر صلادة بكثير، وأقل عائدية شخصية بكثير، مما كانا عليه. إنه لمن المستحيل عليه أن يشقى أبداً مرةً أخرى كما جعلته كلاريسا يشقى، إنه خلال ساعات متوالية (حمداً لله أن يقول المرء مثل هذه الأشياء دون أن يسمعه أحد) ساعات وأيام لم يفكر في ديزي ابداً.

أَ لأنه مغرم بها، إذن، فيتذكر التعاسة والعذاب والوجد الفائق لتلك الأيام ؟ إنه لشيء مختلف كلياً ـ شيء ألطف كثيراً ـ فالحقيقة هي، بالطبع، انها الآن هي ذاتها المغرمة به، ولعل ذلك هو السبب لشعوره، حين

أبحرت السفينة فعلاً، بارتياح فائق، ولم يكن في حاجة إلا إلى أن يكون وحيداً، ذلك هو السبب لإنزعاجه اذ وجد كل الأشياء الصغيرة التي اهتمت بتوفيرها له ـ السيجار، الأوراق، وقطعة السجاد للرحلة ـ في قمرته. لو كان المرء صادقاً لقال مثل هذا القول؛ فالمرء لا يريد الناس بعد الخمسين؛ المرء لا يريد الاستمرار في أن يقول للنساء انهن حسناوات؛ دار في خلد بيتر ولش أن هذا هو ما سيشعر به أغلب الناس لو كانوا صادقين.

لكنّ هذه الافراطات العاطفية المذهلة ـ أن يجهش بالبكاء هذا الصباح، فيم هي ؟ ماذا ظنته كلاريسا ؟ ظنته أحمق فيما يفترض، وليس للمرة الأولى. الغيرة هي التي تكمن في أعماق المسألة ـ الغيرة التي تبقى بعد زوال كل عاطفة إنسانية أخرى. هذا ما دار في خلد بيتر ولش وهو يمسك بسكينته الجيبية يشهرها باع ذراع. قالت ديزي في رسالتها إنها تجتمع بالرائد أورد؛ قالتها عن عمد، يعرف ذلك؛ قالتها لتثير غيرته؛ بوسعه أن يراها تغضن جبينها وهي تكتب متسائلة، ترى ما الذي يسعها أن تقوله لتجرحه، ومع هذا فإن الأمر لا يقدم ولا يؤخر؛ وغضب أشد الغضب ! كل هذه الجلبة من المجيء الى انكلترا ومراجعة المحامين هي ليست للزواج بها. بل لمنعها من الزواج بأي شخص آخر. ذلك هو ما يعذبه، ذلك هو ما استبد به حينما رأى كلاريسا بمنتهى السكينة، بمنتهى البرود، بمنتهى الاهتمام المستغرق في فستانها أو مهما كان الشيء الذي يستغرقها؛ مدركاً ما كان بمستطاعها أن تجنبه إياه، ما جعلته يؤول اليه ـ الى حمار هزيل مولول ومروّل. وقال في خاطره، وهو يغلق سكينته الجيبية إن النساء لا يعرفن ما هي العاطفة. لا يعرفن ما تعنيه للرجال. كانت كلاريسا باردة برودة بلورة من الجليد. إنها لتجلس هناك على الأريكة بجنبه، وتبيح له أن يتناول يدها، وتعطيه قبلة واحدة على الخد ـ ها هو قد بلغ في سيره نقطة العبور.

ثمة صوت قطع عليه تأملاته؛ صوت خافت مرتعش، صوت يبقبق بلا إتجاه، أو قوة، أو بداية أو نهاية، يجري واهناً ويصر صريراً ويخلو من

كل معنى إنساني، [بهذه المقطوعات السريالية] :

إي أوم فا أوم سو

فو سْوِي تو إيم أوو

صوت بلا عمر أو جنس، صوت لينبوع قديم يتفجر من الأرض؛ ويخرج قبال المحطة الجوفية لمتنزه ريجنت تماماً، من جسم طويل راعش، جسم كأنه قمع، كأنه مضخة صدئة، كأنه شجرة أبلتها الرياح فهي عقيمة الأوراق أبداً وتذر الريح تجري صعوداً وهبوطاً في أغصانها منشدة :

إي أوم فا أوم سو

فو سْوِي تو إيم أوو

فتهتز وتصرج وتنوح في النسيم الأزلي .

وخلال جميع العصور ـ حين كان الرصيف عشباً، حين كان الرصيف مستنقعاً، خلال عصر الناب العاجي والماموث، خلال عصر الشروق الصامت ـ وقفت المرأة المهلهلة ـ ذلك أنها كانت ترتدي إزاراً ويمناها مكشوفة، ويسراها تمسك بالخاصرة. فغنت للحب ـ الحب الذي دام ألف ألف عام، غنت للحب الذي ينتصر، ولملايين من سنين خلت وحبيبها، الميت كل هذه القرون، يسير معها في أيار، وهي ترنم ترنيمتها؛ لكنْ على مدى عصور، عصور طويلة كأيام الصيف، ولاهبة، تذكرت، ولا شيء عندها سوى أزهار النجمة الحمراء، أنه قد ذهب، إن منجل الموت الذريع قد كسح تلك الروابي العظام، وعندما وضعت أخيراً رأسها الأشيب والهرم جداً على الأرض، وقد غدت الآن محضاً من تراب الثلج، ناشدت الآلهة أن تضع بجنبها باقة من زهور الخَلَنج الأرجوانية، هنالك على مدفنها العالي الذي غازلته آخر الأشعة من آخر شمس؛ ذلك أن مهرجان الكون سيكون عندئذ قد انقضى.

وإذ بقبقت الأغنية العتيقة قبالة المحطة الجوفية لمتنزه ريجنت فإن الأرض، مع هذا، بدت خضراء وزاهرة : مع هذا، وإن هي تخرج من فم

بمنتهى الفظاظة، مجرد ثقب في الأرض، مطين أيضاً، مكمود بألياف الجذور والحشائش المتشابكة، مع هذا فالأغنية العتيقة المبقبقة المثرثرة، النافذة خلال الجذور المعقودة للعصور اللانهائية وخلال الهياكل العظمية والكنوز الأرضية، قد سالت غدرانا على الرصيف وعلى طول شارع ماريلبون نزولاً نحو يوستين، وهي تنشر الخصب، تاركةً صبغة رطبة.

إن هذه المضخة الصدئة، وهي لا تزال تتذكر كيف أنها ذات مرة في أيارٍ ما من عصر بدائي قد سارت مع حبيبها، هذه المرأة العجوز المهلهلة وإحدى يديها مكشوفة لتلقي القروش، والأخرى تمسك بخاصرتها، ستبقى موجودة هناك في عشرة ملايين من السنين القادمة، متذكرة كيف أنها ذات مرة قد سارت في أيار، حيث البحر يفيض الآن، ولا يهم من ـ كان رجلاً، أي نعم رجلاً وكان قد أحبها. لكن مرور العصور قد ضبب وضوح ذلك اليوم القديم من أيار؛ الزهور اللامعة التويجات كانت قد شابت وتجلدت بلون فضي، وهي لم تعد ترى، حين ناشدته (كما فعلت الآن بمنتهى الوضوح) « أنظر في عينيّ بعينيك الحلوتين باستغراق »، لم تعد ترى عينين بنيتين وفودين أسودين ووجهاً لوحته الشمس، بل هيئة محوّمة فقط، هيئة شبح، والذي إليه، وبحيوية أشبه بحيوية الطيور في المسنين من الناس، ما زالت هي تزقزق « ناولني يدك وذرني اضغط عليها برفق ». (لم يسع بيتر ولش إلا أن يعطي هذه المخلوقة الفقيرة قطعة نقد وهو يستقل التاكسي)، « فلئن رأى أحدهم فهل نعبأ بهم ؟ » هكذا نادت مطالبة، وقبضتها تمسك بخاصرتها، وابتسمت وهي تدس الدرهم في جيبها، وبدت جميع العيون المتلصصة المستقصية وكأنها تمّحي، والأجيال العابرة ـ الرصيف كان مزدحماً بأفراد الطبقة الوسطى الزاخرة ـ قد اختفت كأوراق الشجر، لتطأها الأقدام وتداس، لتنقع وتشبع بللاً وتصير ثرى بواسطة ذلك الربيع الأزلي ـ

إي أوم فا أوم سو

فو شوِي تو إيم أوو

قالت ريزيا ورين سميث : « إمرأة عجوز مسكينة ».

أوه، يا للتعيسة المسكينة، قالت، وهي تنتظر العبور. لو فرضنا أنها ليلة مطيرة ؟ لو فرضنا أن والد أحدنا أو شخصاً عرفناه في أيام الخير قد مرّ فرأى أحدنا واقفاً هناك في الساقية ؟ وأين تنام هذه المرأة ليلاً ؟

تصاعد خيط الصوت المنيع متلاشياً ببشر، وبصورة تكاد تكون مرحة، في الهواء كأنه دخان يتعالى من مدخنة منزل ريفي، يتلوى فوق أشجار الزان النظيفة ويدفق في حزمةٍ من دخان أزرق بين الأوراق القصوى. « فلئن رأى أحدهم فهل نعبّ بهم ؟ »

ولأن ريزيا تعيسة جداً لأسابيع وأسابيع الآن، فقد أعطت معاني لما يحدث من أمور، وكادت تشعر أحياناً بأنها يجب أن توقف الناس في الشارع، إذا كانوا طيبين، لطفاء، وذلك لمجرد أن تقول لهم « إني تعيسة »؛ وهذه المرأة العجوز وهي تغني « فلئن رآنا احدهم فهل نعبأ بهم ؟ » جعلتها تتأكد فجأة أن كل شيء سيكون على ما يرام. إنهما ذاهبان الى السير وليام برادشو؛ وحسبت إسمه يرن في الأذن رنيناً لطيفاً؛ إنه سيشفي سپتيموس فوراً. ثم ها هي عربة البيرة والخيول الشهباء ذات الشعيرات المنتصبة من القش في ذيولها، وهناك اعلانات عن الجرائد الصادرة. إذن أن تكون تعيسة ما هو إلا حلم سخيف، سخيف.

وهكذا عبرا، السيد والسيدة سپتيموس ورين سميث، فهل ثمة من شيء، على أية حال، يجلب الانتباه اليهما، شيء يجعل احداً من المارة يساوره الشك بأن هذا شاب يحمل في باطنه أعظم رسالة للعالم، وهو فضلاً عن ذلك أسعد رجل في الدنيا وأتعس رجل ؟ لعلهما يسيران بصورة أبطأ من الآخرين، ولعل في مشية الرجل اثر من تردد، أثر من تلكؤ، لكنْ أليس من الطبيعي جداً بالنسبة الى موظف يعمل كاتباً لم يأت منذ سنين الى الطرف الغربي من لندن في يوم من أيام العمل في مثل هذه الساعة، أن

يظل يتطلع الى السماء، يتطلع الى هذا الشيء وذاك كما لو أن ميدان بورتلاند هو غرفة خالية يدخلها، والثريات تتدلى مغلفة بأكياس قطنية والمرأة التي ائتمنت على الغرفة تشرح للزائرين، اذ هي ترفع ركناً من الستارة الطويلة فتدع حزماً طويلة من الشعاع المغبر تقع على مقاعد مهجورة غريبة المظهر، مبينة لهم روعة المكان، انها تقول يا له من مكان رائع، لكن الرجل يقول في نفسه في الوقت ذاته يا له من مكان غريب.

إنك اذا نظرت الى الرجل فقد تحسبه موظفاً يعمل كاتباً، ولكن من طراز أرقى؛ ذلك أنه يرتدي حذاءاً بنياً؛ يداه مثقفتان؛ كذلك هو وجهه الجانبي - وجهه الجانبي الحاد الخطوط، الكبير الأنف، الذكي، الحساس، ولكن شفتيه ليستا كذلك : ذلك أنهما مرتخيتان؛ أما عيناه (كما هو شأن العيون) فهما محض عينين؛ هما كبيرتان شهلاوان؛ لذا فإنه على العموم يعد حالة وسطاً فلا هو هذا الشيء ولا ذاك؛ قد ينتهي به المطاف الى امتلاك بيت في حي بورلي الراقي وسيارة، أو يستمر في استئجار الشقق في الشوارع الخلفية طيلة حياته، كأحد أولئك الأشخاص شبه المثقفين، المثقفين ذاتياً وقد اكتسبوا كل ثقافتهم من كتب مستعارة من مكتبات عامة يقرأونها مساء بعد عمل النهار، بنصيحة من مؤلفين معروفين يستشيرونهم تحريرياً.

أما بالنسبة الى التجارب الأخرى، التجارب الانفرادية، التي يمر بها الناس فرادى، في غرف نومهم، في مكاتبهم، سائرين في الحقول وفي شوارع لندن، فإنه قد جربها، لقد ترك البيت وهو بعد صبي غر، بسبب أمه؛ كانت تكذب، ولأنه جاء للشاي ويداه غير مغسولتين للمرة الخمسين؛ لأنه لم ير مستقبلاً لشاعر في ستراود، وهكذا، وبعد أن اتخذ من أخته الصغيرة كاتمة لأسراره، فقد ذهب الى لندن تاركاً وراءه قصاصة زرقاء، مثل تلك التي كتب أمثالها رجال عظام، فقرأها العالم فيما بعد حين اشتهرت قصة كفاحهم.

لقد ابتلعت لندن ملايين عديدة من شباب، يحملون اسم سميث؛ ولـم تكترث بذوي الأسماء الأولى الباهرة مثل سپتيموس التي ظن الآباء أنهم يضفون امتيازاً على أبنائهم بها. سكن خلف شارع يوستون فكانت هنالك تجارب، تجارب مرة أخرى، من مثل ما يغير الوجه بسنتين من بيضوي وردي بريء الى وجه ناحل، متشنج، عدائي. لكنْ وفي خضم كل هذا فإن كل ما استطاع قوله أدق الأصدقاء ملاحظة لم يكن سوى ما يقوله بستاني حين يفتح باب المشتل الزجاجي في الصباح فيجد زهرة جديدة على نبتته : لقد تفتحت؛ تفتحت بفعل الغرور والطموح، والمثالية، والعاطفة، والوحشة والشجاعة، والكسل، تلك البذور المعتادة التي ما أن خلطت جميعاً (في غرفة خلف شارع يوستون) حتى جعلته خجولاً، ومتلجلجاً، جعلته تواقاً الى اثبات نفسه، جعلته يقع في غرام الآنسة ايزابيل پول، وهي تحاضر في شارع ووترلو عن شكسبير.

أليس هو مثل كيتس ؟ سألت وجال في خاطرها أنها قد تجعله يتذوق مسرحية أنطونيو وكليوباطرة والبقية الباقية؛ أعارته كتباً؛ كتبت اليه قصاصات رسائل؛ وأشعلت فيه ناراً لا يتقد مثيلها إلا مرة واحدة في العمر، ناراً بلا حرارة، ترعّش لهباً ذهبي الاحمرار أثيرياً الى ما لا نهاية ولطيف الجوهر فلا تدركه الأبصار، ترتعش ذبالته فوق الآنسة پول؛ ومسرحية أنطونيو وكليوباطرة، وشارع ووترلو. كان يتخيلها جميلة، يعتقد أنها حكيمة بشكل لا يرقى اليه الشك؛ كان يحلم بها، وينظم لها القصائد التي تصححها له بالحبر الأحمر، متجاهلة الموضوع؛ رآها ذات مرة، في أُمسية صيف تسير بفستان أخضر في أحد الميادين. « الزهرة تفتحت »؛ ربما كان البستاني يقول هكذا لو أنه كان قد فتح الباب. وبعبارة أخرى لو أنه كان قد دخل في أية ليلة حوالي هذا الوقت فوجده يكتب؛ وجده يمزق ما يكتب؛ وجده يبغي مأثرة كتابية في الساعة الثالثة صباحاً فيهرع خارجاً يذرع الشوارع، ويزور الكنائس، ويصوم يوماً، ويشرب آخر، ملتهماً شكسبير وداروين وكتاب « تاريخ الحضارة » وبرنارد شو.

كان السيد بروورار يعرف أن شيئاً ما على وشك الحدوث؛ والسيد بروورار هو مدير محل سيبلي وآروسميث للمزاد العلني والتخمينات والتوكيلات لبيع الأراضي والعقارات؛ ظن السيد بروورار أن شيئاً ما على وشك الحدوث، ولكونه يرعى شبانه أبوياً، وإذ كان يقدر قابليات سميث كل التقدير، ويتنبأ له بأنه في بحر عشرة أو خمس عشرة سنة سيتبوأ الكرسي الجلدي الوثير في الغرفة الداخلية تحت منور السقف وملفات السندات حواليه، « إن حافظ على صحته » قال السيد بروورار، وهنا يكمن الخطر ـ إنه يبدو ضعيف البنية؛ نصح بكرة القدم، دعاه الى العشاء وكان يتلمس طريقه لينظر في التوصية بترفيع راتبه حينما حدث شيء شتت العديد من حسابات بروورار، واستل أقدر الشباب من مجموعته، وبالنتيجة كانت أصابع الحرب الأوروبية بدرجة من الافتراس والغدر بحيث امتدت فحطمت له تمثالاً جصياً مصبوباً عن قالب للآلهة سيريس، وحفرت ثقباً في ألواح زهور الجيرانيوم، وخربت كلياً أعصاب الطاهية في دار السيد بروورار في موزاويل هيل.

كان سپتيموس من أوائل المتطوعين. ذهب الى فرنسا لانقاذ انكلترا التي تكاد تتألف كلياً من مسرحيات شكسبير والآنسة إزابيل پول بفستان أخضر تسير في ميدان من الميادين. وهناك في الخنادق حدث على الفور التغيير الذي أراده السيد بروورار حين نصح بكرة القدم؛ لقد اكتسب رجولة؛ ورُقّي، ولفت انتباه ضابطه، بل إعجابه، ضابطه أفينز بالاسم. كان شأنهما شأن كلبين يلعبان على سجادة الموقد؛ أحدهما يقلب قصاصة ورق مبرومة، يموء ويخمش، ويضرب بين حين وحين ضربة على أذن الكلب العجوز؛ والآخر يستلقي ناعساً، يرمش بعينيه ناظراً الى النار، رافعاً مخلبه، متقلباً يخور بروح طيبة. كان عليهما أن يكونا معاً، يقتسمان مع بعضهما، يختصمان مع بعضهما، يتشاجران مع بعضهما. ولكن حينما قتل أفينز (ريزيا، التي لم تره سوى مرة واحدة، دعته « بالرجل الهادىء »، وهو رجل قوي أحمر الشعر، لا يتظاهر في معيّة النساء)، حينما قتل أفينز، قبيل

الهدنة تماماً، في ايطاليا، فإن سبتيموس، الذي لم يظهر أية عاطفة أو يدرك أن ما جرى هو نهاية صداقة، هنأ نفسه لأن مشاعره كانت بمقدار قليل جداً وبشكل معقول جداً. الحرب قد علمته. كان الأمر بمنتهى السمو. لقد خاض غمار الاستعراض بأسره، الصداقة، الحرب الأوروبية، الموت، الترقية، وهو لا يزال دون الثلاثين وقد قدّر له البقاء على قيد الحياة. وكان على صواب في هذا. فقد أخطأته القنابل. رقبها تنفجر بعدم اكتراث. وحين حل السلام كان في ميلانو، يسكن بأمر من الجيش في بيت لصاحب نزل ذي فناء، وأزهار في قلل، ومناضد صغيرة في الخلاء، وبنات صاحب النزل يصنعن القبعات، وذات مساء غدا مخطوباً للوكريزيا، صغري البنات، عندما استبد به الذعر ـ لأنه لا يستطيع أن يحس.

والآن وقد انتهى كل شيء، ووُقِّعت الهدنة، ودُفن الموتى، فإنه لتعاوده، خاصة في المساء، هذه الرعود القاصفة الفجائية من الخوف. إنه لا يستطيع أن يحس. ما أن يفتح باب الغرفة حيث تجلس الفتيات الايطاليات يصنعن القبعات حتى يراهن؛ يسمعهن؛ كنّ يفركن الأسلاك ما بين خرزٍ ملونة في أطباق صغيرة؛ كنّ يقلبن قوالب القماش السميك لهذه الجهة وتلك؛ كانت المنضدة كلها منثورة بالريش والبُلك اللماعة والخيوط الحريرية والشرائط؛ والمقاص تطقطق على المنضدة؛ لكن شيئاً ما يخذله؛ إنه لا يستطيع أن يحس. مع هذا، فالمقاص وهي تطقطق، والبنات وهن يضحكن. والقبعات وهي تصنع، تحميه؛ لقد ضمن الأمان؛ إن لديه ملجأ. لكنه لا يستطيع الجلوس هناك طيلة الليلة. ثمة لحظات من الافاقة في الصباح الباكر. السرير يسقط؛ هو يسقط. آه من المقاص وضوء المصباح وقوالب القماش السميك ! لقد سأل لوكريزيا الزواج به، البنت الصغرى، المرحة، اللعوب، بأصابعها الشبيهة بأصابع الفنانين، أصابع ترفعها وتقول « إن كل شيء فيها ». فخيوط الحرير، والريش، وما أشبه ذلك، تستجيب لأصابعها استجابة حية.

إنها لتقول، وهما يسيران في الخارج معاً : « القبعة هي التي تهم

بالدرجة الأولى ». كل قبعة تمر تتفحصها؛ والمعطف والفستان وطريقة المرأة في مشيتها. تصم هذه بسوء الملبس وهذه بالمبالغة فيه، لا بفظاظة، بل بالأحرى بحركات متوترة من اليدين، مثل حركات رسام يتقمص خدعة ما مكشوفة صارخة بريئة؛ ثم ترحب، بكرم، وإن على نحو ناقد دائماً، بعاملة مخزن تكون قد اعتنت كل الاعتناء بما أمامها من حاجيات بسيطة، أو تمتدح كل المديح، وبتفهم حماسي ومهني، سيدة فرنسية تنزل من عربتها بالفراء الثمين والأوشحة واللآلىء.

انها لتتمتم : « جميلة ! » وهي تنخس سپتيموس لعله يرى. لكن الجمال وراء لوح من زجاج. انه لا يتلذذ حتى بحاسة المذاق (ريزيا تحب البوظة، والشكولاتة، والحلوى). إنه يعيد كوبه الى مائدة الرخام الصغيرة. يتطلع الى الناس في الخارج؛ الظاهر أنهم سعداء، وهم يتجمعون وسط الشارع، يتصايحون، يتضاحكون، يتناكفون على لا شيء. لكنه لا يستطيع أن يذوق، لا يستطيع أن يحس. وفي المقهى بين الموائد والسقاة الثرثارين استبد به الخوف المريع ـ إنه لا يستطيع أن يحس. يستطيع ان يفكر تفكيراً سليماً. يستطيع فأن يقرأ، دانتي مثلاً، بسهولة تامة (قالت ريزيا : « دع كتابك سپتيموس » وأغلقت بلطف كتاب « الجحيم ») إنه يستطيع أن يجمع قائمة حسابه، مخه سليم، فلا بد أن الخطأ إذن هو خطأ العالم ـ ألاّ يستطيع أن يحس.

قالت ريزيا : « الانكليز سكوتون جداً ». وقالت إنها تحب ذلك. إنها تحترم هؤلاء الانكليز، وتريد أن ترى لندن، والخيول الانكليزيّة، والبدلات المخيطة، وبوسعها ان تتذكر سماعها عن روعة المخازن من عمة لها تزوجت وسكنت سوهو.

دار في خلد سپتيموس أن الأمر قد يكون ممكناً، وهو ينظر الى انكلترا من نافذة القطار عند عودتهما؛ قد يكون ممكناً أن العالم نفسه بدون معنى.

لقد رقّي في المكتب الى مركز ذي مسؤولية كبيرة. كانوا فخورين به. كان قد نال أوسمة. بدأ السيد برووار يقول : « لقد قمت أنت بواجبك؛ وبقي علينا نحن أن ـ » ولم يستطع إكمال الجملة، فإلى هذه الدرجة كانت عواطفه جياشة. لقد استأجر مكاناً محترماً في شارع توتنهام كورت.

هنا فتح شكسبير مرة أخرى. إن تلاعب ذلك الصبي بنشوة السكر اللغوية ـ أنطونيو وكيلوباطرة ـ هي أشغولة قد وهنت بصورة مطبقة. يا له شكسبير هذا، كيف يشمئز من الانسانية ـ ارتداء الملابس، إنجاب الأطفال؛ قذارة الفم والبطن ! ذلك قد انكشف لسپتيموس الآن؛ الرسالة التي تختفي وراء جمال الكلمات. إن الاشارة السرية التي ينقلها جيل الى جيل يليه بصورة متنكرة هي الاشمئزاز والكراهية واليأس. دانتي على الشاكلة نفسها. أخيل (مترجماً) على الشاكلة نفسها. هناك جلست ريزيا الى الطاولة تزركش القبعات. إنها تزركش القبعات لصديقات المسز فيلمور؛ إنها تزركش القبعات على مدى الساعة. خالها تبدو شاحبة، كأنها زنبقة غارقة، تحت الماء.

إنها لتقول : « الانكليز جادون جداً » وهي تلف ذراعيها حول سپتيموس وتضع خدها على خده.

الحب بين الرجل والمرأة شيء منفّر عند شكسبير. وكانت مسألة الجماع قذارة عنده قبل الانتهاء من حياته. لكن، قالت ريزيا، انها يجب أن يكون لها أطفال. إنهما متزوجان منذ خمس سنوات.

لقد ذهبا الى قلعة لندن معاً. الى متحف فكتوريا وألبرت؛ وقفا وسط الجمهور ليشاهدا الملك يفتتح البرلمان. وهنالك المخازن ـ مخازن القبعات، مخازن الفساتين، مخازن تعرض في واجهاتها حقائب جلدية فتقف أمامها محدقة. لكنها يجب أن تنجب ولداً.

قالت يجب أن تنجب ابناً مثل سپتيموس. لكن ما من أحد يمكن أن يكون مثل سپتيموس؛ رقيق الحاشية جداً؛ جاد جداً؛ ذكي جداً. سألت :

ألا تستطيع أن تقرأ شكسبير هي ايضاً ؟ هل شكسبير مؤلف صعب ؟

إن المرء لا يستطيع أن يأتي بأطفال الى عالم مثل هذا، المرء لا يستطيع تأبيد الشقاء، أو زيادة نسل هذه الحيوانات الشبقة التي ليست لديها عواطف دائمة، بل محض نزوات ومشاعر غرور عابثة، تدوِّم بها مرة الى هذه الجهة ومرة الى تلك.

إنه يرقبها تشد القبعات وتشكل فيها كما يرقب المرء طيراً يقفز، ويمرق في العشب، دون أن يجرؤ على أن يحرك إصبعاً واحداً. ذلك أن الحقيقة (فلتتجاهلها) هي أن الكائنات الانسانية ليس فيها من العطف، من الايمان، من الاحسان، إلا بمقدار ما يعمل على زيادة لذة اللحظة الحاضرة. إنها تطلب الصيد زرافات، وزرافات تمشط الصحراء وتختفي في التيه وهي صائحة وتتخلى عمن يسقط. يعلو وجوهها التكشير. خذ بروورار في المكتب بشاربه المصمّغ، ودبوس ربطته المرجاني، وقميصه الأبيض، وعواطفه الجياشة ـ وكله في باطنه برودة ودبق، أصصه من الجيرانيوم خربتها الحرب ـ أعصاب طاهيته تحطمت؛ أو خذ العاملة أميليا، ما اسمها ؟ توزع أكواب الشاي في المكتب في الخامسة بالضبط ـ المستهترة الحقيرة البذيئة ذات النظرات الخبيثة الهازئة؛ أو الآخرين من فلان وفلانة بقمصانهم المنشاة الصدور وهي تنضح بقطرات كثيفة من الرذيلة. إنهم لم يروه أبداً وهو يرسمهم في دفتره عراة وهم في مباذلهم. وفي الشارع الشاحنات تهدر مارةً به؛ والقسوة الوحشية تصرخ في الوجه من الاعلانات المعلقة؛ رجال يحاصرون في المناجم؛ نساء يحرقن أحياء؛ وذات مرة مر به في شارع توتنهام كورت رتل مشوه من المجانين وهم يمرِّنون أو يعرضون لتسلية السكان (الذين تضاحكوا جهاراً) سائرين رهواً ينغضون رؤوسهم ويكشرون، وكل واحد منهم يُنزل بنفسه ثبوره اليائس بشكل شبه اعتذاري، إنما بشعور الظفر. فهل سيجن هو نفسه ؟

وعلى الشاي أخبرته ريزيا أن إبنة المسز فيلمور تتوقع مولوداً. وهي، ريزيا بالذات لا تستطيع ان يتقدم بها العمر ولا تنجب أطفالاً ! إنها وحيدة

جداً، وتعيسة جداً ! بكت للمرة الأولى منذ زواجهما. وهو يسمعها تنشج من بعيد؛ يسمع نشيجها على وجه الدقة، يلحظه على وجه التميز؛ فيقارنه بمكبس يدق. لكنه لم يحس بشيء.

إن زوجته تبكي، وهو لا يحس بشيء، إنما ينحدر فقط درجة أخرى الى الهاوية، في كل مرة تنشج فيها على هذه الشاكلة العميقة، الصامتة، اليائسة.

أخيراً، وبايماءة ميلودرامية تصنعها ميكانيكياً وهو يعي زيفها كل الوعي، أرخى رأسه بين يديه. إنه الآن قد استسلم. الآن يجب على الآخرين أن لا يساعدوه. يجب الاستعانة بأحد. إنه قد سلم أمره.

ما من شيء يحركه. وضعته ريزيا في الفراش. طلبت طبيباً ـ طبيب المسز فيلمور الدكتور هولمز. فحصه الدكتور هولمز. قال الدكتور هولمز لا يوجد شيء مطلقاً. أوه، يااللانفراج ! يا له من رجل لطيف، يا له من رجل طيب ! هكذا افتكرت ريزيا. قال الدكتور هولمز إنه هو نفسه حين يشعر بمثل هذه الحالة يذهب الى حفلة موسيقية، يأخذ إجازة يوماً واحداً هو وزوجته ليلعب الغولف. لِمَ لا تحاولين قرصين من البرومايد يذابان في الماء قبل النوم ؟ وقال الدكتور هولمز وهو يدق على الحائط : بيوت بلومزبري القديمة هذه، جدرانها مكسوة غالباً بخشب بديع جداً ومالكوها من الحماقة بحيث يغطونها بورق الحيطان. إنه قبل يوم واحد فقط، وكان يزور أحد مرضاه، السير فلان الفلاني، في ميدان بدفورد ـ

وهكذا فليست ثمة معذرة؛ لا يوجد أي شيء فيه، سوى الاثم الذي من جرائه قضت عليه الطبيعة الانسانية بالموت ؛ لأنه لم يكن يحس. لم يعبأ حين قتل أفينز؛ كان ذلك أسوأ ما هنالك؛ لكن جميع الجرائم الأخرى رفعت رؤوسها وهزت أصابعها وحقَّرت من فوق محجّر سريره في الساعات الباكرة من الصباح لتنهال على الجسد الجاثي الذي يستلقي مدركاً إنحطاطه؛ كيف أنه قد تزوج زوجته دون أن يحبها؛ كذب عليها؛ أغواها وأغضب الآنسة ايزابيل پول، فهو يرفل بالرذيلة الى درجة تجعل النساء يرتعشن فزعاً

من رؤيته في الشارع. إن حكم الطبيعة الانسانية على مثل هذا البائس التعيس هو الموت.

وجاء الدكتور هولمز مرة أخرى، انه وهو الضخم، الطريّ اللون، الوسيم، الذي يهزهز حذاءه، وينظر في المرآة، قد طرح كل شيء جانباً ـ الصداع، الأرق، المخاوف، الأحلام ـ قال، أعراض عصبية ولا شيء أكثر من هذا. لو أن الدكتور هولمز وجد وزنه يقل بكيلو واحد عن معدله البالغ مئة كيلوغرام فإنه يطلب من زوجته صحناً إضافياً من الهريس [البوريج] وقت الإفطار : (ريزيا ستتعلم طبخ الهريس). واستمر يقول لكن الصحة هي اساساً مسألة تحت سيطرتنا. إنغمس باهتمامات خارجية، مارسْ هواية ما. فتح شكسبير ـ أنطوني وكيلوباطرة؛ دفع شكسبير جانباً. قال الدكتور هولمز أية هواية هذه ! أليس هو شخصياً مديناً بصحته الممتازة (هو الذي يعمل كثيراً شأن غيره من الناس) لقدرته على أن يتحول دائماً من تطبيب مرضاه الى الاهتمام بالأثاث القديم ؟ ثم ما هذا المشط الجميل جداً الذي تضعه السيدة وارين سميث في شعرها إن سمحت !

وحين جاء هذا الأحمق الكبير مرة أخرى رفض سبتيموس أن يراه. قال الدكتور هولمز : لا يريد أن يراني حقاً ؟ وهو يبتسم ابتسامة الرضا. كان عليه أن يدفع فعلياً تلك السيدة الصغيرة الفاتنة، السيدة سميث، دفعة متلطفة قبل ان يتمكن من تجاوزها ليدخل الى غرفة نوم زوجها.

قال بلهجة مقبولة: «أنت إذن في نوبة من الذعر والاحجام»، وهو يجلس بجنب مريضه. لقد تكلم فعلاً مع زوجته عن قتل نفسه، زوجته فتاة رائعة، أجنبية، أليس كذلك، ألا يعطيها ذلك فكرة غريبة جداً عن الأزواج الانكليز ؟ أليس المرء مديناً بالواجب نحو زوجته ؟ أليس الأفضل فعل شيء ما بدلاً من الاستلقاء في السرير ؟ ذلك أنه يتمتع بأربعين سنة من الخبرة الطبية، وبوسع سبتيموس أن يصدق قول الدكتور هولمز ـ ليس فيه علة. في المرة القادمة التي يأتي بها الدكتور هولمز فهو يأمل أن يجد

سميث خارج السرير وألا يجعل تلك السيدة الصغيرة الفاتنة زوجته تقلق عليه .

وباختصار أطبقت الطبيعة الانسانية عليه ـ الوحش المقزز، ذو المناخير الحمراء بلون الدم. هولمز يطبق عليه. الدكتور هولمز يأتي كل يوم بانتظام. كتب سپتيموس على ظهر بطاقة بريدية: ما أن تعثر حتى تطبق الطبيعة الانسانية عليك. هولمز يطبق عليك. إن فرحتهما الوحيدة هي الهرب، دون إعلام هولمز، الى ايطاليا ـ الى أي مكان، أي مكان، بعيداً عن الدكتور هولمز.

لكن ريزيا لم تستطع أن تفهمه. إن الدكتور هولمز رجل بمنتهى اللطف، إنه مهتم جداً بسپتيموس. قال إنه لا يريد سوى مساعدته. قالت لسپتيموس إن عنده أربعة صغار وقد دعاها الى الشاي.

إذن فإنه مهجور. العالم كله يتنادى : أقتل نفسك، أقتل نفسك، من أجلنا. لكن لماذا يجب أن يقتل نفسه من أجلهم ؟ الطعام لذيذ، الشمس حارة؛ وهذا القتل للنفس كيف يدبره المرء ؟ بسكينة أكل، ببشاعة، مع طوفان من الدم، ـ بمص أنبوب الغاز ؟ إنه ضعيف جداً، لا يكاد يستطيع أن يرفع يده. أضف إلى ذلك، الآن وقد غدا وحيداً، مقضياً عليه. مهجوراً، كما هم وحيدون الذين على وشك الموت فإن ثمة ترفاً في المسألة، عزلة مليئة بالسمو، حرية لن يعرفها المتعلق بالدنيا أبداً. فاز هولمز بالطبع، فاز الوحش ذو المناخير الحمراء. لكن حتى هولمز نفسه لا يستطيع أن يمس هذه الرفات الأخيرة الضالة على حافة العالم، هذا الطريد الذي يرجع البصر محدقاً بالأصقاع المأهولة، والذي يستلقي، مثل بحّار غريق، على جرف العالم.

وإنه لفي تلك اللحظة (ريزيا ذهبت تتسوق) ان حدث الالهام العظيم. إن صوتاً تكلم من وراء الستارة. أفينز يتكلم. كان الموتى معه.

صاح : « أفينز ! »

نادت البنت الخادمة أكنز، تخاطب المسز فيلمور في المطبخ أن السيد سميث يتكلم مع نفسه بصوت مرتفع. فقد قال « أفينز، أفينز » حين كانت تجلب الصينية. لقد قفزت فعلاً. وهرعت نازلة.

وجاءت ريزيا، مع أزهارها، فسارت عبر الغرفة، ووضعت الورد في مزهرية، فوقعت عليها الشمس مباشرةً ومضت هي تضحك، قافزة في أرجاء الغرفة.

قالت ريزيا كان عليها أن تشتري الورد من فقير في الشارع. وأضافت وهي ترتبها : لكنها ورود تكاد تكون ميتة سلفاً.

إذن هناك رجل في الخارج؛ أفينز على ما يفترض؛ والورود، التي قالت ريزيا انها شبه ميتة، قد قطفها أفينز من حقول اليونان. الاتصال عافية؛ الاتصال سعادة. تمتم يقول : الاتصال.

سألته ريزيا وقد ملئت رعباً، ذلك أنه كان يتكلم مع نفسه، « ما الذي تقوله يا سبتيموس ؟ »

أرسلت أكنز على عجل بطلب الدكتور هولمز. قالت : إن زوجها قد جن. إنه لا يكاد يعرفها.

صاح سبتيموس : « أنت يا وحش ! أنت يا وحش ! » وهو يرى الطبيعة الانسانية، يرى الدكتور هولمز يدخل الغرفة.

قال الدكتور هولمز بلطف شديد : « ما كل هذا الآن ؟ أتتكلم هذا الكلام الفارغ لتفزع زوجتك ؟ » لكنه سيعطيه شيئاً لينام. وقال الدكتور هولمز وهو يجيل نظره بسخرية في الغرفة، إذا كانوا أغنياء فليذهبوا على الرحب والسعة الى شارع هارلي ؛ قال الدكتور هولمز، هذا إن لم يكن لديهم ثقة به. وكانت في عينيه نظرة ليست لطيفة كل اللطف.

كانت الساعة هي الثانية عشرة بالضبط؛ الثانية عشرة بساعة بيغ بن؛ ذهبت دقاتها محمولة فوق القسم الشمالي من لندن؛ امتزجت بدقات ساعات أخر، واختلطت على نحو أثيري رقيق بالسحب ونفثات الدخان

وتلاشت في الأعالي هناك مع طيور النورس ـ دقت الثانية عشرة حين وضعت كلاريسا دالاواي فستانها الأخضر على سريرها، وسار الزوجان ورين سميث في شارع هارلي. الثانية عشرة هي ساعة ميعادهم. وخامر ريزيا ظنها بأن هذا هو بيت السير وليام برادشو والسيارة الرمادية اللون تقف أمامه. (الدوائر المثقلة ذابت في الهواء).

وإنها لكذلك ـ سيارة السير وليام برادشو؛ واطئة، متينة، رمادية، مع الحروف الأولى وقد حفرت بخط بسيط على السطح، حتى كأن ابهة شعارات النبلاء هي شيء بغيض، فهذا الرجل ما هو إلا العون غير المنظور، هذا الرجل ما هو إلا كاهن العلم؛ ثم، لما كانت السيارة رمادية اللون، ولمواكبة لطافتها الوقورة، لذا فإن الفراء الرمادي والسجاد الفضي قد ركما فيها، وذلك للحفاظ على دفء صاحبة السيادة الزوجة إبان انتظارها. ذلك أنه غالباً ما يشد السير وليام الرحال مسافة ستين ميلاً أو أكثر في الريف لعيادة الأغنياء، المبتلين، الذين يقدرون على دفع الأجور الباهظة جداً التي يتقاضاها السير وليام، حسب الأصول المرعية جداً، عن مشورته الطبية. وسيادة الزوجة تنتظر والسجاد حول ركبتيها ساعة أو أكثر، وهي تركن الى الخلف، تفكر احياناً في المريض، واحياناً، ولها العذر، في جدار الذهب الذي يرتفع دقيقة بعد دقيقة إبان انتظارها؛ جدار الذهب الذي يرتفع بينهم وبين كل التقلبات والمقلقات (وقد احتملتها بشجاعة؛ فقد كان لهما كفاحهما)، الى ان يغمرها شعور بأنها عالقة على أوقيانوس ساكن، حيث لا تهب سوى ريح مضمخة بالطيب، فتغدو محترمة، موضع اعجاب، ومحسودة، لم يكد يبقى أي يشيء تتمناه، وإن كانت تأسف لبدانتها؛ حفلات عشاء كبيرة كل ليلة خميس لذوي المهنة، سوق خيري تفتتحه بين حين وحين؛ أفراد من الأسرة المالكة لأداء فريضة الاحترام لهم؛ قليل جداً من الوقت، ويا للأسف، تقضيه مع زوجها الذي يتزايد عمله باستمرار، نجلٌ يسير سيراً حسناً في إيتون؛ كانت تتمنى لو انها رزقت

بكريمةٍ أيضاً ؛ أما الاهتمامات فلديها منها الوفير، رعاية الطفولة؛ العناية بالمصابين بالصرع بعد إبلالهم، والتصوير الفوتوغرافي، حتى اذا رأت كنيسة تشاد، أو كنيسة آيلة الى السقوط، قامت ترشي السادن، تحصل على المفتاح، وتلتقط صوراً لا تكاد تختلف عن انتاج المحترفين، إبان انتظارها.

ولم يعد السير وليام ذاته شاباً. لقد عمل بكل جد؛ ونال مركزه بمحض الاقتدار (فهو ابن صاحب دكان)؛ أحب مهنته، وأضحى رئيس شرف رائعاً في الاحتفالات، ويحسن الكلام ـ كل هذا أضفى عليه، بحلول وقت الانعام عليه باللقب، طلعة مثقلة، طلعة متعبة (لأن تيار المرضى لا ينقطع. ومسؤوليات مهنته وامتيازاتها مرهقة جداً)، فكان من شأن تلك السيماء المتعبة، مضافا إليها شعره الأشيب، ان زادت من حضوره المتميز جداً وزودته بصيت (والصيت من الأهمية بمكان عظيم في التعامل مع الحالات العصبية) ليس فقط في المهارة التي تبهر البصر والدقة التي تكاد تكون معصومة عن الخطأ في التشخيص، بل كذلك بصيت في التعاطف؛ في اللياقة؛ في تفهم الروح الانسانية. كان بوسعه أن يرى من اللحظة الأولى لدخولهما (السيد والسيدة ورين سميث بالاسم)، متأكداً فور رؤيته الرجل، انها حالة بمنتهى الخطورة. حالة من حالات الانهيار الكامل ـ الانيهار الجثماني والعصبي الكامل، مع كل اعراض المرحلة المتقدمة، تبينها بدقيقتين او ثلاث (وهو يكتب الاجابة عن الأسئلة، متمتماً بلباقة، في بطاقة وردية).

كم استغرقت معاينة الدكتور هولمز له ؟

ستة أسابيع.

وصف بعض البرومايد ؟ قال ليس فيه علة ؟ إي نعم (وقال السير وليام في خاطره، هؤلاء الأطباء العموميون ! المسألة تأخذ نصف وقته لتصحيح هفواتهم. بعضها غير قابل للاصلاح).

« خدمت بامتياز كبير في الحرب ؟ »

كرر المريض كلمة « الحرب » بصيغة الاستفهام.

إنه يلحق بالكلمات معاني من نوع رمزي. عرض خطير يجب تدوينه في البطاقة.

تساءل المريض: « الحرب ؟ ». الحرب الأوروبية - المشاجرة البسيطة بين صبيان المدارس بالبارود ؟ خدم بامتياز ؟ إنه نسي فعلاً. وفي الحرب نفسها كان قد خاب.

أكدت ريزيا للطبيب تقول: « نعم. نعم. وخدم بأعظم امتياز. ورقّي ».

تمتم السير وليام وهو يرمق رسالة المستر برووار والمكتوبة باطراء عطر: « وهم في المكتب يحملون عنك أحسن الآراء طراً، فليس عندك ما يقلق حتى ولا مالياً ».

إنه اقترف جرماً مريعاً وقد قضت عليه الطبيعة الانسانية بالموت.

بدأ يقول: « إني قد - قد - اقترفت جريمة - »

فبادرت ريزيا تؤكد للطبيب: « أنه لم يرتكب شيئاً على الاطلاق ». قال السير وليام لو يسمح السيد سميث بالانتظار فإنه سيتحدث مع السيدة سميث في الحجرة المجاورة. قال لها السير وليام إن زوجها مريض بصورة خطيرة جداً. هل هدد بقتل نفسه ؟

صاحت أوه، هدد بذلك لكنه لا يعنيه. قال السير وليام بالطبع. والمسألة هي محض مسألة راحة، راحة، راحة؛ راحة طويلة في الفراش. ثمة دار استراحة بديعة في الريف حيث سيعتنى بزوجها كامل الاعتناء. سألته: أيكون بعيداً عنها ؟ قال نعم، ولسوء الحظ؛ إن الذين يهموننا الى أقصى حد لا يصلحون لنا في مرضنا. لكنه ليس مجنوناً، أليس كذلك ؟ قال السير وليام إنه لم ينطق أبداً بكلمة « الجنون »؛ إنه يسمي هذه الحالة حالة انعدام الحس بتناسب الأشياء. لكن زوجها لا يود الأطباء. إنه سيرفض الذهاب الى هناك. فأوضح لها السير وليام الوضع باقتضاب

ولطف. إنه قد هدد بقتل نفسه. ليس ثمة بديل. المسألة مسألة قانون. إنه سيرقد في سرير ببيت جميل في الريف. الممرضات رائعات. السير وليام سيزوره مرة في الاسبوع. إذا كانت السيدة ورين سميث متأكدة تماماً من أنها ليس لديها مزيد من الأسئلة ـ فهو لا يستعجل مرضاه ألبتة ـ فسيرجعان الى زوجها. ليس لديها شيء آخر تسأله ـ ليس من السير وليام.

وهكذا رجعا الى اكثر الناس تجلياً من أبناء البشرية؛ الى المجرم الذي يواجه قضاته؛ الى الضجة المكشوفة في المرتفعات؛ الطريد؛ البحار الغريق؛ شاعر القصيدة الخالدة، الرب الذي ذهب من الحياة الى الموت؛ الى سپتيموس ورين سميث الذي جلس في المقعد الوثير تحت منور السقف محملقاً بصورة الليدي برادشو وهي بكسوة البلاط، ومتمتماً برسالات عن الجمال.

قال السير وليام: « لقد انهينا حديثنا البسيط ».

صاحت ريزيا: « إنه يقول إنك مريض جداً ».

قال السير وليام: « كنا نرتب لك أن تذهب الى دار استراحة ».

قال سپتيموس ساخراً: « إحدى دور استراحة هولمز » ؟

أعطى صاحبنا هذا انطباعاً مقيتاً. ذلك أن في السير وليام، ووالده من محترفي المتاجرة، احتراماً طبيعياً للتربية والملبس. وانه ليسيء اليه المظهر الرث؛ ثم ان في السير وليام، الذي لم يجد وقتاً للقراءة أبداً، ضغينة دفينة يشعر بها بصورة أعمق تجاه المهذبين الذين يراجعونه في عيادته ويوحون له بأن الأطباء، ومهنتهم عبء ثقيل على كل ملكات العقل السامية، غير مثقفين.

قال: « إحدى دور استراحتي أنا يا سيد ورين سميث، حيث سنعلمك الاستراحة ».

وهناك شيء آخر.

إنه على ثقة بأنه حين يشفى السيد ورين سميث فسيكون آخر من

يفزع زوجته، لكنه قد تحدث عن قتل نفسه.

قال السير وليام: «كلنا نعاني من لحظات اكتئاب».

كرر سبتيموس يقول في نفسه: ما أن تسقط حتى تطبق عليك الطبيعة الانسانية، هولمز وبرادشو يطبقان عليك. إنهما يمشطان الصحراء. يسرعان الى البراري صارخين. الفَلقة وكلابة الأظافر تستعملان. الطبيعة الانسانية لا ضمير لها.

سأله السير وليام وقلمه على بطاقة وردية: «أتعتريه انفعالات أحياناً؟»

قال سبتيموس إن ذلك شأنه الخاص به.

قال السير وليام وهو يرمق صورة زوجته بكسوة البلاط: «ما من أحد يعيش لنفسه وحده».

وأضاف: «ثم إن أمامك مستقبلاً لامعاً جداً». كانت رسالة المستر بروار على المنضدة.

لكن لو أنه اعترف؟ لو انه افضى؟ هل سيدعه هولمز وبرادشو يذهب عندئذ؟ تلجلج يقول: «إني - إني -»

لكن ما هي جريمته؟ فهو لا يستطيع أن يتذكرها.

شجعه السير وليام: «نعم؟» (لكن الوقت يتأخر).

الحب، الأشجار، ليس هناك جريمة - ما هي رسالته؟

لا يستطيع أن يتذكرها.

تلجلج سبتيموس «اني - اني»

قال السير وليام بلطفه: «حاول ألا تفكر في نفسك إلا بأقل ما يمكن». حقاً، إنه لا يصلح أن يكون مع الآخرين.

هل هناك شيء آخر يرغبان في أن يسألاه؟ فالسير وليام سيقوم بكل الترتيبات (تمتم لريزيا) وسيعلمها بين الخامسة والسادسة هذا المساء.

قال : « أودعي كل شيء لي »، وأخرجهما.

ما شعرت ريزيا أبداً بسكرات معاناة كهذه في حياتها على الاطلاق ! لقد طلبت العون فكان جزاؤها التخلي ! إنه خيب ظنهما ! السير وليام برادشو ليس ذاك الرجل الطيب.

قال سپتيموس حين خرجا الى الشارع إن ادامة تلك السيارة وحدها لا بد من أن تكلفه الكثير.

تعلقت بذراعه. لقد جرى التخلي عنهما.

لكن ماذا أكثر من هذا ؟

إنه يعطي مرضاه ثلاثة أرباع الساعة من وقته؛ ولو أن طبيباً، في مجال هذا العالم الذي يتطلب الكثير ويتناول ما لا نعرف عنه شيئاً، على أية حال ـ الجهاز العصبي، المخ الانساني ـ لو أنه يفقد الحس بتناسب الأشياء، فإنه يفشل كطبيب؛ لذا فحين يدخل رجل الى غرفتك ويقول انه المسيح (وهمٌ شائع)، وإن عنده رسالة، كشأنهم في الغالب، ويهدد بقتل نفسه، كما يهددون على الأغلب، فأنت تلجأ الى تناسب الأشياء؛ تأمر بالراحة في الفراش؛ الراحة في الوحدة؛ الصمت والراحة؛ الراحة بدون أصدقاء، بدون كتب، بدون رسالات؛ ستة أشهر من الراحة، بحيث يدخل الرجل الى المصح وهو يزن حوالى خمسين كيلوغراماً فيخرج منه وهو يزن أكثر من سبعين.

والتناسب، التناسب السماوي، إله السير وليام، إنما اكتسبه السير وليام وهو يجوب المستشفيات، يصيد سمك السلمون، ينجب ولداً في شارع هارلي من الليدي برادشو التي تصيد هي نفسها سمك السلمون وتلتقط صوراً فوتوغرافية لا تكاد تختلف عن انتاج الممتهنين. وبعبادة التناسب فإن السير وليام لم ينعم وحده فقط بالرخاء، بل جعل انكلترا تنعم بالرخاء، فعزل من فيها من المأفونين، وحرم عليهم الانجاب، وشل القنوط، وجعل من المستحيل على غير الصالحين أن يدعوا الى آرائهم الى

أن يشاركوا، هم أيضاً، بحس تناسبه هذا ـ تناسبه، إن كانوا رجالاً، تناسب الليدي برادشو إن كانوا نساء (إنها تطرز، تحوك، تقضي أربع ليال من سبع في البيت مع ابنها)، بحيث لم يقتصر الأمر على أن يحترمه زملاؤه ويهابه مرؤوسوه، بل ان اصدقاء مرضاه وأقرباءهم شعروا تجاهه بمنتهى عرفان الجميل عن اصراره على أن هؤلاء المتنبئين الذين يتقمصون المسيح من الرجال والنساء، ويتنبأون بنهاية العالم، أو بظهور الله، يجب أن يشربوا الحليب في الفراش، كما امر السير وليام. فبالنسبة الى السير وليام، بخبرته البالغة ثلاثين عاماً في هذه الأنواع من الحالات، وبغريزته المعصومة من الخطأ، ان هذا جنون، هذا الحس؛ الحس بتناسب الأشياء كما يسميه.

لكن التناسب له شقيقة، أقل ابتساماً، وأكثر فظاعة، هي الهة منشغلة، حتى هذه اللحظة ـ في قيظ الهند ورمالها، في طين افريقيا ومستنقعاتها، وفي جوار لندن، وباختصار حيثما كان المناخ أو الشيطان يشجع الناس على المروق عن الايمان الحق الذي هو ايمانها ـ منشغلة، حتى هذه اللحظة، في هدم المعابد، في تحطيم الأصنام، في اقامة شيء آخر محلها يتحلى بطلعتها العابسة ذاتها، اسمها الردة، وهي تغتذي بارادة المستضعفين، وتعشق التأثير في الآخرين، والفرض قسراً على الآخرين، وإنها لمعجبة حتى العبادة بقسماتها ذاتها المطبوعة على وجه السكان. إنها تقف واعظة على دكة في « هايدپارك كورنر »؛ وتسير مظهرة التوبة ومجللة بالبياض ومتنكرة على صورة الحب الأخوي، في المصانع والپرلمانات؛ إنها تعرض العون لكنها ترجو السلطان؛ وتسحق في طريقها بفظاظةِ المخالف، أو المستاء؛ وتمنح بركتها أولئك الذين هم، في تطلعهم الى العلاء، يقبسون نورهم ذاته باستكانةٍ من عينيها. وهذه السيدة (وريزيا ورين سميث تقدسها) لها منزل كذلك في قلب السير وليام، وإن كان منزلاً يتوارى، كما هو شأنها غالباً تحت قناع ما مقبول؛ تحت اسم ما مبجل؛ الحب؛ الواجب، نكران الذات. كيف أنه سيعمل ـ كيف سيكد لجمع التبرعات، للدعوة الى الاصلاحات، للبدء باقامة المؤسسات ! لكن الردة، هذه الآلهة التي يصعب

إرضاؤها، إنما تعشق الدماء أكثر مما تعشق آجر البناء، تغتذي بمنتهى الرهافة على الارادة الانسانية. خذ الليدي برادشو مثلاً، فإنها انهارت قبل خمس عشرة سنة. لم يكن الأمر شيئاً يمكنك أن تضع إصبعك عليه؛ لم يكن هناك أية مشاجرة، ولا اية فرقعة مفاجئة؛ بل محض غرق بطيء، مثقل بالماء، لارادتها في إرادته. حلوة كانت ابتسامتها، خاطفاً استسلامها، والعشاء في شارع هارلي، ذو الأطباق الثمانية أو التسعة، لإطعام عشرة ضيوف أو خمسة عشر ضيفاً من الطبقات المهنية، كان عشاء رائق السلاسة وبمنتهى التهذيب. لكن، وإذ تمتد الليلة فإن ثقلاً في الجو بسيطاً جداً، أو ربما مضايقة، رجفة، أو ارتباكاً أو عثرة عصبية فإذا بالبلبلة تشير الى شيء من المؤلم حقاً تصديقه - ان السيدة المسكينة تكذب. إنها كانت، في الماضي البعيد، تصيد سمك السلمون بحريتها : والآن، وهي تبادر الى مداراة التوق الذي يلتمع في عيني زوجها التماع الزيت المضيء، التوق الى السيادة، الى السلطان، فإنها تتشنج، تتعصر، تتقصف، تتسوف، ترتد الى الخلف، تختلس النظر : بحيث أنه، وبدون أن يعرف بالضبط ما الذي يجعل الأمسية مضجرة، وبسبب هذا الضغط على يافوخ الرأس (والذي قد يرد الى المحادثة المهنية، أو الى وهن طبيب عظيم تقول الليدي برادشو إن حياته « ليست ملكاً لمرضاه »)، لكنها بالفعل أمسية مضجرة : بحيث أنه، حين تدق العاشرة، يتنفس الضيوف الصعداء من هواء شارع هارلي ملء صدورهم بل وبتفجر عاطفي؛ على أن ذلك الانفراج لا يتاح لمرضاه.

هنالك في الغرفة الرمادية، والتصاوير على الجدار، بين الأثاث الثمين، وتحت منور السقف من الزجاج الصقيل، يدركون الى أي مدى قد بلغ مروقهم من الجادة : إنهم، وهم محنيون في مقاعد وثيرة، ليرقبونه يقوم، من أجل منفعتهم، بتمرين غريب، وقد شمّر عن ساعديه يمدهما ثم يعيدهما بشدة الى فخذه، لكي يبرهن (إن كان المريض عنوداً) ان السير وليام هو سيد أفعاله، وأن المريض ليس كذلك. هنالك ينهار الضعفاء؛ يجهشون بالبكاء، ويستسلمون؛ أما الآخرون، وقد الهمتهم جِنة حادة لا

يعرف خبرها إلا الله، فيسمون السير وليام آفاقاً وجهاً لوجه؛ ويشككون، وبعقوق أشد، بالحياة نفسها، فيم العيش ؟ يسألونه مطالبين بجواب. يجيبهم السير وليام أن الحياة طيبة. طيبة بالتأكيد، فإن صورة الليدي برادشو معلقة فوق رف الموقد وهي ترفل بريش النعام، أما بالنسبة الى دخله فهو إثنا عشر الف پاون في السنة عداً. فيردون عليه قائلين باحتجاج لكنّ الحياة لم تنعم علينا بمثل هذه النعمة، فيتفق معهم، إنهم يعوزهم الحس بتناسب الأشياء. وربما ليس هناك رب بعد كل الذي يقال ؟ فهز كتفيه. باختصار، هل هذا العيش أو عدم العيش هو أمر يخصنا ؟ لكنهم في هذا على خطأ. إن لدى السير وليام صديقاً يسكن في « صري » حيث يعلمون ما أقر السير وليام صراحة بأنه فن صعب ـ الحس بتناسب الأشياء. بالاضافة الى ذلك هنالك المودة العائلية؛ الشرف؛ الشجاعة؛ والمهنة اللامعة. كل هذه تجد لها في السير وليام بطلاً صلباً. فإن فشلوا فعليه أن يساهم في رقابتهم، وإن صالح المجتمع، كما لاحظ السير وليام بهدوء تام، سيتولى، هناك في صري؛ أمر السيطرة على تلك الاندفاعات غير الاجتماعية التي تنجم عن سلالة غير طاهرة الدماء أكثر مما تنجم عن أي شيء آخر. ثم تسللت تلك الآلهة من مخبئها فارتقت عرشها، وما شهوتها إلا ان تكبح المعارضة، وان تطبع بشكل لا يمّحي صورة نفسها في حُرُم الآخرين. إن المنهك، الذي لا صديق له، وقد تعرى ولم يعد لديه ما يتحصن به، انما يتلقى ختم ارادة السير وليام فيُدمغ به. إنه ينقض، انه يفترس. انه يكم افواه الناس. وهذا المزيج من الحسم والانسانية هو الذي يقرب السير وليام الى هذه الدرجة العظيمة من قلوب اقرباء ضحاياه.

لكن ريزيا ورين سميث صاحت، وهي تسير في شارع هارلي، انها لم تشعر بالود نحو هذا الرجل.

وكانت ساعات شارع هارلي، وهي تفتت الوقت وتجزئه، تقسمه وتعاود التقسيم، كانت تنقر في اليوم الحزيراني نقراً، توحي بالتسليم، تساند

السلطة، وتشير بجوقة واحدة الى المنافع العظمى للحس بتناسب الأشياء، حتى تلاشت ربوة الزمن الى درجة بحيث أن ساعة تجارية، كانت معلقة فوق أحد المخازن في شارع أوكسفورد، اعلنت بكرم وأخوة انها الواحدة والنصف كأن اعطاء هذه المعلومات مجاناً يسر السادة ريغبي ولاونديز.

اذا رفع المرء نظره فسيرى ان حروف اسم هذا المخزن، ريغبي ولاونديز، البالغة اثني عشر حرفاً، مطبوعة على علامات عقرب الساعة، كل حرف على علامة منها، فيشعر بالامتنان العفوي للمخزن لأنه يعطيه الوقت مصدقاً من بيغ بن، وهذا الامتنان (هكذا فكر هيو ويتبريد، وهو يتسكع هنالك أمام الواجهة) يأخذ بعدئذٍ وبصورة طبيعية شكل شراء جوارب وأحذية من المخزن ذاته. كانت تلك عادته. فهو لا يتعمق. ويتمسح بالسطوح، أما اللغات الميتة، والحية، الحياة في اسطنبول، باريس، روما، الركوب، الصيد، التنس، فقد كانت من اهتماماته في حين مضى. يزعم الخبثاء أنه الآن يشرف في قصر بكنغهام على ما لا يعرف أحد ما هو، مرتدياً جوارب الحرير وسراويله مزمومة عند الركبتين لكنه يقوم بذلك بمنتهى الاقتدار. إنه يعوم فوق زبدة المجتمع الانكليزي منذ خمس وخمسين سنة. لقد عرف رؤساء وزارات. والمفهوم أن وداده عميق. ولئن كان صحيحاً انه لم يشارك في أية من حركات العصر الكبرى ولم يتقلد وظيفة مهمة، فالصحيح أيضاً ان اصلاحاً متواضعاً واحداً أو اصلاحين يرجع الفضل فيهما له؛ تحسين الملاجىء العامة أحدهما وحماية طيور البوم في نورفوك هو الآخر؛ أما الخادمات الصبايا فلهن من الأسباب ما يجعلهن يضمرن الامتنان له. أما توقيعه في نهاية الرسائل التي تنشرها له التايمز، طالباً تبرعات، مناشداً الجمهور أن يصون النفايات ويحفظها ويزيلها، أن يخفف من وطأة الدخان، أن يمحق اللااخلاقية في المتنزهات فقد كان توقيعاً يدعو الى الاحترام.

انه ليتخذ هيئة رائعة ايضاً. وهو يتوقف لحظة (اذ تلاشى صوت

نصف الساعة) ليتطلع على نحو ناقد، بأبهة، الى الجوارب والأحذية؛ يتوقف بمظهره الموسر، المعصوم من النقص، وكأنه ينظر الى العالم من مقام عال، فجعل ملبسه يناسب المقام؛ لكنه يدرك الالتزامات المترتبة على الحجم والثروة والعافية، ويحافظ على الأصوليات الدقيقة بمنتهى الالتزام، حتى لو لم تكن ضرورية جداً، مما يضفي على سلوكه ميزة معينة، ميزة تحاكي ميزة تذكّر به، ذلك انه مثلاً لا يذهب الى غداء مع الليدي بروتون التي يعرفها منذ هذه السنين العشرين، الا حمل لها في يديه المبسوطتين باقة من القرنفل، كما انه يسأل الآنسة براش، سكرتيرة الليدي بروتون، عن أحوال أخيها في جنوبي افريقيا، مما تستهجنه الآنسة براش، لسبب ما، مع انها تنقصها كل الفتنة الأنثوية، حتى انها تقول له : « شكراً، إن أخي على أحسن حال في جنوبي افريقيا »، في حين انه في حالة سيئة في بورتسموث منذ بضع سنين.

أما الليدي بروتون نفسها فتؤثر ريتشارد دالاواي الذي وصل في اللحظة ذاتها، بل انهما التقيا عند العتبة.

الليدي بروتون تؤثر ريتشارد دالاواي بالطبع. انه من طينة أروع بكثير. لكنها لن تتيح للناس أن يطعنوا بعزيزها المسكين هيو. انها لن تنسى أبداً لطفه ـ كان حقاً بمنتهى اللطف ـ نسيت بأية مناسبة بالضبط. لكنه كان ـ بمنتهى اللطف. على العموم، ان الفرق بينهما لا يرقى الى الكثير. انها لا تتمتع بنزعة انتقاد الآخرين حد التمزيق وهي نزعة تتمتع بها كلاريسا ـ تمزقهم إرباً، وتعيد التكوين كرة أخرى؛ ليس وهي في الثانية والستين على أية حال. تناولت قرنفلات هيو بابتسامتها الحادة الجهمة، قالت ليس من مدعو آخر غيرهما. وانها قد جاءت بهما الى هنا بزعم زائف، وذلك لكي يعاوناها على الخروج من وضع صعب..

قالت : « ولكن فلنأكل أولاً ».

وهكذا بدأت الحركات الصامتة الرهيفة ذهاباً واياباً خلال الأبواب

الدوارة من خادمات بحلل الخدمة بما فيها الاقباع البيض، خادمات لسن هن بالضرورة وصيفات، لكنهن ماهرات في اداء احجية غامضة أو خدعة كبرى تمارسها المضيفات في حي « مايفير » من الواحدة والنصف الى الثانية، حين تتوقف حركة المرور في الشارع بإشارة من اليد، ويقوم بدلاً منها هذا الوهم المستحكم بشأن الطعام أولاً وآخراً ـ كيف أنه مجاني ؛ ثم بشأن المائدة انها تمد نفسها طواعية بالاقداح الزجاجية والصحاف الفضية، مع قواعدها المطرزة الصغيرة، وبالصحون المحملة بثمار حمر، وشاشات القشدة البنية تنسدل قناعاً على سمك موسى البحري، وفي فخاريات تعوم الفراخ المقطعة؛ النيران تتقد ملونة، غير داجنة، ومع النبيذ والقهوة (مجاناً) تقوم الرؤى المرحة أمام العيون المتأملة، عيون متفكرة بلطف؛ عيون تبدو الحياة لها موسيقية، غامضة؛ عيون أُضيئت الآن لتلحظ بكل تقدير جمال القرنفل الأحمر الذي وضعته الليدي بروتون (وحركتها حادة دائماً) بجنب طبقها، بحيث أن هيو ويتبريد، وقد شعر بارتياح بال تجاه الكون بأسره وهو في الوقت عينه بمنتهى الوثوق من منزلته، قال وهو يضع شكوته جانباً :

« ألا تبدو القرنفلات فاتنات على خلفية فستانك الدانتيلا ؟ »

استهجنت الآنسة براش هذه الحرية في الكلام استهجاناً عميقاً، فهي تحسبه شخصاً قليل التربية. أضحك استهجانها الليدي بروتون.

رفعت الليدي بروتون باقة القرنفل، تحملها بتصلب نوعاً ما وبالطريقة ذاتها التي يحمل بها الجنرال قراطيسه في الصورة وراءها؛ هل هي حفيدة الجنرال؟ حفيدة حفيدته؟ السير رودريك، السير ماليز، السير تالبوت ـ ذلك هو الأمر. وانه لأمر عجيب كيف ان الشبه في تلك الأسرة يتمادى في النساء. انها هي بالذات كان ينبغي لها أن تكون جنرالاً في سلاح الفرسان. وكان ريتشارد دالاواي سيخدم في امرتها بطيب خاطر، انه يكن لها اعظم الاحترام؛ ويعتز بهذه الآراء الرومانسية بشأن النسوة ذوات المركز المستقر

والسلالة العريقة، وكم كان بوده أن يأتي ببعض معارفه من الشبان الغلاة المتحمسين لتناول الغداء معها؛ كأنه يحسب أن نمطاً من امثالها يمكن استيلاده من غلاة لطفاء من الذين لا يحتسون غير الشاي! انه يعرف منطقتها في الريف. يعرف اهلها. هناك كرمة، لا تزال تحمل العنب، كان قد جلس تحتها أحد الشاعرين لوفليس أو هيريك ـ أما هي فما قرأت في حياتها ابداً كلمة شعر واحدة، لكن هذا ما يقال عن هذه الحكاية. قالت الليدي بروتون في خاطرها: الأفضل ان انتظر حتى يشربا القهوة، فلأنتظر ثم أضع أمامهما المسألة التي تشغل بالي (عن كتابة نداء الى الجمهور وبأية صورة الخ)؛ وهكذا وضعت باقة القرنفل بجنب طبقها.

سألت على حين غرة : « كيف هي كلاريسا ؟ »

تقول كلاريسا دائماً ان الليدي بروتون لا تحبها. حقاً فالليدي بروتون تشتهر باهتمامها بالسياسة أكثر من اهتمامها بالناس؛ بأنها تتكلم كالرجال؛ بأنها كان لها اصبع في مكيدة ماكرة سيئة الصيت في الثمانينات والتي بدأت الآن تنشر في كتب المذكرات. كان هنالك بالتأكيد ركن خلوي منعزل في صالونها، ومنضدة في ذلك الركن وصورة معلقة فوق تلك المنضدة للجنرال السير تالبوت مور، ميت الآن، الذي كتب هناك (في إحدى الليالي في الثمانينات) بحضور الليدي بروتون، وبعلم من لدنها وربما بنصيحتها، امراً برقياً الى القوات البريطانية بالتقدم في مناسبة ما تاريخية. (لقد احتفظت بالقلم وحكت الحكاية. لذا، فحينما تقول بطريقتها العرضية « كيف هي كلاريسا ؟ » يجد الأزواج صعوبة باقناع زوجاتهم بصدقها، بل هم، على وفائهم لهن، يشكّون بينهم وبين انفسهم باهتمامها بالنساء اللاتي يقفن كما ترى عائقاً بوجه أزواجهن اللاتي يحلن بينهم وبين قبول الوظائف في الخارج، اللاتي يكون من الضروري نقلهن الى شاطىء البحر ابان انعقاد جلسة البرلمان للابلال من زكام. مع ذلك فإن استفسارها، « كيف هي كلاريسا » ؟ معروف عند النساء وبشكل لا يقبل الخطأ بأنه اشارة من امرأة

ترجو الخير، من رفيقة تكاد تكون صامتة تعبر تفوهاتها (التي تعد على عدد الأصابع مدى العمر) عن اعتراف برفقة انثوية تتغلغل طي مآدب الغداء الرجالية، فتوحد برباط وحيد بين الليدي بروتون والسيدة دالاواي اللتين نادراً ما تلتقيان، فإذا التقتا ظهر عليهما عدم الاكتراث، بل حتى العداء.

قال هيو ويتبريد وهو يغوص في صحن الفخار : « التقيت كلاريسا هذا الصباح في المتنزه »، وكان تواقاً أن يقدم لنفسه هذا التكريم البسيط بقوله هذا. فإنه ما أن يأتي الى لندن حتى يلتقي كل الناس فوراً؛ لكنه نهم، هذا ما دار في خلد ميلي براش، بل انه من أنهم الرجال الذين عرفتهم على الاطلاق، فهي ترقب الرجال بدقة لا تعرف التردد، مخلصة باستمرار لجنسها بالذات، لأنها مجعدة الوجه، أكل الدهر عليها وشرب، نحيلة بارزة العظام، وتخلو من أية فتنة أنثوية.

قالت الليدي بروتون، وقد خطر لها الخاطر فجأة : « هل تعرفون من في البلد؟ صديقنا العتيد بيتر ولش ».

ابتسموا جميعاً. بيتر ولش! وظنت ميلي براش أن السيد دالاواي قد سر حقيقة؛ وأن السيد ويتبريد لم يفكر إلا في فرخته.

بيتر ولش ! إن ثلاثتهم، الليدي بروتون، وهيو ويتبريد وريتشارد دالاواي، تذكروا الشيء ذاته ـ كيف أن بيتر كان مغرماً مشبوب العاطفة، فرُفض؛ وذهب الى الهند؛ وأخفق كل الاخفاق؛ واختلطت عليه الأمور؛ وريتشارد دالاواي نفسه يكن لصاحبنا العزيز نفسه مودة كبيرة جداً. ميلي براش رأت ذلك؛ رأت عمقاً في اللون البني من عينيه؛ رأته يتردد؛ يتفكر؛ مما أثار اهتمامها، كما يثير السيد دالاواي اهتمامها دائماً، ذلك انها تساءلت ترى ما الذي يفكر فيه بشأن بيتر ولش.

يفكر في أن بيتر ولش كان مغرماً بكلاريسا؛ وسيعود مباشرة بعد الغداء فيجد كلاريسا؛ وسيقول لها، بالحرف الواحد، إنه يحبها. أجل، سيقول ذلك.

كان يحتمل أن تقع ميلي براش ذات مرة في حب هذا النوع من السهوم، والسيد دالاواي يعتمد عليه دائماً؛ يا له من مهذب ايضاً. والآن، ولأنها في الأربعين، فما على الليدي بروتون إلا أن تهز رأسها، بل تديره فجأة، حتى تتلقى ميلي براش الاشارة، مهما كانت مستغرقة في هذه التأملات الصادرة عن روح موضوعية عن نفس غير فاسدة لم تستطع الحياة أن تخدمها، لأن الحياة ما حبتها بقيراط من شيء ذي قيمة؛ لا جديلة من شعر، لا ابتسامة، لا شفة، لا خد، لا أنف؛ لا شيء مطلقاً؛ ما على الليدي بروتون إلا أن تهز رأسها حتى يبلّغ الساقي پيركينز بالاسراع بجلب القهوة.

قالت الليدي بروتون: « أجل؛ پيتر ولش قد عاد ». كان هذا الأمر يداعب غرورهم جميعاً على نحو غامض. لقد عاد الى شواطئهم الآمنة ممزقاً، لم يصب النجاح. أما أن يساعدوه فهذا مستحيل، هذا ما ساور أنفسهم؛ ثمة عيب ما في شخصيته. قال هيو ويتبريد ربما يمكن التنويه باسمه طبعاً عند فلان أو فلان. عقد جبينه باكتئاب، وبصورة تنبىء بأهمية مقامه، اذ خطرت له فكرة الرسائل التي سيكتبها الى رؤساء دوائر حكومية بشأن « صديقي القديم، پيتر ولش »، وهكذا. لكن ذلك لن يؤدي الى أي شيء - لن يؤدي الى أي شيء دائمي، بسبب شخصيته.

قالت الليدي بروتون « إن لديه مشكلة مع إمرأة ما ». لقد خمنوا كلهم أن هذا بالذات هو أساس نقصه.

ثم أضافت: « على كل، سوف نسمع القصة بأسرها من پيتر نفسه »، فقد كانت تواقة الى ترك الموضوع بأسره.

(كان مجيء القهوة بطيئاً جداً).

غمغم هيو ويتبريد « العنوان ؟ »؛ وعلى الفور حدثت رجرجة في المد الرمادي للخدمة الذي يتلاطم حول الليدي برتون يوماً بعد يوم، فيجمع الآخرين، معترضاً سبيلهم، محيطاً الليدي بقشرة رقيقة تكسر

الرجات، تخفف أثر المقاطعات، وتنشر حول البيت في شارع بروك شبكة رقيقة حيث تثوي الأشياء ثم يلتقطها من مكانها بصورة صحيحة وعلى الفور پيركينز الأشيب، الذي عمل مع الليدي بروتون كل هذه السنين الثلاثين، وكتب الآن العنوان؛ سلمه للسيد ويتبريد الذي أخرج مفكرته ورفع حاجبيه، فلما دس العنوان بين وثائق هي بمنتهى الأهمية قال إنه سيطلب من زوجته أن تدعوه الى الغداء.

(كانوا ينتظرون حتى ينتهي ويتبريد لكي يؤتى القهوة).

دار في خلد الليدي بروتون أن هيو بطيء جداً، وأنه يأخذ بالبدانة. ريتشارد يحافظ على نفسه دائماً وعلى أحسن ما يكون. وأخذت تضيق ذرعاً؛ إن كيانها بأسره يقوم بشكل مؤكد لا مراء فيه على ذلك الموضوع الذي يشغل اهتمامها؛ كيانها الذي يطرح جانباً وبإصرار التفاهة التي لا لزوم لها (پيتر ولش وشؤونه وشجونه)؛ وذلك الموضوع لا يشغل اهتمامها فقط، بل يشغل ذلك النسيج الذي هو عماد روحها، ذلك الجزء الجوهري فيها الذي لولاه لما كانت ميليسينت بروتون هي ميليسينت بروتون؛ ذلك المشروع عن تهجير الشباب من الجنسين، والمولودين من أبوين محترمين، وارسالهم لتولي عمل جيد ذي فرص طيبة في كندا. إنها تبالغ. ولعلها قد فقدت حسها بتناسب الأشياء. إن الهجرة بالنسبة الى الآخرين ليست هي العلاج الناجع، أو المفهوم الأسمى. فالهجرة بالنسبة اليهم ليست (ليست لهيو أو ريتشارد أو حتى الآنسة براش المخلصة لها) هي التي تحرر الفرد من الأنانية المكبوتة، الأنانية التي تشعر بانبثاقها فيها إمرأة قوية، عسكرية النزعة، حسنة التغذية، كريمة المحتد، ذات انفعالات مباشرة (صريحة وبسيطة ـ تساءلت لِمَ لا يكون كل فرد صريحاً وبسيطاً ؟)، إمرأة ما أن يولي عنها شبابها حتى تطبق على موضوع ما ـ قد يكون الهجرة، قد يكون تحرير المرأة؛ على أنه مهما كان الأمر فإن هذا الموضوع الذي يتخفى حوله جوهر روحها يومياً فيغدو بصورة حتمية لامعاً، متعدد الألوان، نصفه مرآة ونصفه حجر كريم؛ وهو مرة يخبأ

بعناية لئلا يهزأ منه الناس؛ ومرة يعرض بافتخار. إن الهجرة قد غدت، وباختصار، هي الليدي بروتون الى حدٍ كبير.

لكن عليها أن تكتب. فإن رسالة واحدة الى جريدة التايمز، كما دأبت أن تقول للآنسة براش، تكلفها اكثر مما تكلفها حملة تجردها الى جنوبي افريقيا (الأمر الذي فعلته في الحرب). ما أن تنشب لديها المعركة صباحاً، وهي تبدأ الرسالة، وتمزق الورقة، فتبدأ من جديد، حتى تحس بعقم أنوثتها هي بالذات كما لم تحس بها في أية مناسبة أخرى فتلجأ بامتنان الى فكر هيو الذي يجيد ـ دون مراء ـ فن كتابة الرسائل الى التايمز.

إنه كائن خلق على خلافها تماماً، وذو سيطرة فائقة على اللغة؛ قادرٌ على كتابة الأشياء بالشكل الذي يود المحررون أن تكتب به؛ وفيه من العاطفة ما لا يستطيع المرء أن يسميها ببساطة نهماً. لطالما أجلت الليدي بروتون حكمها على الرجال احتراماً منها للوفاق الغامض الذي يتلقون به، هم دون النساء، سنن الكون؛ انهم يعرفون كيف يكتبون الأشياء؛ ويعرفون ما يقولونه وما لا يقولونه؛ بحيث اذا ما نصحها ريتشارد وكتب لها هيو فهي واثقة بأنها على صواب بشكل من الأشكال. وهكذا أتاحت لهيو أن يأكل السوفليه؛ استفسرت عن المسكينة إيفلين؛ انتظرت حتى دخّنا، وعندئذ قالت :

« ميلي، هلا جئتني بالأوراق ؟ »

خرجت الآنسة براش، وعادت. وضعت أوراقاً على المائدة؛ واخرج هيو قلمه الحبر؛ قلمه الحبر الفضي، قائلاً وهو يبرم الغطاء وينزعه إنه أدى خدمة مدة عشرين سنة ولايزال القلم على أكمل حال، فقد عرضه على المجهزين فقالوا ليس هناك ما يوجب أن يستهلك هذا القلم على الأطلاق، مما يعود الفضل فيه الى هيو بشكل ما، كما يعود الى العواطف التي يعبر عنها القلم (هكذا شعر ريتشارد دالاواي) إذ بدأ يكتب بعناية حروفاً كبيرة مع دوائر حولها في الهامش، وبذلك اختزل تعقيدات الليدي بروتون اختزالاً رائعاً الى شيء معقول، اختزله الى قواعد لغوية لا بد من أن يحترمها محرر

التايمز، كما شعرت الليدي بروتون، وهي ترقب هذا التحول الرائع. هيو بطيء. هيو شديد التدقيق. قال ريتشارد لا بد من المجازفة. اقترح هيو تعديلات احتراماً لمشاعر الناس فقال على نحو قارص نوعاً ما حين ضحك ريتشارد « انها يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار » وقرأ : « ثم إننا لندين بالرأي القائل إنه قد آن الأوان... الشبان الذين يفيض عددهم عن اللزوم بين سكاننا المتزايدين على الدوام... فالذي ندين به للموتى ... » تعديلات حسبها ريتشارد جملاً كلها حشو ولغو لتملق الجمهور لكنها لا ضير فيها بالطبع، وهيو يواصل تسويد العواطف بتسلسل حروف الهجاء وعلى أنبل المستويات، نافضاً رماد السيجار عن صديريته، وموجزاً بين حين وحين مدى التقدم الذي بلغوه حتى قرأ، أخيراً، مسودة رسالة شعرت الليدي بروتون يقيناً انها مأثرة لا تضاهى. هل كان المعنى الذي أرادته يمكن أن يظهر هكذا ؟

لا يسع هيو أن يضمن نشرها؛ لكنه سيلتقي أحد المحررين على غداء.

وعندها شرعت الليدي بروتون، التي قلما تفعل شيئاً كريماً، بصرِّ كل قرنفلات هيو الى صدر فستانها، وبسطت يديها اليه تدعوه « رئيس وزرائي ! ». أما ما الذي تقوم به بدونهما فهو ما لا تعرفه. نهضوا وتمشى ريتشارد دالاواي كما هو معتاد ليلقي نظرة على لوحة الجنرال الزيتية، لأنه ينوي، اذا سنحت له لحظة فراغ واحدة، أن يكتب تاريخ أسرة الليدي بروتون.

وكانت ميليسينت بروتون فخورة جداً بأسرتها لكن بوسعهم الانتظار، بوسعهم الانتظار، قالت، وهي تتطلع الى اللوحة؛ وعنت أن أسرتها من الرجال العسكريين والاداريين وأُمراء البحر كانوا رجال فعل، وقد أدوا واجبهم؛ وإن أول واجب لريتشارد دالاواي هو تجاه بلاده، لكنه وجه رائع في اللوحة، قالت، وكل الأوراق جاهزة لريتشارد في أولد ميكستون حينما يحل الوقت؛ وقصدت حكومة العمال. صاحت : « آه، ما أفظع الأنباء الواردة من الهند ! »

عندئذ، وإذ وقف الرجلان في الردهة يتناولان قفازاتهما الصفراء من الوعاء المقعر الموضوع على طاولة من معدن الملكيت وهيو يقدم الى الآنسة براش مجاملات لا داعي لها أبداً فتتقزز منها من أعماق قلبها ويحمر وجهها محتقناً بلون القرميد، التفت ريتشارد الى الليدي بروتون، وقبعته بيده، وقال:

«سوف نراك في حفلتنا الليلة ؟ »، وعندها استأنفت الليدي بروتون روعتها التي شتتتها كتابة الرسالة الى التايمز. إنها قد تأتي؛ أو قد لا تأتي. كلاريسا ذات حيوية رائعة. الحفلات تفزع الليدي بروتون. لكنها تتقدم في السن. هكذا أوحت وهي تقف في عتبتها؛ وسيمة؛ منتصبة القامة تماماً؛ بينما يقعي كلبها الصيني خلفها وتتوارى الآنسة براش ويداها مليئتان بالأوراق.

وصعدت الليدي بروتون متفكرةً، وعلى نحو مهيب، الى غرفتها، فاستلقت، وإحدى ذراعيها ممدودة على الأريكة. تنهدت، شخرت، لا لأنها نائمة، بل وسنانة ومثقلة، وسنانة ومثقلة، كحقل من برسيم في الشمس في هذا اليوم الحزيراني الحار، والنحل يجوب والفراشات الصفر. إنها تعود دائماً إلى تلك الحقول هناك في ديفونشاير، حيث كانت تقفز فوق الجداول على مهرتها، مع مورتيمور وتوم، أخويها. وهناك الكلاب؛ هناك الفئران؛ هناك أمها وأبوها على مرج العشب الأخضر تحت الأشجار، وأواني الشاي موضوعة أمامهم، وألواح زهور الداليا، والخطمي، والحشائش المترامية؛ وهم، الأوغاد الصغار، يقومون دائماً بعمل من أعمال العفاريت ! يتسللون راجعين خلال الأكمة لئلا يراهم أحد وقداتسخوا كلياً بالوحل. لطالما عزرتها المربية العجوز بشأن ملابسها !

وتذكرت فجأة ـ أن اليوم هو الأربعاء في شارع بروك. وهذان الزميلان الطيبان اللطيفان، ريتشارد دالاواي وهيو ويتبريد قد أتيا في هذا اليوم الحار عبر الزحام الذي يتصاعد ضجيجه اليها وهي مستلقية على الأريكة. السلطة كانت ملكها، والمركز، والمال. لقد عاشت في واجهة

زمانها. وكانت قد تعرفت على أصدقاء طيبين؛ وعرفت أكفأ رجال عصرها. إن لندن المغمغمة تفيض صعداً اليها، بينما يدها وهي تستقر على ظهر الأريكة قد انقبضت على صولجان ما خيالي كالذي ربما أمسكه أجدادها، فبدت إذ أمسكت به، وهي وسنانة ومثقلة، وكأنها تقود أفواج الجند، الى كندا، وهذان الزميلان الطيبان يسيران عبر لندن التي هي أرضهم وعبر تلك القطعة الصغيرة منها الشبيهة بقطعة من سجاد « مي فير ».

وإنهما ليذهبان أبعد فأبعد عنها، وقد رُبطا بها بخيط رفيع (لأنهما قد تغديا معها) سيمتد ويمتد، ويغدو أرفع فأرفع إذ هما يسيران عبر لندن؛ حتى لكأن أصدقاء المرء يربطون ببدنه، بعد الغداء معهم، بخيط رفيع (وهي تأخذها الآن سنة من النوم) يضحى أغبش بصوت الأجراس وهي تدق لتعلن الساعة أو لتدعو الى الصلاة، كخيط العنكبوت تشبعه قطرات المطر، وما أن يُثقل عبؤه حتى يرتخي ساقطاً. هكذا استسلمت للنوم.

أما ريتشارد دالاواي وهيو ويتبريد فقد تلكآ عند ركن شارع كوندويت في اللحظة نفسها التي أتاحت بها ميليسينت بروتون، وهي مستلقية على الأريكة للخيط أن ينقطع؛ فشخرت. ثمة تيارات متناقضة تقارعت في ركن الشارع. لقد تطلعا الى واجهة مخزن؛ إنهما لا يرغبان بشراء أو بكلام، بل يرغبان بافتراق، على أنهما توقفا والتيارات المتناقضة تتقارع في ركن الشارع، يتخللها نوع من الانحلال في دفقات الجسد، توقفا وهما قوتان تلتقيان ثم تفترقان في دوامة، صباح مساء. بعض اعلانات الصحف تطايرت في الهواء، بازدهاء، كأنها طائرات ورقية أولاً، ثم ثبتت وانقضّت ورفرفت؛ تدلت غلالة احدى السيدات. ترجرجت مظلات النوافذ الصفر وتباطأت حركة المرور عما كانت عليه في الصباح، وعربات الجر المنفردة تقعقع بعدم اكتراث في شوارع شبه خالية. أما في نورفوك، التي كان ريتشارد دالاواي يفكر فيها قليلاً، فإن ريحاً دافئة ناعمة كانت تحمل في هبوبها التويجات؛ وتخبط المياه؛ وترقرق الحشائش المزهرة. وأما شغيلة القش،

الذين انطرحوا أرضاً تحت أسيجة الوشيع لازالة كد الصباح بالنوم، فقد فَرقوا سُجُفاً من أوراق العشب الأخضر؛ أزاحوا كريوات راعشة عن بقدونس البقر ليروا السماء؛ سماء الصيف الزرقاء، الراسخة، المتقدة.

تطلع ريتشارد الى كوز فضي ذي مقبضين من العصر اليعقوبي، وأبدى هيو ويتبريد إعجابه بترفع، وبسمت الذواقة، بقلادة إسبانية وهو يفكر في الاستفسار عن سعرها عسى أن ترغب فيها إفلين ـ لكن ريتشارد كان رغم تطلعه متبلداً؛ لم يستطع التفكير أو الحركة. إن الحياة قد قذفت بهذا الحطام؛ واجهات مخازن مليئة بمعجنات ملونة، فيقف المرء، وهو يلقي بنظره عليها، متخشباً كالأموات بتكاسل الشيوخ، متصلباً بتحجر الشيوخ. لعل افلين ويتبريد تود شراء هذه القلادة الاسبانية ـ فليكن. أما تثاؤبه فلا بد منه. دخل هيو المخزن.

قال ريتشارد وهو يتبعه : « حسناً فعلت ! » والله يعلم انه لا يريد أن يذهب ليشتري قلائد مع هيو. لكن هناك دفقات في الجسد. الصباح يلاقي العصر. والجد الأعلى لليدي بروتون ومذكراته وحملاته في شمالي أمريكا قد ولدت مثل زورق صغير واهن في طوفان عميق، عميق، فانغمرت وغرقت. وميليسينت بروتون ايضاً. غرقت. ريتشارد لا يعبأ قيد أنملة بما تؤول اليه الهجرة، ولا بشأن الرسالة، سواء نشرها المحرر أو لم ينشرها. القلادة تتدلى بامتداد بين أنامل هيو الرائعة. فليعطها الى بنت، إن كان لا بد له أن يشتري الجواهر ـ أي بنت، أي بنت في الشارع. ذلك أن تفاهة هذه الحياة تصدم ريتشارد بشدة ـ شراء هيو قلائد لافلين. لو كان عنده ولد لقال : إعمل. لكن عنده حبيبته اليزابيث؛ إنه يهيم بحبيبته اليزابيث.

قال هيو بطريقته الجافة المسرفة في رصف الكلمات : « إني اود أن اقابل السيد دوبونيه » فالظاهر أن دوبونيه هذا لديه مقاسات رقبة السيدة ويتبريد، أو أنه يعرف، وهذا أكثر غرابة، آراءها في المصاغ الاسباني ومدى مقتنياتها منه (وهو ما لا يتذكره هيو). كل هذا بدا لريتشارد دالاواي

بمنتهى الغرابة. ذلك أنه لم يقدم هدايا الى كلاريسا ابداً، عدا سوار واحد قبل سنتين او ثلاث، ولم يكن موفقاً. إنها لم تلبسه ابداً. آلمه أن يتذكر أنها لم تلبسه ابداً. ثم تسلط الآن ذهن ريتشارد، وقد أبل من خدره الكسول، على زوجته مثل خيط العنكبوت، بعد أن يترنح هنا وهناك ويتعلق برأس ورقة، على زوجته كلاريسا التي كان پيتر ولش قد شغف بحبها، كانت قد تراءت لريتشارد رؤية مفاجئة عنها هناك على الغداء، عن نفسه وكلاريسا؛ عن حياتهما معاً؛ فسحب دُرْج المجوهرات القديمة نحوه وسأل وهو يتناول أولاً هذا الدبوس، ثم ذاك الخاتم : « كم سعر هذا ؟ »، لكنه لا يطمئن لذوقه. إنه يريد أن يفتح باب صالة الاستقبال ويدخل حاملاً شيئاً هدية الى كلاريسا، ولكن ماذا ؟ غير أن هيو وقف على قدميه مرة أخرى. إنه منتفخ الأوداج بشكل لا يوصف. حقاً فهو بعد تعامله هنا مدة خمس وثلاثين سنة لن يثنيه عما يريد صبي لا يعرف عمله. ذلك أن دوبونيه خارج المخزن على ما يظهر، وهيو لن يشتري شيئاً الى أن يحضر دوبونيه بقضه وقضيضه؛ وعندها احمر الشاب خجلاً وانحنى انحناءة صغيرة أصولية. كل شيء كان أصولياً على وجه الكمال. ومع هذا، ما كان يسع ريتشارد أن يقول ذلك القول مهما كان السبب ! انه لا يستطيع أن يفهم فيم يتقبل الناس تلك العجرفة اللعينة. إن هيو أخذ يصبح حماراً لا يطاق. ريتشارد دالاواي لا يستطيع أن يحتمل صحبته أكثر من ساعة واحدة. ما أن نقر ريتشارد على قبعته العالية علامة التوديع حتى استدار عند ركن شارع كوندويت تواقاً، أجل، تواقاً جداً، الى أن يسير على ذلك الخيط من خيوط العنكبوت الذي يربط بينه وبين كلاريسا؛ إنه سيذهب اليها مباشرة، في حي ويستمنيستر .

لكنه أراد أن يذهب الى المنزل وهو يحمل شيئاً. أزهار ؟ نعم، أزهار، ما دام لا يثق بذوقه في الذهب؛ أي عدد كان من الأزهار، أو الورد، أو الأوركيد، للاحتفال بما هو بمثابة حدث، إذا جاز القول؛ هذا الشعور بها الذي اعتراه حين تكلموا عن پيتر ولش على الغداء؛ وريتشارد وكلاريسا لم يتكلما عن ذلك قط؛ لم يتكلما عن ذلك منذ سنين؛ فقال في

خاطره، وهو يمسك بالورود الحمر والبيض معاً (باقة كبيرة ملفوفة بورق شفاف)، إن ذلك هو أكبر خطأ في العالم، إذ يأتي وقت لا يمكن فيه التصريح؛ يبلغ الخجل بالمرء درجة لا يستطيع معها التصريح، هكذا دار في خلده، وهو يدس في جيبه القروش التي ردتها اليه العاملة، متجهاً، وهو يمسك بباقته الكبيرة لصق جسده، نحو ويستمينستر ليقول بالحرف الواحد (ولتظن به ما تظن)، وهو يحمل أزهاره : « أحبك ». لِمَ لا ؟ حقاً انها لمعجزة اذ يفكر في الحرب، وفي الآلاف من المساكين الذين جرفتهم جرفاً والحياة بأسرها أمامهم، وهم الآن شبه منسيين؛ انها لمعجزة. ها هو يسير عبر لندن ليقول لكلاريسا بالحرف الواحد إنه يحبها. القول الذي لا يقوله المرء أبداً، هكذا دار في خلده؛ فالمرء كسلان من جهة؛ والمرء خجول من جهة. وكلاريسا ـ من الصعب التفكير فيها؛ إلا في نوبات، كما على الغداء اليوم، حين رآها بوضوح تام؛ رأى حياتهما بأسرها. توقف عند نقطة العبور؛ وكرر مع نفسه ـ لأنه بسيط بالسليقة، ولم يفسده الفجور، لأنه كان قد تشرد، كان قد أطلق النار مقاتلاً؛ لأنه تصونه بساطته ومع هذا فهو في الوقت ذاته أضحى سكوتاً نوعاً ما، جافاً نوعاً ما ـ كرر مع نفسه إنها لمعجزة أن يتسنى له الزواج بكلاريسا؛ معجزة ـ دار في خلده أن حياته كانت معجزة؛ وتردد في عبور الشارع. لكن الذي جعل دمه يغلي هو أن يرى مخلوقات صغيرة في الخامسة او السادسة تعبر بيكاديللي وحدها. كان ينبغي للشرطة إيقاف المرور فوراً، أجل، إنه يجمع الأدلة عن سوء تصرفاتهم؛ ولا يسمح لباعة الخضار المتجولين هؤلاء، بإيقاف عرباتهم في الشوارع؛ والبغايا، يا لطيف، فالخطأ ليس فيهم، ولا حتى في الشباب، بل في نظامنا الاجتماعي البغيض ووو؛ كل هذا تفكر فيه، وهو يبدو للناظرين متفكراً، أشيب، عنوداً، أنيقاً، نظيفاً، وهو يسير عبر المتنزه ليقول لزوجته إنه يحبها.

ذلك انه سيقولها بالحرف الواحد، حين يدخل الصالة. فإن ما يؤسف له كل الأسف ألا يقول المرء أبداً ما يشعر به، هكذا دار في خلده، وهو

يعبر متنزه غرين ويرقب بحبور أُسراً بأجمعها تجلس في ظلال الأشجار، أسراً فقيرة، تنتشر مستلقية على الأرض؛ أطفالاً يرفسون بأقدامهم؛ يرضعون؛ أكياس الورق ترمى هنا وهناك، ويمكن بسهولة أن يجمعها (لو يعترض الناس) أحد هؤلاء البدينين ببزات الخدمة وأحدهم كأنه من الذوات؛ ذلك ان من رأيه فتح كل متنزه، وكل ميدان للأطفال في أشهر الصيف (حشائش المتنزه تضيء وتخبو، منيرة الأمهات الفقيرات من حي ويستمنستر وصغارهن يحبون، فكأن سراجاً أصفر يحرك من اسفل العشب). لكن ما الذي يمكن عمله للمتشردات من مثل تلك المخلوقة المسكينة، وقد تمددت على ساعدها (كأنها قد ألقت بنفسها على الأرض القاء، فتخلت عن الأواصر كلها، لترقب بفضول، لتتكهن بجسارة، لتتفكر في الأسباب والمسببات، حمقاء مرتخية الشفتين، فكهة)، هذا ما لا يعرفه. تقرب ريتشارد دالاواي، وهو يحمل أزهاره كأنها سلاح، منها؛ وتجاوزها بتصميم تام؛ مع هذا كان هناك وقت لاندلاع شرارة بينهما ـ ضحكت لمشهده، فابتسم بطيبة قلب، آخذاً بنظر الاعتبار مشكلة المتشردات؛ لم يكن غرضه أن يتكلما أبداً. لكنه سيخبر كلاريسا أنه يحبها، وسيقولها بالحرف الواحد. لقد كان فيما مضى يغار من بيتر ولش؛ وهذا شيء صحيح على ما هو واضح، لمعرفته كلاريسا؛ فإنها تطلبت العون، لا لأنها ضعيفة، لكنها تطلبت العون.

دار في خلده وَهو يسير قرب قصر بكنغهام أنه بالنسبة الى البناء (كأنه مغنية الأوبرا الأولى تواجه الجمهور متشحةً بالبياض) فإنك لا تستطيع أن تنكر عليه جلالاً معيناً، كما لا تستطيع ازدراء الرمز الذي يمثله لملايين الناس على كل حال (جمهور صغير ينتظر عند البوابة لمشاهدة خروج الملك) مهما كان هذا الرمز أخرق؛ ودار في خلده أن طفلاً يستطيع أن يبني شيئاً أفضل منه بعلبة من طابوق الألعاب؛ ونظر الى النصب التذكاري للملكة فكتوريا (التي يتذكرها بنظاراتها السميكة وهي تمر في عربتها في شارع كنسينغتون)، بجوادها الأبيض وأُمومتها المتماوجة؛ لكنه يحب أن

تحكمه سلالة هورسا؛ يحب الاستمرار؛ ويحب الاحساس بانتقال تقاليد الماضي إرثاً من جيل الى جيل. إنه لعصر عظيم هذا الذي يعيش فيه حقاً، بل إن حياته ذاتها معجزة؛ عليه ألا يغفل عن ذلك؛ ها هو، بأوج الحياة، يسير الى بيته في ويستنميستر ليخبر كلاريسا أنه يحبها. دار في خلده أن هذه هي السعادة.

قال إنها لهذه، ودخل ساحة دينزيارد. كانت بيغ بن قد بدأت تدق، أولاً النذير، موسيقياً؛ ثم الساعة، لا مسترد لها. ودار في خلده أن مآدب الغداء تبدد وقت الظهيرة بأسره، قالها في خاطره وهو يقترب من داره.

ملأ صوت بيغ بن غرفة جلوس كلاريسا، حيث جلست الى طاولة الكتابة وهي بمنتهى الانزعاج، قلقةً؛ منزعجة. صحيح، إنها لم تدع إيلي هندرسون الى حفلتها؛ لكنها فعلت ذلك عن قصد. والآن كتبت المسز مارشام تقول : « أخبرت إيلي هندرسون أني سأطلب من كلاريسا ـ إيلي ترغب جداً في الحضور ».

لكن لماذا يجب عليها أن تدعو كل النساء الثقيلات الدم في لندن الى حفلاتها ؟ لماذا يجب على المسز مارشام أن تتدخل ؟ وها هي اليزابيث هناك مختلية طول هذا الوقت مع دوريس كيلمان. إنها لا تستطيع أن تتخيل شيئاً مقززاً أكثر من هذا. أداء الصلاة في هذه الساعة مع تلك المرأة. وصوت الجرس يملأ الغرفة بموجته السوداوية التي تراجعت ثم جمعت نفسها لتسقط مرةً أخرى، حين انتبهت وهي تسمع شيئاً يخبط على الباب. من في هذه الساعة ؟ إنها الثالثة، يا للويل ! الثالثة أصلاً ! ذلك ان الساعة دقت الثالثة بصراحة وحشمة غامرتين؛ ولم تسمع شيئاً آخر؛ لكن مقبض الباب يدور ودخل ريتشارد ! يا لها من مفاجأة ! دخل ريتشارد يمد يده بباقة زهور. لقد خانته، مرةً في اسطنبول؛ والليدي بروتون، التي يقال إن مآدب الغداء لديها مؤنسة بشكل فائق، لم تدعها. كان يمد يده بباقة زهور ـ من الورد، الورد الأحمر والأبيض. (لكن نفسه لم تطاوعه أن يقول إنه يحبها؛ ليس بالحرف الواحد).

قالت وهي تتناول أزهاره : ما أروعها. لقد فهمت؛ فهمت دون أن يتكلم؛ حبيبته كلاريسا. وضعت الورد في مزهريات على رف الموقد. قالت ما أروعها. وسألته : هل كان الغداء مؤنساً ؟ وهل تفقدتها الليدي بروتون ؟ بيتر ولش قد عاد. المسز مارشام قد كتبت. هل يجب أن تدعو إيلي هندرسون ؟ وتلك المرأة كيلمان في الطابق العلوي.

قال ريتشارد: «لكن دعينا نجلس خمس دقائق». إن كل شيء بدا خاوياً جداً. كل المقاعد مصفوفة على الجدار. ما الخبر؟ أوه، إنها من أجل الحفلة؛ لا، انه لم ينس الحفلة. بيتر ولش قد عاد. أوه نعم كان عندها. سيستحصل على طلاق؛ انه مغرم باحدى النساء هناك. وهو لم يتغير بأي شكل. انها كانت هنا، جالسة ترفو فستانها.

قالت: «أُفكر في بورتون».

قال ريتشارد: «كان هيو على الغداء». لقد التقته هي أيضاً! حسناً. إنه لا يطاق على الاطلاق. يشتري قلائد لافلين؛ أسمن من أي وقت مضى، حمار لا يطاق.

قالت: «هممت أن أقول لبيتر إني ربما كنت أتزوجك»، وهي تفكر فيه يجلس أمامها بربطة عنقه الفراشة، بتلك السكين يفتحها ويغلقها. وأردفت: «تماماً كما كان دائماً، على ما تعرف ».

قال ريتشارد كانوا يتحدثون عنه أثناء الغداء، (لكنه لم يستطع أن يخبرها أنه يحبها، أمسك بيدها. دار في خلده أن هذه هي السعادة). كانوا يكتبون رسالة الى التايمز لميليسينت بروتون. وهذا هو كل ما يصلح له هيو تقريباً.

سأل: «وعزيزتنا الآنسة كيلمان؟» وتراءى لكلاريسا أن الورود رائعة كل الروعة؛ مشبوكة في البداية؛ والآن تتفرق عن بعضها من ذاتها.

قالت: «وصلت كيلمان فور انتهائنا من الغداء. احمر لون اليزابيث فانصرفتا الى خلوتهما. أظنهما تصلّيان».

يا ساتر! لم يرق له ذلك؛ لكن هذه الأمور تنتهي بسلام اذا أتحتَ لها الفرصة.

قالت كلاريسا: «بالمعطف المطري والمظلة».

لم يقل «احبك»؛ لكنه أمسك بيدها. فكر: ان السعادة هي هذه.

قالت كلاريسا: «لكن لِمَ يجب أن أدعو كل النساء الثقيلات الدم في لندن الى حفلاتي؟ لو أن المسز مارشام أقامت حفلة فهل تدعو جماعتي؟».

قال ريتشارد: «إيلي هندرسون المسكينة» ـ ودار في خلده أن مدى اهتمام كلاريسا بحفلاتها هو شيء غريب جداً.

لكن ريتشارد لا يعرف شيئاً عن المظهر الذي تكون عليه الصالة. مع ذلك ـ ما الذي أراد أن يقول؟

اذ اقلقتها هذه الحفلات فإنَّه لن يسمح لها بأن تقيمها. هل كانت ترغب لو أنها تزوجت پيتر؟ لكن عليه أن يذهب.

قال وهو ينهض، يجب أن أروح. لكنه وقف هنيهةً كأنه يوشك أن يقول شيئاً؛ فتساءلت في نفسها ترى ماذا؟ كانت الورود هناك.

سألته وهو يفتح الباب: «لجنة من لجانكم؟»

(قال: «عن الأرمن». او لعله قال «الألبان»؟)

ثمة حشمة في الناس؛ عزلة؛ هوة حتى بين الزوج وزوجه؛ دار في خلد كلاريسا وهي ترقبه يفتح الباب أن على المرء أن يحترم ذلك؛ لأن مثل ذلك لا ينبغي أن يفارق المرء، او أن يغصبه على الزواج غصباً، وإلا خسر المرء استقلاله، احترامه لنفسه ـ شيء لا يثمن، على أية حال.

عاد ريتشارد حاملاً وسادة وملحفاً.

قال: «ساعة من الراحة الكاملة بعد الغداء». وانصرف.

ما أشبه هذا به! إنه سيستمر مردداً: «ساعة من الراحة الكاملة بعد الغداء» الى نهاية الزمان، لأن طبيباً كان قد أمر ذات مرة بذلك. ما اشبه هذا به أن يأخذ ما يقوله الأطباء حرفياً؛ جزء من بساطته المحبوبة الرائعة

التي لا يمتلكها أي امرىء بالدرجة نفسها؛ التي تجعله يذهب فيفعل الشيء الذي يريد في حين أنها وپيتر يبددان وقتهما بالمشاجرات. إنه الآن في طريقه الى مجلس العموم، ذاهباً الى شؤونه التي تخص الأرمن او الألبان، بعد أن جعل كلاريسا تستقر على الأريكة لتستريح، وهي تنظر الى وروده. والناس يقولون: «كلاريسا دالاواي مدللة حتى الافساد». إنها تهتم بنفسها اكثر بكثير مما تهتم بالأرمن. لقد أزيلوا من الوجود، شوّهوا، جُمّدوا، ضحايا القسوة والظلم (سمعت ريتشارد يقول هذا المرة تلو المرة) ـ كلا، إنها لا تستطيع أن تشعر بشيء من أجل الألبانيين، أم أنهم الأرمن؟ لكنها تعشق ورودها (ألا يساعد ذلك الأرمن؟) ـ الزهور الوحيدة التي تحتمل رؤيتها مقصوصة. لكن ريتشارد هو في مجلس العموم الآن؛ في لجنته، بعد أن سوّى كل صعوباتها. لكن لا؛ يا للأسف، هذا غير صحيح، إنه لم يدرك الأسباب ضد دعوة ايلي هندرسون. بوسعها أن تدعوها، بالطبع، كما رغب هو بذلك. وبما أنه قد جلب الوسادة، فإنها ستستلقي... لكن ـ لكن ـ لماذا تشعر بغتةً، بلا سبب يمكنها اكتشافه، انها تعيسة بشكل يائس ؟ وكشخص أسقط قيراطاً من لؤلؤ أو من ماس في الحشائش فهو يفرق أوراقها الطويلة بعناية تامة، لهذه الجهة وتلك، فيبحث هنا وهناك عبثاً، حتى يرصده أخيراً هناك عند الجذور، وهكذا انتقلت هي تمحّص الأمور من شيء الى آخر؛ لا، ليس الأمر هو كلمة سالي سيتون إن ريتشارد لن يبلغ الوزارة أبداً لأن مخه من المرتبة الثانية (عاد ذلك اليها)؛ لا، إنها لا تعبأ لذلك كما ان الأمر لا علاقة له حتى باليزابيث ودوريس كيلمان؛ فهذه حقائق. انه شعور، شعورٌ ما غير لطيف ربما حصل لها في أول النهار؛ شيء قاله پيتر، له صلة بكآبتها، حصل لها في غرفة نومها، وهي تخلع قبعتها؛ وما قاله ريتشارد قد أضاف اليه، لكن ما الذي قاله ؟ وها هي وروده. حفلاتها ! ذلك هو الأمر ! حفلاتها. كلاهما انتقدها بلا إنصاف، كلاهما ضحك منها ظلماً وعدواناً من جراء حفلاتها. ذلك هو الأمر ! ذلك هو الأمر !

حسناً، كيف ستدافع عن نفسها ؟ الآن وقد عرفت السبب فإنها شعرت بالسعادة تماماً. إنهما يظنان، أو أن پيتر يظن على كل حال أنها تستمتع بفرض نفسها على الآخرين؛ تحب أن تحيط نفسها بالمشاهير؛ بالأسماء العظيمة؛ وأنها باختصار محض متنفجة. حسناً، پيتر قد يظن هكذا. أما ريتشارد فهو يرى أن من الحماقة ان تحب الاثارة في حين أنها تعلم أن ذلك يضر بقلبها. وهو يظن أن الأمر صبياني. وكلاهما مخطىء. فالذي تحبه هو محض الحياة.

«لذلك أقوم بما أقوم به»، وقالتها جهاراً تخاطب الحياة.

وبما أنها كانت مستلقية على الأريكة، معزولة، حصينة، فإن حضور هذا الشيء الذي شعرت بوضوحه كل الوضوح قد غدا قائماً بصورة مادية؛ مع سجف من أصداء الشارع، مشمسة، حارة الأنفاس، هامسة، تحرك بهبوبها الستائر. لكن لو فرضنا أن پيتر قال لها « نعم، نعم، لكن حفلاتك - ما جدوى حفلاتك ؟ » فكل ما تستطيع قوله هو (دون أن تتوقع من أحد أن يفهم) : إنها قربان؛ مما يبدو غامضاً بصورة شنيعة. لكن، من هو پيتر حتى يتصور أن الحياة هي بأسرها طريق سهل معبد ؟ إن پيتر مغرم على الدوام، ومغرم على الدوام بالمرأة الخطأ. قد تقول له : ما هو حبك ؟ وهي تعرف جوابه؛ كيف أنه أهم شيء في الدنيا وما من إمرأة يمكن أن تفهمه. حسن جداً. لكن هل يستطيع أي رجل أن يفهم ما الذي تعنيه هي أيضاً ؟ بشأن الحياة ؟ إنها لا تستطيع أن تتصور پيتر أو ريتشارد وقد احتمل عناء إقامة حفلة بلا سبب على الاطلاق.

ولكن، لو أنها ذهبت إلى أعمق من هذا، الى تحت ما يقوله الناس (وإنها لأحكام سطحية ومتناثرة !) باحثةً الآن في ذهنها بالذات، فما الذي يعنيه لها هذا الشيء الذي تسميه الحياة ؟ أوه، إنه لشيء غريب جداً. فها هو فلان أو فلانة في ساوث كينسيغتون، أو في بيز ووتر أو قل في حي مَيْ فير. وانها لتشعر بوجودهم باستمرار؛ وانها لتشعر بفداحة التبديد؛ وانها لتشعر بفداحة ما يرثى له؛ وإنها لتشعر لو أنهم يمكن أن يجمعوا فقط

بعضهم مع بعض؛ هكذا تشعر فعلاً. وإنه لقربان؛ أن تجمع، أن تخلق؛ لكن لمن ؟

قربان. وربما من أجل القربان. على العموم هذه هي تقدمتها. ليس لديها ما تقدمه غير ذلك مما ليست له أية أهمية. فهي لا تستطيع التفكير، ولا الكتابة، ولا حتى العزف على البيانو. وهي تخلط بين الأرمن والأتراك؛ تحب النجاح؛ تكره التعب؛ تريد أن يحبها الناس؛ تهرف بطوفان من الهراء : وإذا سألتها ما هو خط الأستواء فإنها لا تعرف جواباً حتى يومنا هذا.

مع ذلك فإن يوماً يتبع الآخر؛ الأربعاء، الخميس، الجمعة، السبت؛ يفيق المرء في الصباح؛ يرى السماء؛ يسير في المتزه؛ يلتقي هيو ويتبريد؛ ثم يدخل پيتر على حين غرة؛ ثم هذه الورود؛ هذا يكفي. وبعدها فما أبعد الموت عن التصديق! ـ لا بد للحياة من نهاية؛ ولن يعلم أحد في الدنيا بأسرها الى أي مدى قد أحبت الحياة بكل ما فيها؛ كيف أن كل لحظة منها. . .

انفتح الباب. اليزابيث تعرف ان أُمها كانت تستريح. دخلت بهدوء تام. وقفت بمنتهى السكون. هل أحدٌ من المنغوليين كانت قد تحطمت سفينته على ساحل نورفوك (كما تقول المسز هيلبيري)، فاختلط بنساء آل دالاواي، ربما قبل مئة عام، ذلك أن آل دالاواي، على العموم شقر، زرق العيون؛ بينما اليزابيث، على العكس، سمراء؛ ذات عينين صينيتين في وجه شاحب، إنها لغز شرقي، لكنها مع ذلك رقيقة ومتفهمة. كانت فيها وهي طفلة روح نكتة مثالية؛ أما الآن وفي السابعة عشرة، فإنها غدت جادة جداً، ولا تستطيع كلاريسا أن تفهم السبب بأية صورة من الصور؛ كأنها زنبقة مكللة باخضرار لماع ذات براعم تلونت تواً، زنبقة لم تقع عليها أشعة الشمس.

وقفت ساكنة تماماً ونظرت الى أُمها، لكن الباب منفرج قليلاً، وخارج الباب تقف الآنسة كيلمان، كما تعرف كلاريسا؛ الآنسة كيلمان

بمعطفها المطري وهي تسترق السمع لما تقولان.

أجل، الآنسة كيلمان تقف في صحن السلم بمعطفها المطري؛ لكن لديها أسبابها. اولاً، إنه رخيص الثمن؛ ثانياً، إنها تجاوزت الأربعين؛ وهي على أية حال لا تلبس لكي تسر الناظرين. وهي فضلاً عن ذلك فقيرة؛ فقيرة بشكل مهين. وإلا لما كانت تتقبل اعمالاً من أُناس من أمثال آل دالاواي؛ من أُناس أغنياء يريدون أن يكونوا لطفاء. وإنصافاً كان السيد دالاواي لطيفاً. أما السيدة دالاواي فلا. إنها محض متلطفة بترفع. إنها تنحدر من أحط الطبقات طراً ـ طبقة الأغنياء مع ثقافة سطحية. إن لديهم أشياء غالية الثمن في كل مكان: تصاوير، سجاداً، مع كثير من الخدم. وهي تعدّ أن لديها حقاً كاملاً في أي شيء قام به آل دالاواي من أجلها.

إنها كانت قد خُدعت. أجل، والكلمة ليست من المبالغة في شيء، أو ليس لفتاة الحق في نوع ما من السعادة ؟ وهي لم تكن سعيدة أبداً، فكيف بها وهي بمنتهى النشاز ومنتهى الفقر. ثم ما كادت فرصة في مدرسة المس دولبي توشك أن تسنح لها حتى جاءت الحرب؛ ولم تستطع أن تكذب ابداً. المس دولبي حسبتها تكون أسعد حالاً مع من يشاركونها رأيها بالألمان. كان لزاماً عليها أن تترك. صحيح أن العائلة من أصل الماني؛ كانت تتهجأ الاسم : كيهيلمان، في القرن الثامن عشر؛ لكن شقيقها كان قد قتل. لقد طردوها لأنها لا تتصنع الزعم بأن الألمان كلهم أوغاد ـ في حين أن لها أصدقاء ألمان، والأيام السعيدة الوحيدة في حياتها كانت قد قضتها في ألمانيا ! وعلى أية حال، فإنها تستطيع أن تدرّس التاريخ. كانت مضطرة الى أن تقبل بأي شيء تحصل عليه. لقد صادفها السيد دالاواي وهي تعمل مع « جمعية الأصدقاء » [الفريندز، المكرسة لأعمال المجتمع]. وقد أتاح لها (وكان ذلك كرماً منه حقاً) أن تدرس ابنته التاريخ. كذلك قامت بالقاء محاضرات على غير الجامعيين وما الى ذلك من أعمال، ثم وافاها الرب (وهنا تحني رأسها دائماً).

لقد رأت النور قبل سنتين وثلاثة اشهر. والآن فإنها لا تحسد نساء من أمثال كلاريسا دالاواي؛ إنها ترثي لهن.

إنها ترثي لهن وتحتقرهن من أعماق قلبها، إذ وقفت على السجاد الناعم، تنظر الى صورة من الحفر القديم لفتاة صغيرة بقفاز فراء. هل ثمة أمل بوضع أفضل للعالم، مع كل هذا الترف السائد ؟ انها بدلاً من الاضطجاع على أريكة ـ كانت اليزابيث قد قالت : «أُمي تستريح» ـ ينبغي أن تكون في مصنع؛ تقف وراء رف للخدمة؛ السيدة دالاواي وكل السيدات الناعمات الأخريات .

ولت الآنسة كيلمان، وهي تضمر الحقد والمرارة، وجهها الى كنيسة قبل سنتين وثلاثة أشهر. سمعت القس إدوارد ويتيكر يلقي موعظته؛ والصبيان يرتلون؛ ورأت النور المقدس يتنزل، وسواء أكانت هي الموسيقى أم أصوات الصبيان (إنها حين تكون وحدها في المساء تجد السلوى في آلة الكمان لكن صدى الصوت يعذبها أشد العذاب، إنها لا تتمتع بأُذن موسيقية) فإن المشاعر الحارة والعارمة التي تغلي فيها وتصطخب قد تبددت اذ جلست هناك فذرفت الدمع مدراراً، وذهبت تقابل المستر ويتيكر في منزله الخاص في كينزينغتون. قال: إنها يد الله. ان الرب قد أرشدها الى سواء السبيل. لذا فكلما غلت في باطنها المشاعر الساخنة والأليمة الآن، هذه الكراهية للسيدة دالاواي، هذه الضغينة على العالم، فإنها تفكر في الله. تفكر في المستر ويتيكر. الغضب يعقبه السكينة. إن مذاقاً حلواً يملأ عروقها، وشفتاها منفرجتان، وهي تنظر واقفة بجبروت في صحن السلم بمعطفها المطري، تنظر بسكينة حثيثة وشريرة الى السيدة دالاواي التي خرجت مع إبنتها.

قالت اليزابيث انها قد نسيت قفازها. هذا لأن الآنسة كيلمان وأُمها تكرهان بعضهما. اليزابيث لا تستطيع رؤيتهما معاً. هرعت تصعد الى الطابق الأعلى لتبحث عن قفازها.

لكن الآنسة كيلمان لا تكره السيدة دالاواي. انها ما أن أدارت عينيها الواسعتين الكشمشيتي اللون الى كلاريسا، ترقب وجهها الوردي الصغير، وجسدها اللدن، وسمتها المتسم بالرونق والموضة، حتى شعرت ولسان حالها يقول : يا مغفلة ! يا ساذجة ! أنت التي ما عرفت لا الحزن ولا الفرح؛ أنت التي بددت حياتك سدى ! هنالك انبعثت فيها رغبة متسلطة في التغلب عليها؛ في نزع قناعها. لو كان يسعها اسقاطها من عليائها اذن لأراحها ذلك. لكن الذي ترغب بمحقه ليس هو الجسد؛ بل الروح ومهزلتها؛ تمحقها وتجعلها تشعر بسيادتها عليها. لو أنها تستطيع فقط أن تجعلها تبكي؛ لو تستطيع تدميرها؛ اذلالها؛ اركاعها باكية. أنت على حق! لكن هذه هي ارادة الله، لا ارادة الآنسة كيلمان. انه سيكون انتصاراً دينياً. وهكذا حدقت؛ وهكذا حملقت.

صُدمت كلاريسا حقاً. أمسيحية هذه ـ المرأة هذه! المرأة هذه قد أخذت إبنتها منها! على صلة هي بغير المرئيات! مثقلة بالهم، قبيحة، عادية، بلا لطف أو حشمة، وتعرف معنى الحياة!

قالت السيدة دالاواي: «هل ستصطحبين اليزابيث الى المخازن؟».

فأجابت الآنسة كيلمان نعم. وقفتا في مكانهما. لا تريد الآنسة كيلمان أن تجعل نفسها مقبولة عندها. لقد كسبت رزقها دائماً. ومعرفتها التاريخ الحديث معرفة دقيقة الى أقصى حد. وهي تقتطع الكثير من دخلها الهزيل من اجل قضايا تؤمن بها، في حين أن هذه المرأة لا تقوم بشيء، لا تؤمن بشيء، وقد نشأت إبنتها على ـ لكن، ها هي اليزابيث، منقطعة الأنفاس نوعاً ما؛ الفتاة الحسناء.

فإذن هما ذاهبتان الى المخازن. وقفت الآنسة كيلمان هناك (وكان وقوفها وقوفاً بقوة غول وتكتمه، غول ما من مخلوقات ما قبل التاريخ مدرعاً لحرب بدائية) ويا للغرابة اذ تضاءلت فكرة كلاريسا عنها ثانية بعد ثانية، وتداعت كراهيتها لها (وهي كراهية أفكار لا أشخاص)، وشعرت

بأن هذه التي أمامها قد فقدت خبثها، وحجمها، وغدت ثانيةً بعد ثانية، الآنسة كيلمان لا اكثر، بالمعطف المطري، ويشهد الله أن كلاريسا كانت تود ان تساعدها.

وما أن تلاشى هذا الغول حتى ضحكت كلاريسا. ضحكت وهي تلقي بتحية الوداع. فانصرفتا معاً، الآنسة كيلمان واليزابيث، تنزلان السلالم.

وبانفعال مفاجيء، بمعاناة عنيفة، فهذه المرأة تأخذ ابنتها منها، انحنت كلاريسا على دربزين السلم وصاحت «تذكري حفلتنا الليلة!».

لكن اليزابيث كانت قد فتحت الباب الخارجي؛ ثمة شاحنة تمر؛ فلم تجب.

قالت كلاريسا في خاطرها، الحب والدين ! وعادت الى غرفة الجلوس تعتريها القشعريرة كلياً. ما أبعدهما عن الذوق، ما أبعدهما عن الذوق! والآن إذ لم يعد جسد الآنسة كيلمان أمامها فقد استبدت بها ـ الفكرة. قالت في خاطرها إنهما من أقسى ما في الدنيا، وهي تراهما على صحن السلم من المهلهلين، الغلاة، المتسلطين، المنافقين، المسترقين للسمع، الغيّارين، القساة غير المتحرجين الى أقصى الحدود، بمعاطف المطر. الحب والدين. هل حاولت هي أبداً أن ترد أحداً عن دينه ؟ ألم ترغب في أن يكون كل امرىء كما هو فقط ؟ ورقبت من النافذة السيدة العجوز قبالتها تصعد السلم الى الطابق العلوي. فلتصعد إن شاءت؛ فلتتوقف، ثم لتصل الى غرفة نومها كما رأتها كلاريسا كثيراً، فتفرق الستائر، وتختفي مرة أخرى. والمرء يحترم هذا على نحو ما ـ المرأة العجوز تتطلع من النافذة، غير واعية أنها مراقبة. ثمة شيء مقدس في هذا ـ لكن الحب والدين سيدمران هذا كائناً ما يكون، سيدمران خلوة الروح. ستدمره الآنسة كيلمان الكريهة. مع هذا كان مشهداً جعلها تريد أن تبكي.

الحب يدمر ايضاً. كل ما كان رائعاً قد ذهب، كل ما كان صادقاً قد

ذهب. خذ بيتر ولش الآن. كان ثمة رجل فاتن ذكي، ذو افكار عن كل شيء. اذا اردت أن تعرف عن پوپ مثلاً، أو أديسون، أو أردت فقط أن تهرف بأحوال الناس، أو بما تعنيه الأشياء، فبيتر هو أعرف الناس طراً.

كان بيتر هو الذي ساعدها؛ بيتر هو الذي أعارها الكتب؛ لكن أنظر الى النساء اللاتي يحبهن ـ مستهجنات، تافهات، عاديات. تأمل بيتر عاشقاً ـ لقد جاء يزورها بعد كل تلك السنين فما الذي تكلم عنه ؟ نفسه. عاطفة فظيعة! هكذا دار في خلدها. عاطفة مهينة! هذا ما دار في خلدها وهي تفكر في كيلمان وحبيبتها اليزابيث سائرتين الى مخازن الجيش والبحرية [المخازن الشعبية].

دقت بيغ بن نصف الساعة.

إنه لأمر استثنائي، وغريب، أجل، بل وعاطفي أن ترى كلاريسا السيدة العجوز (انهما جارتان من سنين عديدة طويلة) تترك النافذة، كما لو أنها مشدودة بذلك الصوت، بذلك الخيط. ورغم ضخامة الصوت إلا أن له علاقة ما بها. مضى عقرب الساعة يتساقط في خضم الأمور الاعتيادية، فيجعل من اللحظة الحاضرة لحظة مقدسة. وتصورت كلاريسا أن ذلك الصوت قد أجبر السيدة العجوز على أن تتحرك. أن تذهب ـ لكن إلى أين ؟ حاولت كلاريسا أن تتبعها اذ استدارت واختفت، وهي لا تزال ترى قبعها الأبيض يتحرك هنا وهناك في الطرف الآخر من غرفة النوم. فيم العقائد الدينية والصلوات ومعاطف المطر، في حين يتراءى لكلاريسا أن هذه هي المعجزة، هذا هو اللغز الغامض ؟ وعنت تلك السيدة التي تراها تنتقل من خزانة الحاجيات الى منضدة الزينة. إنها لا تزال تراها. واللغز الأعظم الذي لعل كيلمان تقول انها قد حلته، أو بيتر يقول انه قد حله، لكن كلاريسا لا تعتقد بأن أياً منهما لديه أبسط فكرة عن حله، اللغز الأعظم ببساطة هو هذا : ها هنا غرفة؛ وها هناك غرفة أخرى. هل حل الدين هذا، أو الحب ؟

الحب ـ لكن هنا دقت الساعة الأخرى، الساعة التي تدق متأخرة دقيقتين عن بيغ بن دائماً، فأتت تجرجر أقدامها وحجرها مليء بالشواغل الصغيرة المتفرقة، فأفرغته اعتذاراً كما لو أن توقيت بيغ بن هو على وفاق تام مع صاحب الجلالة وهو يشرع القانون بكل وقار، بكل عدالة، لكنها يجب أن تتذكر أموراً صغيرة من شتى الأنواع الى جانب ذلك ـ السيدة مارشام، إيلي هندرسون، أقداح للبوظة ـ دهمتها أمور صغيرة من شتى الأنواع تفيض وتتثنى وتتراقص في أعقاب تلك الدقة الوقور التي استقرت ملقاة كأنها قضيب من ذهب على البحر. السيدة مارشام، ايلي هندرسون، أقداح للبوظة. يجب أن تتلفن الآن فوراً.

الساعة المتأخرة رنت على نحو ذرب، مضطرب، وهي تدق في أعقاب بيغ بن، وحجرها مليء بالتوافه. وهذا الحجر المقهور، المنكسر بتهجم العربات، بقسوة الشاحنات، بالتحرك التواق الى ألوف الآلاف من الرجال المتجهمين، ومن النساء المتبرجات، بقباب وأبراج المكاتب والمستشفيات، هذا الحجر المليء بالشواغل الصغيرة المتفرقة تبدو بقاياه الأخيرة وكأنها تتكسر كالرذاذ فوق موجةٍ منهكة، على بدن الآنسة كيلمان وهي تقف ساكنة في الشارع لحظة لتغمغم : « إنه الجسد ».

إنه الجسد الذي يجب أن تسيطر عليه. كلاريسا دالاواي قد أهانتها. وهذا ما توقعته. لكنها لم تنتصر؛ لم تتغلب على الجسد. انها وهي القبيحة، المهلهلة، قد ضحكت منها كلاريسا دالاواي لكونها كذلك؛ فأحيت فيها شهوات الجسد، ذلك أنها لا ترضى ان تبدو كما بدت بجنب كلاريسا. ولا انها استطاعت أن تتكلم كما تكلمت كلاريسا. لكن فيم تتمنى التشبه بها ؟ لماذا؟ إنها تحتقر السيدة دالاواي من أعماق قلبها. فهذه ليست جدية. ليست طيبة. وحياتها نسيج من الغرور والخداع. مع هذا فإن دوريس كيلمان قد غُلبت. انها، في الواقع، أوشكت أن تجهش بالبكاء حين ضحكت منها كلاريسا دالاواي. « إنه الجسد. انه الجسد »، غمغمت

(فمن عادتها الجهر)، لتحاول كبح هذا الشعور العارم والأليم وهي تسير في شارع فكتوريا. توجهت بدعائها الى الله. لا حيلة لها في كونها دميمة؛ ولا مال لديها تشتري به الثياب الجميلة. لقد ضحكت كلاريسا دالاواي ـ لكنها ستركز تفكيرها في شيء آخر الى أن تصل الى صندوق البريد. إنها على كل حال قد حظيت باليزابيث. لكنها ستفكر في شيء آخر؛ ستفكر في روسيا؛ الى أن تصل الى صندوق البريد.

قالت لا بد من أن تكون الحياة لطيفة جداً في الريف، قالتها وهي تصارع، كما طلب اليها المستر ويتكر، تلك الضغينة على الدنيا، الضغينة التي أزرت بها، سخرت منها، استنبذتها، فأولاً هذا الشيء الذميم ـ أن تبتلي بجسد لا يحبه الناس ولا يطيقون رؤيته. انها كيفما صففت شعرها يظل جبينها كالبيضة، أصلع، أبلق. ما من ملبس يناسبها. وإن اشترت أي شيء. وهذا يعني بالطبع، بالنسبة الى امرأة، عدم لقاء الجنس الآخر إطلاقاً. إنها لن تأتي في المقدمة بنظر أي شخص كان. لقد بدا لها أحياناً في الفترة الأخيرة ان كل الذي تعيش من اجله وباستثناء اليزابيث، هو طعامها؛ راحتها؛ عشاؤها، شايها؛ كيسها من الماء الحار ليلاً. لكن على المرء ان يقاتل؛ أن يقهر؛ أن يؤمن بالله. كان المستر ويتيكر قد قال لها انها موجودة من أجل غرض. لكن، ما من أحد يعلم بالمعاناة ! وقال وهو يشير الى الصليب ان الله يعلم. لكن فيم يجب عليها هي أن تشقى في حين ان نساء غيرها، مثل كلاريسا دالاواي، ينجيَنَّ بجلدهن ؟ قال المستر ويتيكر إن العلم يتأتى من خلال الشقاء.

تجاوزت دوريس كيلمان صندوق البريد، واستدارت اليزابيث تدخل قسم التبغ البارد البني اللون في مخازن الجيش والبحرية بينما لا تزال هي تغمغم مع نفسها ما قاله المستر ويتيكر إن العلم يتأتى من خلال الشقاء والجسد. غمغمت تقول : « الجسد ».

قاطعتها اليزابيث تسأل أي قسم أرادت ؟

فقالت بغتةً : « التنورات »، وقصدت المصعد تسير بشموخ.

صعدتا، واليزابيث ترشدها الى هذه الجهة وتلك؛ ترشدها وهي في ذهولها كأنها طفلة ضخمة، سفينة حربية صعبة المراس. ها هي التنورات، بنية اللون، مزركشة، مقلمة، مهفهفة، صلدة، أو خفيفة؛ اختارت ما أرادت اختياراً عجيباً وهي في ذهولها، فظنتها البائعة مجنونة.

تساءلت اليزابيث في نفسها، وهم يغلفون الرزمة، ترى ما الذي كانت تفكر فيه الآنسة كيلمان ؟ قالت الآنسة كيلمان وهي تعود الى وعيها وتجمع أشتات نفسها عليهما أن تتناولا الشاي. فتناولتا الشاي.

تساءلت اليزابيث في نفسها ترى هل الآنسة كيلمان جائعة؟ إنما هذه هي طريقتها في الأكل، الأكل باستغراق، وهي تنظر المرة تلو المرة الى صحن من الحلوى الملبسة بالسكر على المائدة المجاورة لهما؛ عندئذ، ولما جلست سيدة وطفل فتناول الطفل الحلوى فهل أحست الآنسة كيلمان بالممانعة ؟ أجل، أحست الآنسة كيلمان بالممانعة فعلاً. إنها كانت تريد تلك الحلوى لها ـ القطعة الوردية اللون. فلذة الأكل تكاد تكون هي اللذة الوحيدة التي بقيت عندها، ثم اذا بها تُصدّ حتى عن هذا !

كانت قد قالت لاليزابيث ان الناس السعداء لديهم خزان احتياطي يرجعون اليه، في حين أنها هي كعجلة بدون إطار (مشغوفة هي بمثل هذه التشبيهات)، فيخضها الحصى خضاً ـ هكذا قالت ذات صباح ثلاثاء وقد تخلفت بعد الدرس، وهي تقف عند الموقد ومعها حقيبة كتبها، « جنطتها » كما تسميها، بعد انتهاء الدرس. وتكلمت أيضاً عن الحرب. الناس، على العموم، لا يرون جميعاً أن الانكليز على صواب دائماً.

ثمة كتب. واجتماعات. ووجهات نظر اخرى. هل تود اليزابيث ان تأتي معها للاستماع الى فلان الفلاني ؟ (شيخ ذو طلعة باهرة). ثم أخذتها الآنسة كيلمان الى كنيسةٍ ما في كينزينغتون فتناولتا الشاي مع أحد رجال الدين. وأعارتها الكتب. قالت الآنسة كيلمان ان القانون والطب

والسياسة وكل المهن مفتوحة للنساء من جيلك. أما بالنسبة اليها فإن مستقبلها المهني محطم كلياً، فهل هذا خطؤها ؟ قالت اليزابيث : يا الهي، لا.

وتأتي أُمها لتطل فتقول ان سلة كبيرة قد وصلت من بورتون فهل تريد الآنسة كيلمان شيئاً من الأزهار ؟ إنها دائماً لطيفة جداً، جداً، مع الآنسة كيلمان، لكن الآنسة كيلمان صفقت الأزهار جميعها صفقاً في باقة واحدة. فليس عندها مكان للسخافات، وما يثير اهتمام الآنسة كيلمان يضجر امها، فإذا كانتا معاً، الآنسة كيلمان وأمها، فهما فظيعتان، تنتفخ أوداج الآنسة كيلمان وتبدو دميمة جداً لكنها ذكية بشكل مخيف. واليزابيث لم تفكر في الفقراء أبداً. انهم في أسرتهم يعيشون بسعة وقد توفر لهم كل شيء مما يريدون ـ أُمها تتناول فطورها في سريرها يومياً؛ لوسي تحمله اليها الى الطابق العلوي؛ وأُمها تحب العجائز لأنهن من الدوقات، وينحدرن من سلالة لورد ما. لكن الآنسة كيلمان قالت (ذات صباح ثلاثاء من تلك الأيام حين يكون الدرس قد انتهى) : « جدي كان صاحب دكان في كينزينغتون ». إن الآنسة كيلمان تختلف كل الاختلاف عن أي شخصٍ تعرفه؛ انها تجعل المرء يحس صغيراً جداً.

تناولت الآنسة كيلمان كوباً آخر من الشاي. كانت اليزابيث، بسمتها الشرقي، بلغزها الغامض، تجلس منتصبةً تماماً، لا، انها لا تريد أن تتناول شيئاً آخر. بحثت عن قفازيها ـ قفازيها الأبيضين. كانتا تحت المائدة. آه، لكنها يجب ألا تذهب! الآنسة كيلمان لا يسعها أن تدعها تذهب ! هذا الشباب، هذه الشابة الجميلة جداً، هذه الفتاة التي تحبها من الصميم ! ان يد الآنسة كيلمان الضخمة تنفتح وتنغلق على المائدة.

شعرت اليزابيث أن هذا الموقف لا معنى له نوعاً ما. وانها تريد حقاً أن تنصرف.

غير أن الآنسة كيلمان قالت : « لكني لم أكمل أكلي ».

خذي وقتك، اذن، واليزابيث ستنتظر. لكن الجو هنا خانق بعض الشيء.

سألت الآنسة كيلمان: « هل ستحضرين الحفلة الليلة؟ » افترضت اليزابيث انها ستحضر؛ أُمها تريدها أن تحضر. قالت الآنسة كيلمان ان عليها ألا تجعل الحفلات تستغرقها، قالت ذلك وهي تلمس بأصابعها آخر ما تبقى من حلوى الأكلير، [العجين المحشو بالقشدة والمكسو بالشوكولاته].

قالت اليزابيث انها لا تحب الحفلات كثيراً. فتحت الآنسة كيلمان فمها، برّزت حنكها بعض الشيء، وازدردت ما تبقى من قطعة الأكلير، ثم مسحت أصابعها، وأدارت في كوبها الشاي.

شعرت أنها على وشك أن تتمزق إرباً. كانت سكرات المعاناة فظيعة جداً. لو أنها تستطيع إمساكها، لو أنها تستطيع احتضانها، لو انها تستطيع امتلاكها كلياً والى الأبد ومن ثم تموت؛ هذا كل ما تريد. لكن ان تجلس هنا، غير قادرة على التفكير في أي شيء تقوله؛ أن ترى اليزابيث تنقلب عليها؛ أن تشعر بأنها تثير الامتعاض حتى فيها ـ هذا كثير جداً؛ وهي لا تطيقه. إلتوت أصابعها الثخينة الى الباطن.

قالت الآنسة كيلمان: « إني لا أذهب الى الحفلات أبداً »، وقالت ذلك لتأخير اليزابيث عن الانصراف ليس غير. أضافت تقول: « الناس لا يدعونني الى الحفلات » ـ وهي تعرف اذ قالت هذا أن في هذه الأنانية خرابها؛ كان المستر ويتيكر قد حذرها؛ لكنها لا حيلة لها فيها. لقد عانت بصورة شنيعة. قالت: « ولماذا يدعونني؟ اني دميمة؛ اني تعيسة ». وهي تعرف أن كلامها هذا غباء منها. لكن كل هؤلاء الناس وهم يمرون ـ أُناس يحملون رزماً، أُناس يحتقرونها ـ هم الذين أنطقوها. على أنها هي دوريس كيلمان. انها تحمل درجتها العلمية. انها إمرأة قد شقت طريقها في العالم. ومعرفتها التاريخ الحديث اكثر من محترمة.

قالت : « إني لا أرثي لنفسي. إني أرثي. . . » ـ وأرادت أن تقول : « لأمك »، لكن لا، لا تستطيع ذلك، ليس لأليزابيث. « إني أرثي للآخرين أكثر بكثير ».

جلست اليزابيث دالاواي صامتة كأنها مخلوقة صماء بكماء جيء بها الى بوابةٍ ما لغرض غير معلوم، فوقفت هناك تتوق الى أن تهرول بعيداً. هل ستقول الآنسة كيلمان شيئاً آخر ؟

قالت دوريس كيلمان بصوت مرتجف : « لا تنسيني كل النسيان ». وفي الحال هرولت المخلوقة الصماء البكماء فزعاً حتى نهاية الحقل.

اليد الضخمة انفتحت وانغلقت.

أدارت اليزابيث رأسها. جاءت النادلة. قالت اليزابيث : الدفع عند الباب، وانصرفت، فشعرت الآنسة كيلمان بأنها سحبت معها أحشاءها ذاتها من بدنها، تمطها عبر الردهة، ومن ثم، وبليّة نهائية، حنت اليزابيث رأسها بأدب جم، ومضت.

إنها قد ذهبت. والآنسة كيلمان تجلس الى مائدة الرخام بين حلوى الأكلير وقد أُصيبت مثنى وثلاث بصدمات الشقاء. إنها قد ذهبت. السيدة دالاواي قد انتصرت. اليزابيث قد ذهبت. الجمال قد راح. الشباب قد ولى.

لذا جلست. ثم نهضت، وهي تتعثر بين الموائد الصغيرة، وتترنح قليلاً من طرف الى طرف، فلحقها أحدهم بتنورتها، وفقدت طريقها، وانحصرت بين صناديق معدّة خصيصاً لإرسالها الى الهند؛ ثم صارت بين أطقم الولادة وبياضات المواليد؛ وترنحت بين كل بضائع العالم، القابلة للتلف والدائمة البقاء، لحوم، أدوية، أزهار، قرطاسية، مواد تفوح على تنوع، مرةً برائحةٍ حلوة، مرةً مُرّةٍ؛ ورأت نفسها بطول قامتها في مرآة تترنح هكذا وقبعتها نكست جانباً، ووجهها شديد الاحمرار؛ وأخيراً خرجت الى الشارع.

وتصاعد أمامها برج كاتدرائية ويستمينستر، موطن الله. ففي خضم حركة المرور، هنالك موطن الله. واتجهت بعناد مع رزمتها الى ذلك الحرم الآخر، الى كنيسة الآبي[1] فجلست هناك، وقد رفعت يديها ظُلّة أمام وجهها، بجنب أولئك الذين ألجئوا الى طلب الملاذ أيضاً؛ المتعبدين من أنواع شتى، وقد جُردوا الآن من المركز الاجتماعي، ومن الجنس الذي ينتمون اليه فلا يكاد يعرف الذكر من الأنثى، اذ رفعوا أيديهم أمام وجوههم؛ لكن ما أن يزيحوا أيديهم حتى يظهروا رجالاً ونساء انكليز خاشعين، من الطبقة الوسطى، وبعضهم يتوق الى رؤية التماثيل الشمعية.

لكن الآنسة كيلمان أمسكت بظُلتها أمام وجهها. تُنتبذ حيناً؛ وحيناً يوافيها آخرون. دخل متعبدون جدد من الشارع ليأخذوا مكان المتستكعين، ومع ذلك، وإذ يجيل الناس أنظارهم محملقين ويجرون أقدامهم عابرين أمام قبر الجندي المجهول، فإنها تحجب عينيها بأصابعها وتحاول في هذه اللحظة المزدوجة، فالضياء في الآبي غير ذي تجسد، ان تسمو فوق غرور الدنيا، والشهوات، ومرافق العيش، ان تنزع من نفسها الكراهية والحب معاً. يداها ترتعشان. وهي تبدو وكأنها تصطرع. في حين أن الله مفتوح بابه للآخرين والسبيل اليه لا تعيقه العوائق. المستر فلاتشر، من وزارة الخزانة؛ المسز غورام، أرملة المحامي الشهير، يقبلان على الله ببساطة، وبعد أن أنهيا صلاتهما اعتدلا في مجلسهما، استمتعا بالموسيقى (فالأرغون يهدر رائعاً)، ورأيا الآنسة كيلمان في نهاية الصف، تصلي، وتصلي، ولكونهما ما زالا على عتبة عالمهما السفلي فقد أخذاها مأخذاً عطوفاً كروح تحوم في المصر ذاته؛ روح قُدت من جوهر غير مادي؛ ليست إمرأة بل روح.

لكن المستر فلاتشر كان عليه أن يذهب. كان عليه أن يمر بها، ولأنه

---

(3) كنيسة ويستمنستر آبي تابعة للكنيسة الانكليكانية، أما كاتدرائية ويستمنستر فتابعة للكنيسة الكاثوليكية الرومانية. (المترجم)

أنيق كيراعٍ جديد لم يسعه إلا أن يكتئب قليلاً من الفوضى المحيطة بالسيدة المسكينةِ؛ شعرها منسدل؛ رزمتها على الأرض. ولم تفسح له مجال المرور على الفور. لكنه اذ وقف محملقاً حواليه، في الرخام الأبيض، في زجاج النوافذ الرمادي، والكنوز المركومة (ذلك أنه فخور كل الفخر بالآبي)، فإن ضخامة المرأة، صلادتها، وقوتها، وقد جلست هنالك تناوب ما بين ركبتيها بين حين وحين (وعراً كان مقتربها من الله - فظةً رغباتها) قد أثرت فيه، كما كانت قد أثرت في السيدة دالاواي (لم تستطع أن تنزع صورتها من ذهنها ذلك العصر)، وفي القس إدوارد ويتيكر، وفي اليزابيث ايضاً.

ووقفت اليزابيث في شارع فكتوريا تنتظر باصاً. لطيف جداً البقاء في الخارج. ودار في خلدها أن ربما ليس ثمة ما يدعوها الى الذهاب الى البيت الآن. فلطيف جداً البقاء في الهواء الطلق. لذا فإنها ستستقل الباص. وسلفاً بدأت الحكاية، حتى وهي واقفة هناك، بملابسها الجيدة الخياطة. . . بدأ الناس يقارنونها بشجر الحور، بالفجر الباكر، بالزنبق، بالظباء، بالماء الجاري، بليلاك الجنائن؛ وهذا جعل حياتها عبئاً عليها، ذلك أنها تفضل كثيراً أن تنفرد بنفسها لتفعل ما تشاء في الريف لكنهم سيقارنونها بالليلاك، وإن عليها أن تذهب الى الحفلات، ولندن كالحة جداً بالمقارنة لوجودها وحدها في الريف مع ابيها والكلاب.

الباصات تحط، تستقر، تقلع - قيروانات مبهرجة بشكل ينبو عن الذوق، وهي تلتمع بصبغتها الحمراء والصفراء. لكن أيها ستأخذ ؟ ليس لديها من تفضيل. بالطبع، انها لا تتدافع بالمناكب. تميل الى السلبية وتعوزها القسمات المعبرة، لكن عينيها بديعتان، صينيتان، شرقيتان، ثم، وكما قالت أُمها، فبمثل هاتين الكتفين اللطيفتين وبرفعها قامتها بكل انتصاب، هي دائماً شيء فاتن للنظر؛ انها في الفترة الأخيرة - خاصة وقت الأصيل، وحين تظهر اهتماماً، ذلك أن الانفعال لا يظهر عليها ابداً - تكاد

تبدو جميلة، وبمنتهى الجلال والسكينة الصافية. ما الذي يمكن ان تفكر به ا ان الرجال يقعون في غرامها، وهذا يضجرها كل الضجر حقاً. ذلك أن الحكاية بدأت. بوسع أمها أن ترى ذلك ـ كلمات الاطراء بدأت. ولأن اليزابيث لا تعبأ كثيراً بهذا ـ مثلاً لا تعبأ بملبسها ـ فهذا هو ما يقلق كلاريسا أحياناً، لكن لعل ذلك أفضل لها مع كل هذه الجراء من الكلاب والخنازير المصابة بالحمى اذ ان هذا يضفي نوعاً من الفتنة عليها. والآن هناك هذه الصداقة الشاذة مع الآنسة كيلمان. قالت كلاريسا في خاطرها، وهي تقرأ مذكرات البارون ماربوت حوالي الساعة الثالثة صباحاً لأنها لا تستطيع النوم: حسناً، هذا يبرهن على أنها ذات قلب.

وبغتةً خطت اليزابيث الى الأمام واستقلت الباص بكل اقتدار، أمام الجميع. اتخذت مقعداً في الطابق العلوي. هذا المخلوق الطائش ـ قرصان ـ بدأ يتجه الى الأمام، منطلقاً الى الامام؛ كان عليها أن تمسك بالسياج لتثبيت نفسها، فهذا المخلوق قرصان، وهو متهور، غير متحرج، يدهم بلا رحمة، يدور بشكل خطر، يلقط راكباً بجسارة، ويتجاهل راكباً، ويندس كالصل، متعجرفاً إبان ذلك كله، ثم يندفع بوقاحة وبأقصى سرعة نحو حي وايتهول. وهل أولت اليزابيث فكرة واحدة في خاطرها تحض الآنسة كيلمان المسكينة التي أحبتها بلا غيرة وكانت لها اليزابيث ظبية في البرية، قمراً في شق بسقف الغاب ؟ لقد سرها ان تكون حرة. الهواء النقي بمنتهى اللذة. وكان خانقاً جداً في مخازن الجيش والبحرية. والآن فهذا كأنه الركوب على صهوات الخيل، أن تهرع صعداً في وايتهول؛ فمع كل حركة من الباص يستجيب الجسم الجميل بالمعطف الظبياني اللون استجابة حرة كفارس من الفرسان، كتمثال دفة في مقدمة سفينة، ذلك أن النسيم يشيل ملابسها قليلاً؛ الحرارة تضفي على خديها شحوب الخشب المصبوغ بدهان أبيض؛ وعيناها الجميلتان اللتان لا تجدان عيوناً لتنظر اليهما عيناً لعين، حدقتا الى الأمام، ساهمتين، لامعتين، بتحديق المنحوتة البريء، المدهش.

وما يجعل الآنسة كيلمان صعبة المراس جداً هو كلامها دائماً عن

شقائها. فهل هي محققة ؟ اذا كان المقصود هو العضوية في لجان وبذل الساعات الكثيرة من الوقت يومياً (انها لا تراه في لندن إلا بالكاد) لمساعدة الفقراء فإن والدها يفعل ذلك، يشهد الله ـ اذا كان هذا هو ما تعنيه الآنسة كيلمان بكون المرء مسيحياً؛ لكن من الصعب عليها جداً أن تحدس. أوه، انها تود ان تذهب بالباص أبعد قليلاً. قرش آخر، أليس كذلك، الى حي الستراند ؟ ها هو القرش الآخر، اذن انها ستذهب الى الستراند.

إنها تحب المرضى. وكل مهنة مفتوحة للنساء من جيلك، كما قالت الآنسة كيلمان. لذا قد تكون طبيبة. قد تكون مزارعة، الحيوانات غالباً ما تمرض، قد تمتلك ألف إيكر ويكون تحت إمرتها أُناس كثيرون. وستذهب لتزورهم في اكواخهم. هذه بناية سومرسيت هاوس، [دائرة حكومية]. قد يكون المرء مزارعاً جيداً جداً. وهي تحب ما يشعر به الناس وهم يعملون. تحب تلك الكنائس وكأنها أشكال قُصت من ورق رمادي وهي تتصدر تيار الستراند. دار في خلدها أن المكان هنا يختلف تماماً عن ويستمينستر، وترجلت من الباص في تشانسيري لين. المكان محتشم جداً؛ مزدحم جداً. باختصار انها تود لو يكون لديها مهنة. انها ستصبح طبيبة، مزارعة، قد تدخل البرلمان ان وجدت ذلك ضرورياً، كل ذلك بسبب الستراند.

إن أقدام هؤلاء الناس منشغلة بنشاطاتهم، وأيديهم تضع حجراً على حجر، وعقولهم مشغولة أزلياً لا بثرثرات تافهة (تشبيه الناس بشجر الحور ـ كان مثيراً بالطبع لكنه سخيف جداً)، بل بأفكار عن سفن، عن أعمال، عن قانون، عن إدارة، والأمر مع كل هذه الأشياء هو بمنتهى الأُبهة (كانت في حي التامپل)، والبهجة (ها هو النهر)، والتقوى (ها هي الكنيسة) كل هذا جعلها تصمم كل التصميم، مهما قالت أُمها، أن تصبح إما مزارعة أو طبيبة. لكنها، بالطبع، كسولة نوعاً ما.

وإنه لمن الأفضل جداً ألا تقول شيئاً عن ذلك. فقد بدا الأمر سخيفاً جداً. وهو من النمط الذي يحصل أحياناً، حين يكون المرء وحده ـ أبنية

بدون أسماء المعماريين الذين صمموها، حشود الناس تعود من مركز الأعمال في المدينة ومعها من القوة أكثر من قوة القسس الفرادى في كينزينغتون، أكثر من أيٍ من الكتب التي أعارتها لها الآنسة كيلمان، لشحذ ما يستقر وسناناً، مبلبلاً، وخجولاً على القاع الرملي للعقل، للبحث عن منفذ كطفل يمد بغتةً ذاعيه : ربما كان الأمر هذا ليس غير، نهدة، امتداد ذراعين، انفعالاً، الهاماً، فيحدث أثره الى الأبد، ثم يرسب مرةً أخرى في القاع الرملي. إنها يجب أن تذهب الى البيت. يجب أن تغير ملابسها للعشاء. لكن كم الوقت ؟ ـ هل ثمة ساعة ؟

أرسلت نظرها الى شارع فليت، شارع الصحافة. مشت قليلاً نحو كنيسة القديس پول على استحياء، كمن يتغلغل على أصابع القدم، مستكشفاً بيتاً في الليل في ضوء شمعة متوتراً خشية أن يفتح المالك بغتة باب غرفة نومه على مصراعيه فيسألها ماذا تريد؛ لم تتجرأ كذلك على التسكع في أزقة غريبة، أو في دروب مغوية، إلا بقدر ما تتجرأ على دخول أبواب مفتوحة لبيت غريب، قد تكون أبواب غرف جلوس، أو تؤدي مباشرة الى مخازن المؤونة. ذلك لأن أفراد أسرة دالاواي لا يأتون الى ستراند يومياً؛ انها رائدة، شاردة، تغامر، تثق.

وأُمها تشعر أنها غير ناضجة من نواح عديدة، كأنها لا تزال طفلة، متعلقة بالدمى، بخفٍ قديم؛ طفلة مثالية؛ وهذا شيء فاتن. على أن لأسرة دالاواي تقاليد في الخدمة العامة بالطبع. رئيسات في أديرة للراهبات، مديرات مدارس، مديرات أقسام داخلية، شخصيات ذوات مقامات رفيعة في ملكوت النساء ـ دون أن يكن لامعات، ايةً منهن، هذا هو شأنهن. تغلغلت أكثر قليلاً في اتجاه كنيسة القديس پول. انها تحب ما في هذا الضجيج من لطف؛ أخوّة، أُمومة، بدا لها الضجيج طيباً. الضوضاء هائلة وفجأة انطلقت أبواق (انهم العاطلون عن العمل) تدوي وتقعقع في الضجيج؛ موسيقى عسكرية؛ كأن الناس في مسيرة؛ مع هذا فلو أنهم كانوا يموتون، لو ان امرأة ما تلفظ أنفاسها الأخيرة، فكائناً من يكون ذاك الذي

يراقبها ويفتح عليها نافذة الغرفة حيث أفلحت تواً بإتيان فعل الكرامة الانسانية ذاك، فيتطلع الى شارع الصحافة، فإن ذلك الضجيج، تلك الموسيقى العسكرية، كانت توافيه ظافرة، مواسيةً، وعلى غير اكتراث.

لم يكن هذا من الأمور التي يدركها الوعي. ليس ثمة تعرّف فيه الى هيكل المرء، أو مصيره، ولهذا السبب بالذات فإنه يواسي حتى اولئك المبهوتين بمراقبة ارتعاشات الادراك الأخيرة على وجوه المحتضرين.

إن طبيعة النسيان في الناس قد تؤذي، وإنكارهم الجميل قد تصيب بالتآكل، لكن هذا الصوت، الدافق الى ما لا نهاية، سنة بعد سنة، سيتقاضى ما يشاء؛ هذا النذر؛ هذه الشاحنة؛ هذه الحياة؛ هذا الموكب؛ إنه سيركمهم جميعاً فيحملهم فيه، كما في التيار المائج لجبل الجليد اذ يمسك الثلج بجذاذةٍ من عظم، بتويجة زهرة زرقاء، بشيء من شجر البلوط، ويدحرجهم في تياره.

لكن الوقت قد تأخر أكثر مما ظنت. وأُمها لا تريد لها أن تتسكع وحدها على هذه الشاكلة. استدارت عائدةً إلى ستراند.

إن هبةً من ريح (بالرغم من الحرارة كانت تهب ريح عاصفة) قد قذفت بغلالة رقيقة سوداء فوق الشمس وفوق الستراند. الوجوه بهت لونها؛ الباصات فقدت فجأة بريقها. ومع أن الغيوم هي ببياض الجبال بحيث يسع المرء ان يتخيل تقطيع ألواح صلبة منها بساطور، مع منحدرات ذهبية فسيحة، ومروج خضر لجنائن الملذات السماوية على أطرافها، ولها المظهر الكامل لمواطن مستقرة اتخذت مكاناً لمؤتمر الآلهة فوق الدنيا، فإن ثمة حركة سرمدية بين الغيوم. الاشارات تتبادل المواضع، إذ، كما لو ان ذلك لتحقيق مخطط رُتِّب سلفاً، تتلاشى قمة حيناً، وحيناً تأتي كتلة بأسرها بحجم الاهرامات فتحفظ موقعها بلا تبديل لتتقدم الى الوسط أو تقود الموكب بوقار الى مرسى جديد. ومهما بدا من ثبات في مواضعها، ومن استقرار جماعي تام، فإنه ما من شيء اكثر تجدداً وتحرراً، أكثر تحسساً في

الظاهر من السطح الأبيض كالثلج او المتقد ذهباً؛ فمن الممكن أن يتغير على الفور هذا التجمع الرصين، أن يذهب، أن يتفكك. وعلى الرغم من الثبات الشديد، والقوة والصلادة المتراكمتين، إلا ان الغيوم تشع حيناً بالضياء الى الأرض وحيناً ترخي الظلام.

صعدت اليزابيث دالاواي بسكينة واقتدار باص ويستمينستر.

رائحةً وغادية، تومىء وتؤشر، هكذا بدت الأضواء والظلال، وهي مرةً تجعل الجدار رمادي اللون ومرةً تجعل ثمار الموز براقة الصفرة، هكذا بدت لسپتيموس ورين سميث وهو ممدد على الأريكة في غرفة الجلوس، وهو يرقب الذهب المائي يتقد ويبهت بالحساسية المذهلة لمخلوق ما حي على الورود، على ورق الجدران. وفي الخارج تسحب الأشجار أوراقها كشراك في أعماق الهواء؛ وخرير الماء في الغرفة، ومن خلال الأمواج تأتي أصوات الطيور مغنية. إن كل القوى صبت كنوزها على رأسه، ويده ممدودة على ظهر الأريكة، كما كان قد رأى يده تمتد حين يسبح، يعوم، على أعلى الأمواج بينما يسمع من بعيد على الساحل كلاباً تعوي وتعوي من بعيد. لا تخشَ بعد اليوم، قال القلب للجسد، لا تخشَ بعد اليوم. . .

لم يكن سپتيموس خائفاً. ففي كل لحظة تنبىء الطبيعة بتلميحةٍ ما ضاحكة كتلك البقعة الذهبية التي تجوب على الجدار ـ هناك، هناك، هناك، ـ عن تصميمها على الظهور، باشهار رياشها، بنفض جدائلها، بطرح بردتها على هذه الجهة وتلك، والظهور على نحو جميل، ودائماً على نحو جميل، وهي تقف عن كثب لتتملى من خلال يدها المجوفة كلمات شكسبير ومعانيها.

راقبته ريزيا، وهي جالسة الى الطاولة لتبرم قبعة كانت بين يديها؛ رأته يبتسم. كان سعيداً، حينذاك. لكنها لا تطيق رؤيته مبتسماً. انه ليس الزواج؛ ولا كونه زوجها هو الذي يجعله يبدو غريباً على هذه الصورة،

فهو على الدوام يجفل، يضحك، يجلس الساعة بعد الساعة صامتاً، أو يمسك بها ويقول لها اكتبي. وجارور الطاولة مليء بتلك الكتابات عن الحرب، عن شكسبير، عن اكتشافات عظيمة؛ وكيف أنه لا يوجد موت. انه في الآونة الأخيرة انفعل فجأة بلا سبب (والدكتور هولمز والسير وليام برادشو قالا كلاهما إن الانفعال هو أسوأ شيء له)؛ ولوّح بيده حواليه وصاح انه يعرف الحقيقة! انه يعرف كل شيء ! قال ان ذلك الرجل، صديقه الذي قتل، أفينز، قد جاء. انه يغني وراء الستارة. فكتبت ذلك كما نطق به. بعض الأشياء جميلة جداً؛ وبعضها الآخر محض هراء. وهو دائماً يتوقف في وسط الجملة، مغيراً رأيه؛ يريد أن يضيف شيئاً؛ يسمع شيئاً جديداً؛ يصغي ويداه للأعلى. لكنها لا تسمع شيئاً.

وذات مرة ضبطا البنت التي تنظف الغرفة وهي تقرأ إحدى هذه الأوراق غاصةً بنوبات من الضحك. كان ذلك شيئاً يثير الاشفاق بشكل فظيع. ذلك لأنه جعل سپتيموس يصيح صارخاً، مستصرخاً القسوة الانسانية - كيف أن أحدهم يمزق الآخر إرباً. قال : الساقط يمزقونه إرباً. ويقول : « هولمز يطبق علينا »، ثم يختلق الحكايات عنه؛ هولمز يأكل الهريس؛ هولمز يقرأ شكسبير - فيضج بالضحك أو بالغضب، ذلك ان الدكتور هولمز يبدو وكأنه يمثل شيئاً فظيعاً له. انه يدعوه بـ « الطبيعة الانسانية ». ثم تأتيه الرؤى. فمن دأبه ان يقول : اني غريق، أستلقي على منحدرٍ شاهق والنوارس تتصايح من فوقي. انه ينظر من فوق حافة الأريكة الى البحر. أو انه يسمع موسيقى. والواقع أن الأمر كان صندوقاً موسيقياً لا غير يديره أحدهم أو رجلاً يبكي في الشارع. لكن من دأبه أن يقول : « روعة ! »، ويذرف الدمع جارياً على خديه، فكان ذلك بالنسبة اليها من أفظع الأشياء، أن ترى رجلاً يسقط سافلاً سافلاً في النيران ! فتنظر هي باحثة عن نيران فعلاً لأنه يقول قوله هذا بشكل معبّر عن واقع حقيقي. لكن ليس هناك من شيء. انهما وحدهما في الغرفة. فتقول له انه يحلم، وبهذا تهدئه أخيراً، لكنها أحياناً تنذعر ايضاً. تنهّدت اذ جلست الى خياطتها.

إن نهدتها لينة وفاتنة، كالريح على اطراف الغابة في الأصيل. انها حيناً تضع مقصها جانباً؛ وحيناً تستدير لتتناول شيئاً من الطاولة. إن حركة بسيطة، خشخشة بسيطة من القماش السميك، نقرة بسيطة من حاجة من الحاجيات، تبنى شيئاً على الطاولة هناك، حيث جلست تخيط. وهو يرى من خلال أهدابه خطوط جسمها الغائشة؛ بدنها الأسود الصغير؛ وجهها ويديها؛ حركات استدارتها على الطاولة، اذ تناولت بكرة، أو بحثت عن خيوطها الحريرية، (فهي تنزع الى إضاعة الأشياء). إنها تصنع قبعة لابنة المسز فيلمور المتزوجة، واسمها ـ نسي اسمها.

سأل : « ما اسم ابنة المسز فيلمور المتزوجة ؟ »

قالت ريزيا : « مسز پيترز »، وأضافت أنها تخشى أن تكون القبعة أصغر مما ينبغي، وكانت تمسك بها أمامها. ان المسز پيترز إمرأة ضخمة؛ لكنها لا تودها. ولأن المسز فيلمور طيبة معهما وليس لسبب آخر ـ قالت : « اعطتني عنباً هذا الصباح » ـ فإن ريزيا تريد أن تفعل شيئاً من أجلها لإظهار امتنانهما. كانت قد دخلت الغرفة ذات مساء فوجدت المسز پيترز التي ظنتهما في الخارج تدير الكرامافون.

سأل : « هل هذا صحيح ؟ »، كانت تدير الكرامافون ؟ نعم؛ وقد أخبرته بذلك في حينه؛ انها وجدت المسز پيترز تدير الكرامافون.

أخذ يفتح عينيه بحذر شديد ليرى هل ان الكرامافون موجود فعلاً هناك. لكن الأشياء الحقيقة ـ الأشياء الحقيقية مثيرة جداً. يجب ان يكون حذراً. انه لن يجن. نظر أولاً الى صحف الموضة على الرف السفلي، ثم بالتدريج الى الكرامافون ذي البوق الأخضر. ما من شيء أكثر من هذا اكتمالاً في شكله. وهكذا نظر، وهو يجمع شجاعته، الى المنضدة الجانبية؛ وصحن الموز؛ واللوحة المحفورة لوجهي الملكة فكتوريا وقرينها الأمير؛ والى رف الموقد، وعليه اناء الورود. ما من شيء من هذه الأشياء تحرك. كلها ثابتة؛ كلها حقيقية.

قالت ريزيا : « وهي إمرأة ذات لسان لاذع »

سأل سپتيموس : « ماذا يعمل المستر پيترز ؟ »

قالت ريزيا : « آه »، وهي تحاول أن تتذكر. خيل اليها أن المسز فيلمور كانت قد قالت لها انه يسافر لصالح شركة ما. قالت : « في الحال الحاضرة هو في مدينة هال ».

« في الحال الحاضرة! » قالتها بلكنتها الايطالية. قالت ذلك هي نفسها. حجب عينيه حتى لا يرى إلا قليلاً من وجهها في المرة الواحدة، أولاً الحنك، ثم الأنف، ثم الجبين فعسى أن يكون الوجه مشوهاً، أو فيه علامة ما فظيعة. لكن لا، ها هي، طبيعية بصورة تامة، تخيط، بالشفتين المزمومتين، والقسمات المتجهمة، السوداوية، المألوفة في النساء عند الخياطة. لكنه أكد لنفسه أن ليس ثمة شيء مريع في وجهها. نظر للمرة الثانية، للمرة الثالثة، الى وجهها، ويديها، فما هو المفزع أو المقزز فيها اذ جلست هناك في وضح النهار، تخيط ؟ المسز پيترز ذات لسان لاذع. المستر پيترز في هال. فيم، اذن، يغضب ويتنبأ ؟ فيم يهرب معذباً وطريداً ؟ فيم تدفعه الغيوم الى الارتجاف والنشيج ؟ فيم يبغي الحقائق ويبلّغ الرسالات في حين أن ريزيا قد جلست تغرز الدبابيس في صدر فستانها والمستر پيترز في هال ؟ ان المعجزات، والالهامات، والمعاناة، والوحدة، والسقوط عبر البحر، سافلاً، سافلاً في النيران، كل ذلك تلاشى، فإن لديه ملكة العقل، اذ رقب ريزيا تشذب قبعة المسز پيترز الخوص وتقلّم ما يغطيها من أزهار.

قال سپتيموس : « إنها أصغر مما يجب بالنسبة الى المسز پيترز ».

وللمرة الأولى منذ أيام تكلم كما اعتاد ان يتكلم ! قالت : « طبعاً صغيرة ـ صغيرة بشكل أخرق. لكن المسز پيترز هي التي اختارتها ».

أخذها من يدها. قال إنها قبعة تصلح لقرود السيرك.

ما كان أعظم سرورها بهذا ! انهما لم يضحكا معاً هكذا منذ أسابيع،

وهما يهيلان المزاح بينهما على انفراد كالمتزوجين. وما عنته أنه لو دخلت المسز فيلمور، أو المسز پيترز، أو أي شخص آخر، فإنهم ما كانوا يفهمون ما الذي كانت هي وسپتيموس يضحكان منه.

قالت: « خذيها! » وهي تدبس وردة في أحد طرفي القبعة. ما شعرت سابقاً بمثل هذه السعادة أبداً! أبداً في حياتها بأسرها!

قال سپتيموس: لكن هذا اكثر سخافة. ستبدو المرأة المسكينة الآن بهذه القبعة وكأنها خنزير في معرض. (ما من أحدٍ يجعلها تضحك مثل سپتيموس أبداً).

ما الذي عندها في علبة الشغل؟ عندها أشرطة وخرز وجدائل وزهور اصطناعية. فرغتها على الطاولة. بدأ يضع ألواناً غريبة جنباً الى جنب - فهو وإن لم يكن ماهراً بأصابعه، ولا يستطيع حتى ان يحزم رزمة، إلا أن عينه رائعة وغالباً ما يكون على صواب، أحياناً أخرق بالطبع، لكن أحياناً على صواب بشكل رائع.

غمغم يقول: « سيكون عندها قبعة جميلة! » وهو يتناول هذا الشيء وذاك، وريزيا جاثية بجنبه، تنظر من فوق كتفيه. الآن انتهت - يعني التصميم؛ يجب أن تخيطها. وقال لكنها يجب أن تكون حذرة جداً، جداً، لكي تبقى كما صنعها.

وهكذا مضت تخيط. ودار في ذهنه أنها حين تخيط تصدر أصواتاً كمقلاة على موقد؛ تبقبق، تتمتم، مشغولة دائماً، وأناملها الصغيرة القوية المدببة تقرص وتنخس؛ وإبرتها تمرق في مكانها. الشمس قد تظهر وتختفي على الجدائل، على ورق الجدران، لكنه حدَّث نفسه، وهو يمد قدميه متطلعاً الى جواربه بنقشتها الحلقية والموضوعة عند نهاية الأريكة، انه سيظهر في هذا المكان الدافىء، هذا الجيب من الهواء الراكد الذي يصادفه المرء على حافة غابة أحياناً في الأصيل، اذ، وبسبب انخسافٍ في الأرض، أو بترتيب ما من الأشجار (يجب أن يكون المرء علمياً قبل كل شيء،

علمياً)، يتخلف الدفء، فيضرب الهواء الخد كجناح طير.

قالت ريزيا : « ها هي » وكانت تدير قبعة المسز بيترز على أطراف أناملها. واضافت : « هذا سيفي بالمرام الآن. وبعدئذ. . . » وكانت نبراتها تترقرق كحنفيةٍ مترعة تُرك ماؤها يجري.

كانت القبعة رائعة. لم يسبق له أن صنع شيئاً يفاخر به بمثل هذه المفاخرة مطلقاً. إنها حقيقة جداً، إنها ذات جوهر ملموس جداً، قبعة المسز بيترز.

قال : « انظري اليها فقط ».

أجل، ان رؤية تلك القبعة ستسعدها دائماً. لقد رجع كما هو اذن، لقد ضحك اذن. إنهما وحدهما معاً. إنها ستحب تلك القبعة دائماً.

قال لها جربيها.

فصاحت : « لكني سأبدو غريبة الشكل بها ! » وهرعت الى المرآة تنظر من هذه الزاوية أولاً، ثم من تلك. لكنها انتزعت القبعة من رأسها، فثمة طرق على الباب. هل هو السير وليام برادشو ؟ هل أرسل اليهما أحداً بهذه السرعة ؟

لا ! إنها ليست إلا البنت الصغيرة وقد جاءت بجريدة المساء.

ما يحدث دائماً، يحدث اذن ـ ما يحدث في كل ليلة من حياتهما. البنت الصغيرة تمص إبهامها عند الباب، ريزيا تجثو على ركبتيها؛ ريزيا تراود وتقبل؛ ريزيا تأتي بكيس الحلوى من جارور الطاولة. فهذا يحدث دائماً. أولاً شيئاً ثم شيئاً آخر. هكذا تبنيه، أولاً شيئاً ثم شيئاً آخر. إنهما تتراقصان، تنزلقان، في ارجاء الغرفة. تناول سپتيموس الجريدة. قرأ يقول : منطقة « صري » خرجت بأسرها، ثمة موجة حر. فرددت ريزيا : صري خرجت بأسرها. ثمة موجة حر، جاعلةً من هذا جزءاً من اللعبة التي تلعبها مع حفيدة المسز فيلمور، وكلتاهما تتضاحكان من لعبتهما، وتثرثران في الوقت ذاته. انه متعب جداً. سعيد جداً. وسينام. أغمض عينيه لكن، وإذ

لم ير شيئاً فقد غدت أصوات اللعبة أخفت وأغرب، ورنّت كأنها صيحات أُناس يستغيثون فلا يغاثون، فيمضون بعيداً بعيداً. لقد أضاعوه.

وجفل فزعاً. ما الذي يراه ؟ صحن الموز على الطاولة الجانبية. ما من أحد هناك (ريزيا أخذت الطفلة الى أُمها؛ حان وقت النوم). ذلك هو الأمر : أن يكون وحيداً إلى الأبد. ذلك هو المصير الذي تقرر في ميلانو حينما دخل الغرفة ورآهم يقصون أشكالاً من قماش ثخين بمقاصهم؛ أن يكون وحيداً إلى الأبد.

إنه وحده مع الطاولة الجانبية والموز. انه وحده على هذا المرتقى الكالح، ممدد ـ لكن لا على قمة تل؛ لا على شِعْب جبل؛ بل على أريكة غرفة جلوس المسز فيلمور. أما بالنسبة الى الرؤى، بالنسبة الى وجوه الموتى وأصواتهم فأين هي ؟ ثمة ستارة أمامه، وعليها قصب البردي وطيور السنونو الزرق. وحيثما ير حيناً جبالاً، حيثما ير وجوهاً، حيثما ير جمالاً، فثمة ستارة.

وصاح : « أفينز ! ». ولا من جواب. فأر يصيء، أو ستارة تخشخش. تلك هي أصوات الموتى. وبقيت له الستارة، وقُفّة الفحم، والطاولة الجانبية. فليواجه اذن الستارة وقُفّة الفحم والطاولة الجانبية... لكن ريزيا دخلت تنطلق الى الغرفة وهي تثرثر.

ثمة رسالة قد وصلت. فتبدلت خطط الجميع. المسز فيلمور لن تتمكن من الذهاب الى برايتون في كل الأحوال. وليس هناك وقت لاخبار المسز ويليامز، وخالت ريزيا حقاً أن الأمر مزعج جداً، جداً، فإذا بها يقع نظرها على القبعة فافتكرت... ربما... قد تقوم... بمحض... وتلاشى صوتها في تنغيم مترع.

« آه، لعنة الله ! » صاحت (وهي نكتة بينهما، شتيمتها)؛ الابرة انكسرت. قبعة، طفلة، برايتون، إبرة. انها تبنيها أولاً شيئاً، ثم شيئاً آخر، تبنيها، وهي تخيط.

أرادته أن يقول لها هل انها قد حسّنت القبعة بتغيير موقع الوردة ؟ جلست على نهاية الأريكة.

قالت بغتة وهي تضع القبعة جانباً، إنهما الآن على أسعد حال. ذلك أنها تستطيع أن تقول له أي شيء الآن. تستطيع أن تقول اي شيء يخطر لها على بال. يكاد يكون ذلك هو ما شعرت به تجاهه، تلك الليلة في المقهى، حين دخل مع اصدقائه الانكليز. دخل، على استحياء نوعاً ما، وهو يتلفت حواليه، وقد سقطت قبعته حين علقها. يمكنها ان تتذكر هذا. عرفت أنه انكليزي، ولو أنه لم يكن واحداً من الانكليز الضخام اللائي تعجب بهم شقيقتها، ذلك انه كان نحيفاً دائماً؛ لكنه كان ذا لون زاه جميل؛ إنه بأنفه الكبير، وعينيه البراقتين، وطريقته في الجلوس محني الظهر قليلاً، كان قد ذكّرها، كما أخبرته كثيراً، بصقر فتيّ تلك الليلة الأولى التي رأته فيها، حينما كانوا يلعبون الدومينو، فدخل - وذكرها بصقرٍ فتي؛ لكنه كان لطيفاً معها دائماً. انها لم تره هائجاً أو سكران على الاطلاق، إنما يقاسي أحياناً من جراء هذه الحرب الفظيعة، لكن مع هذا فما أن تدخل عليه حتى يتناسى ذلك كله. انها لتقول اي شيء يخطر ببالها، أي شيء في الدنيا كلها، أي ازعاج بسيط في عملها تقوله له، فيفهم فوراً. لم تكن حتى أُسرتها ذاتها على هذه الشاكلة. وهو لكونه أكبر سناً منها ولكونه ذكياً جداً - كم كان جاداً، يريدها أن تقرأ شكسبير قبل أن تستطيع حتى قراءة قصة أطفال بالانكليزية ! - ولكونه أكثر تجربة منها بكثير، فإنه يستطيع أن يساعدها. وهي، ايضاً، تستطيع أن تساعده.

لكن هذه القبعة الآن. ثم (والوقت يتأخر) السير وليام برادشو.

وضعت يديها على رأسها، تنتظره ليقول هل أحب القبعة أمْ لا، وإذ جلست هناك، تنتظر مطرقةً، كان بوسعه أن يتحسس ذهنها، كأنها طير، ينتقل من غصنٍ الى غصن، ويحط دائماً وعلى النحو الدقيق؛ بوسعه أن يتبع ذهنها، إذ جلست هناك بوضع من تلك الأوضاع الانحلالية المرتخية

التي تواتيها بشكل طبيعي، فإذا ما قال شيئاً، أي شيء، بَسمت من فورها، كطير يحط بكل مخالبه ثابتاً على الغصن.

لكنه تذكر. كان برادشو قد قال : « إن الذين نشغف بهم كثيراً لا يصلحون لنا عند مرضنا ». برادشو قال انه يجب أن يتعلم الراحة. برادشو قال انهما يجب أن ينفصلا.

« يجب »، « يجب »، لماذا « يجب » ؟ واية سلطة لبرادشو عليه ؟ وقال يطالب بجواب : « أي حق لبرادشو أن يقول لي (يجب) ؟ ».

قالت ريزيا : « هذا لأنك تحدثت عن قتل نفسك » (بوسعها، لحسن الحظ، أن تقول الآن أي شيء لسبتيموس).

إذن هو في قبضتهما ! هولمز وبرادشو يطبقان عليه ! الوحش بمناخيره الحمراء يتشمم في كل مكان خفي ! « يجب » يقول الوحش ! أين هي أوراقه ؟ الأشياء التي كان قد كتبها ؟

جاءته بأوراقه، الأشياء التي كانت قد كتبتها له. أفرغتها أمامه على الأريكة. نظرا فيها معاً. مخططات، تصاميم، رجال صغار ونساء صغيرات يشهرون العصي سلاحاً، ذوو أجنحة ـ أليست هي كذلك ؟ ـ على ظهورهم؛ دوائر رسمت بواسطة دراهم وقروش ـ الشموس والكواكب؛ شعاب متعرجة يصعدها متسلقو جبال ربطوا بالحبال بعضهم ببعض كما تربط سكاكين وأشواك الطعام بالضبط؛ مقاطع بحرية مع وجوه صغيرة من أشياء تبدو كالأمواج : خريطة العالم. صرخ قائلاً : أحرقيها ! ثم التفت الى كتاباته، كيف يغني الموتى خلف أكمات من زهور الخلنج؛ قصائد للزمن؛ محادثات مع شكسبير؛ أفينز، أفينز، أفينز ـ رسالات اليه من الموتى؛ لا تقطعوا الأشجار؛ قولوا لرئيس الوزراء. الحب الكوني : معنى العالم. صرخ قائلاً : أحرقيها !

لكن ريزيا وضعت يديها عليها. انها تخال بعضها جميلاً جداً. إنها ستربطها (فليس لديها مغلف) بخيط حريري.

قالت حتى لو أخذوه فسأذهب معه. قالت انهم لا يستطيعون فصلهما خلافاً لارادتهما.

رتبت حواشي الأوراق جيداً، وحزمتها، فربطت الرزمة وهي لا تكاد تنظر اليها، وقد جلست قريباً منه، فخالها قد جلست بجنبه، كما لو أن جميع تويجاتها تحف بها. انها شجرة مزهرة؛ ومن خلال أغصانها أطل وجه واضع الشريعة، وقد بلغ ملاذاً لا يخاف فيه من أحد؛ لا من هولمز؛ ولا من برادشو؛ معجزة؛ انتصار، الشيء الأعظم والأخير. رآها ترتقي السلم الشنيع مترنحةً. مثقلة بهولمز وبرادشو، وهما لم يزنا أقل من مئة كيلوغرام أبداً، يبعثان بزوجتيهما الى البلاط، يكسبان عشرة آلاف في العام ويتكلمان عن تناسب الأشياء؛ واختلفا في أحكامهما (إذ قال هولمز شيئاً، وبرادشو شيئاً آخر)، مع هذا فمن القضاة هما؛ يخلطان بين الرؤية والطاولة الجانبية؛ لا يريان شيئاً بوضوح، مع هذا يحكمان، مع هذا ينزلان بالآخرين الأذى. وعليهما انتصرت.

قالت : «انتهى!» فالأوراق قد حزمت. لا يمكن لأحد أن يصل اليها. وستخزنها.

وقالت، ما من شيء يمكن أن يفصلهما. جلست بجنبه ودعته باسم ذلك الصقر أو الغراب الذي يشبهه بالضبط لكونه خبيثاً ومتلفاً عظيماً للمحاصيل. قالت ما من احد يستطيع أن يفصلهما.

ثم نهضت لتذهب الى غرفة النوم لتحزم حوائجهما، لكنها سمعت أصواتاً في الطابق التحتاني، فلما حسبت أنه ربما يكون الدكتور هولمز هرعت لتمنعه من الصعود.

بوسع سپتيموس أن يسمعها تكلم هولمز على السلم. كان هولمز يقول : « يا سيدتي العزيزة، إني جئت صديقاً ».

قالت : « لا. لن أسمح لك بأن تعاين زوجي ».

بوسع سبتيموس أن يراها، كأنها دجاجة صغيرة وقد نشرت جناحيها

تمنعه من المرور. لكن هولمز يثابر.

قال هولمز : « سيدتي العزيزة، اسمحي لي. . . » وهو ينحيها جانباً (هولمز رجل قوي البنية).

هولمز يصعد السلالم. هولمز سيندفع فاتحاً الباب. هولمز سيقول له: « في نوبة ذعر وإحجام، ها ؟ » هولمز سيقبض عليه. لكن لا؛ لا هولمز؛ ولا برادشو. نهض بصورة متقلقلة نوعاً ما، بل كان يرفع قدماً ويحط أخرى على نقلات، وهو يتأمل سكين الخبز اللطيفة النظيفة العائدة للمسز فيلمور وقد حفر على مقبضها « خبز ». آه، لكن على المرء ألا يلوث ذلك. موقد الغاز ؟ لكن فات أوان ذلك الآن. هولمز قادم. لعله يجد أمواساً، لكن ريزيا، على عادتها في مثل هذه الأمور دائماً، قد رزمتها. لم تبق إلا النافذة، النافذة الكبيرة لهذا النزل الشبيه بغيره في حي بلومزبيري؛ ولم تبق إلا الفعلة المتعبة، المزعجة، بل الميلودرامية لكي يفتح النافذة ويلقي بنفسه منها. ان هذه فكرتهم عن المأساة، وليست فكرته أو فكرة ريزيا (ذلك أنها معه). هولمز وبرادشو يحبان هذا النمط من الأمور. (جلس على أسكفّة الشباك). لكنه سينتظر حتى اللحظة الأخيرة بالذات. إنه لا يريد أن يموت. الحياة طيبة. الشمس حارة. أمحض كائنات إنسانية ؟ ثمة شيخ ينزل السلالم قبالته فتوقف وحملق فيه. هولمز عند الباب. صرخ سپتيموس يقول : « سأريك ! » وألقى بنفسه بقوة، بعنف، على سياج مدخل المسز فيلمور.

صاح الدكتور هولمز : « الجبان ! » وهو يندفع فاتحاً الباب على مصراعيه. ركضت ريزيا الى النافذة، ورأت؛ وفهمت. اصطدم الدكتور هولمز والمسز فيلمور أحدهما بالآخر. صفقت المسز فيلمور صدارها على عيني ريزيا في غرفة النوم. حدث الكثير من الركض صعوداً ونزولاً على السلالم. دخل الدكتور هولمز ـ أبيض كالقرطاس، وهو يهتز من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وبيده قدح. قال إنها يجب ان تكون شجاعة وتشرب

شيئاً (ما هو ؟ شيء حلو)، ذلك أن زوجها قد انسحق انسحاقاً فظيعاً، ولن يسترجع وعيه، ويجب ألا تراه، يجب أن تتجنب المشهد جهد الإمكان، وسنجري اللازم لاتمام التحقيق، ويا للشابة المسكينة. من كان يستطيع التنبؤ بهذا ؟ إنه انفعال مفاجىء، وما من ملام بأي شكل كان (قالها للمسز فيلمور). أما لماذا فعل فعلته، بالله عليك، فهو ما لا يستطيع الدكتور هولمز أن يدركه.

بدا لها اذ شربت الشيء الحلو أنها تفتح نوافذ طويلة، وتخطو نحو جنينةٍ ما. لكن أين ؟ الساعة تدق ـ دقة، اثنتين، ما اعقل هذا الصوت؛ بالمقارنة بكل هذا الوِقْع والهمس؛ مثل سپتيموس نفسه. إنها تغرق في النوم. لكن الساعة استمرت تدق، أربع، خمس، ست، والمسز فيلمور تبدو وهي تلوح بصدارها (إنهم لن يجلبوا الجثة الى هنا، أليس كذلك ؟) كأنها جزء من تلك الجنينة، أو تبدو بيرقاً. لقد رأت ذات مرةٍ بيرقاً يرفرف ببطء نازلاً من سارية حين أقامت مع عمتها في فينيسيا. من يقتل في معركة يُحيّا هكذا، وسپتيموس قد اشترك في الحرب. سعيدةٌ هي أكثر ذكرياتها.

ارتدت قبعتها؛ وركضت في حقول القمح ـ أين كان ذلك يا ترى ؟ راحت تجري نحو رابية، في مكان ما قريباً من البحر، حيث السفن والنوارس والفراشات؛ جلسا على صخرة. في لندن، ايضاً، هناك جلسا، وجاءها وهي شبه حالمة من خلال باب غرفة النوم، من خلال مطر يهطل، من خلال همسات، وخشخشات في السنابل اليابسة، جاءها عناق البحر، وهو يحتويهما في قوقعته المحدبة ويغمغم لها وهي ملقاة على ساحل، منثورةً شعرت، كأزهار متطايرة على قبر من القبور.

قالت : « لقد مات »، وهي تبتسم للعجوز المسكينة التي تحرسها وعيناها الزرقاوان الأمينتان مثبتتان على الباب. (إنهم لن يجلبوا الجثة الى هنا، أليس كذلك ؟) لكن المسز فيلمور تسفه ذلك. لا، لا ! إنهم يأخذونه محمولاً الآن. ألا ينبغي إخبارها ؟ دار في خلد المسز فيلمور أن

الأزواج ينبغي أن يكونوا معاً. لكنهم يجب أن ينفذوا ما يقوله الطبيب.

قال الدكتور هولمز وهو يجس نبضها: « دعوها تنام ». رأت هيئة بدنه العظيمة معتمةً لصق النافذة. هذا اذن هو الدكتور هولمز.

خطر في بال پيتر ولش أن هذا الذي يراه هو أحد انتصارات الحضارة، اذ رنَّ صوت الجرس الرفيع العالي لسيارة الاسعاف. مرقت سيارة الاسعاف، سريعة، على نحو نظيف، الى المستشفى، وقد التقطت على الفور، على نحو انساني واحداً من عفاريت الناس المساكين؛ واحداً أصيب برأسه أو أرداه المرض، أو ربما دهس قبل دقيقة أو نحوها في إحدى نقاط العبور، كما يحدث للناس. تلك هي الحضارة. ساوره ذلك وهو العائد من الشرق ـ الكفاءة، التنظيم، روح الجماعة في مدينة لندن. إن كل عربة دفع أو عربة جر انتحت جانباً من تلقاء نفسها لتفسح الطريق لسيارة الاسعاف. لعله شيء مُسقِم؛ بل هو بالأحرى شيء يمس شغاف القلب، هذا الاحترام الذي أظهروه لسيارة الاسعاف هذه والضحية بداخلها ـ رجال منشغلون يعودون مسرعين الى منازلهم، مع هذا فالسيارة وهي تمر تذكرهم فوراً بزوجة؛ أو تذكرهم بأنه ما أسهل أن يكونوا هم فيها. ممددين على طاولة مع طبيب وممرضة... آه، لكن التفكير يغدو تفكيراً مسقماً، تفكيراً مثيراً لميوعة عاطفية، حالما يبدأ المرء بتخيل الأطباء، والأجساد الميتة؛ إن وهجاً بسيطاً من اللذة، بل نوعاً من الشهوة، يطفو على سطح الانطباع البصري ليحذِّر المرء ألا ينساق وراء هذا النوع من الأمور الى أبعد من ذلك ـ يحذر من أن هذا يفتك بالفن، يفتك بالصداقة. صحيح. وإذ دارت سيارة الاسعاف في المنعطف، ومع أن الجرس الرفيع العالي يمكن أن يسمع في الشارع التالي وما بعده، وهو يرن باستمرار، فإن پيتر ولش قال في خاطره، مع ذلك فإن هذا الأمر من امتيازات الوحدة؛ فالمرء في خلوته مع نفسه يفعل ما يشاء. المرء قد يبكي ان لم يكن أحد يراه. لقد

كان في هذا خرابه ـ هذا الاستعداد الحسّاس ـ حين عاش في المجتمع الأنغلو هندي؛ ألا يبكي في الوقت الصحيح، أو حتى ألاّ يضحك ايضاً. قال في خاطره، وهو يقف بجنب صندوق البريد، إن هذا موجود فيّ، مما يمكن أن يسيل دموعاً الآن. أما لماذا فالله أعلم. ربما الجمال من نمط ما، ووقر النهار بحرارته، بشدة توتره والذي أنهكه ابتداء بتلك الزيارة الى كلاريسا، ثم تقاطر الانطباعات بالتتالي، قطرة، قطرة، في ذلك القبو حيث تتجمع، عميقة، مظلمة، فلا يعرف بها أحد أبداً. ولهذا السبب جزئياً، لسرية الأمر، السرية الكلية التي لا تنتهك، وجد الحياة كأنها جنينة مجهولة، مليئة بالاستدارات والأركان، شيء مدهش؛ نعم؛ حقاً إنها لتخطف الأنفاس، هذه اللحظات؛ ولقد وافته إحداها هناك بجنب صندوق البريد قبالة المتحف البريطاني، وافته اللحظة وفيها تتصل الأمور بعضها ببعض؛ سيارة الاسعاف هذه؛ والحياة والموت. حتى لكأن الأمر قد جرى امتصاصه الى سطح ما مرتفع جداً بواسطة ذلك الزخم من العاطفة فتركت بقيته الباقية عاريةً كشاطىء تناثرت فيه الأصداف البيض. كان في هذا خرابه في المجتمع الأنغلو هندي ـ هذا الاستعداد الحساس.

كان لدى كلاريسا مثل هذا، مرةً، وهي ذاهبة معه الى مكان ما بالطابق العلوي من باص، وكلاريسا تستثار، سطحياً على الأقل، بسهولة بالغة، فحيناً هي نهب لليأس وحيناً بأحسن المعنويات العالية، وكانت كتلة من الاهتزازات في تلك الأيام وصحبتها لطيفة جداً وهي تتطلع الى مشاهد وأسماء وأناس مما هو بسيط وغريب وذلك من أعلى الباص، فقد دأبا أن يستكشفا لندن ويعودا بأكياس مليئة بالكنوز من سوق كاليدونيا ـ كان لدى كلاريسا نظرية في تلك الأيام ـ كان لديهما أكداس من النظريات، نظريات على الدوام كما هو شأن الشباب. وكانت النظرية لتفسير الشعور بعدم الرضا الذي كان يعتريهما؛ وهما لا يعرفان الناس؛ ولا يعرفهما أحد. فكيف يمكن أن يعرف أحدهما الآخر ؟ فأنت تلتقي كل يوم؛ ثم لا تلتقي مدة

ستة اشهر، أو مدة سنين. وكانا متفقين أن مدى ما يعرفه المرء عن الناس هو مقدار لا يشفي الغليل. لكنها قالت، وهي جالسة في أعلى الباص وهو يجري بهما على امتداد جادة شافتزبيري، انها تشعر بأنها موجودة في كل مكان، ليس « هنا، هنا، هنا، » ؛ وهي تدق على ظهر المقعد لكن في كل مكان. لوحت بيدها والباص يجري بهما على امتداد جادة شافتزبيري. إنها كل ذلك. لذا فلكي يعرفهاالمرء، أو لكي يعرف أي شخص شخصاً آخر، فلا بد له من أن يبغي الآخرين الذين يكلمونه بل يبغي حتى الأمكنة. ثمة وشائج غريبة عندها مع أُناس لم تكلمهم أبداً، مع امرأةٍ ما في الشارع، مع رجل ما وراء رف الخدمة ـ حتى مع اشجار او عنابر ريفية. وآل هذا الى نظرية ماورائية متسامية غامضة أتاحت لكلاريسا، على فزعها من الموت، أن تؤمن، أو قل إنها آمنت (مع كل تشككها)، بأنه مذ أن ظواهرنا، مذ أن الجزء الذي يظهر منا، هو جزء مؤقت، بالمقارنة بالجزء الآخر، الجزء غير المرئي منا والذي ينتشر واسعاً، فإن غير المرئي قد يبقى وقد يستعاد بطريقة أو بأخرى لاصقاً بهذا الشخص أو ذاك، بل محوّماً في أماكن معينة تكون مسكونة به، بعد الموت. ربما ـ ربما.

وإذ يتطلع الى الماضي الذي يمتد بصداقة طويلة عمرها ثلاثون سنة تقريباً، فإنه يجد أن نظريتها تنطبق الى هذا الحد الاجتماعي فقط. ان لقاءاتهما الفعلية، على ما كانت عليه من قصر وتقطع ومن ألم في الغالب، ناهيك عن تغيباته والمداخلات (هذا الصباح، مثلاً، إذ دخلت اليزابيث كأنها مهرة طويلة القوادم، وسيمة، صماء بكماء، في اللحظة التي كان يبدأ بها كلامه مع كلاريسا)، هي لقاءات كان تأثيرها في حياته عظيماً. ثمة لغز غامض يحيط بذلك. انك لتعطى قيراطاً واحداً حاداً قارصاً، غير مريح ـ قيراطاً من اللقاء الفعلي؛ أليماً بشكل شنيع في غالب الأحيان؛ ومع هذا فعند الغياب، وفي أمكنة من أبعد ما يمكن تصوره، فإذا بالذي أُعطيت يزهر، ويتفتح، ويرسل شذاه، ويتيح لك أن تلمس لمس اليد، أن تذوق، أن تتطلع حواليك، ان تستوعب الشعور به والفهم، بعد سنين من البوار.

هكذا كانت كلاريسا تأتيه؛ على ظهر باخرة؛ في الهملايا؛ أغرب الأشياء يذكره بها (هكذا تذكرته سالي سيتون، الحمقاء الكريمة، المتحمسة ! حين رأت زهور الاقحوان الزرق). ان كلاريسا قد أثرت فيه أكثر من أي شخص عرفه على الاطلاق. ودائماً على هذه الصورة تأتي أمامه دون رغبة منه، باردةً، ناقدةً، محتشمة، أو سالبةً للّب، رومانسية، مذكرةً بحقلٍ ما أو بموسم حصاد. انه غالباً ما يراها في الريف وليس في لندن. مشهد بعد مشهدٍ في بورتون...

وصل فندقه. اخترق الردهة، بما وضع فيها من مقاعد وأرائك حمراء، ونباتات مسننة الأوراق ذاوية المظهر. تناول مفتاحه من الكلاّب. ناولته الفتاة بعض الرسائل، صعد الى الطابق العلوي. انه كان يرى كلاريسا في الغالب في بورتون، في أواخر الصيف، حيث يقيم هناك اسبوعاً أو حتى اسبوعين، كما كان يفعل الناس في تلك الأيام. إنها تكون أول من يبلغ قمة ربوة هناك فتقف، وقد شبكت يديها في شعرها، ورداؤها يتطاير، تؤشر لتناديهم ـ انها رأت نهر سيفيرن الى الأسفل. او في غابة تغلي الشاي ـ غير حاذقة أبداً في استعمال أصابعها؛ الدخان يتثنى، يهب في وجوههم؛ وجهها الوردي الصغير يبين من خلاله؛ تستجدي ماء من امرأة عجوز في كوخ خرجت الى بابها لترقبهم يذهبون، إنهما كانا يمشيان دائماً؛ الآخرون يركبون. كان يضجرها الركوب، ولا تحب من الحيوانات سوى ذلك الكلب. كانا يسيران على غير هدى أميالاً على امتداد الدرب. فتتوقف للتعرف الى الاتجاه ثم تقوده رجوعاً عبر الريف؛ وطيلة الوقت يتجادلان، يبحثان في الشعر، وفي الناس، وفي السياسة (كانت راديكالية آنئذٍ)؛ لم تكن تلحظ شيئاً أبداً إلا حين تتوقف وهي تصيح لمشهد منظر أو شجرة، فتجعله ينظر معها؛ وهكذا يمضيان مرة أخرى؛ خلال حقول محتشة العشب، وهي تسير في المقدمة تحمل زهرة قطفتها لعمتها دون ان تتعب من المشي ابداً رغم رقتها؛ حتى يحطا رحالهما في بورتون متعبين عند الغسق. ثم وبعد العشاء، سيفتح بريكتوف البيانو ويغني بدون أي صوت،

وهما يغوصان في مقعدين وثيرين، يحاولان ألا يضحكا، لكنهما دائماً ينفجران بضحك متواصل - يضحكان من لا شيء. فالمفروض ألا يراهما بريكتوف. ثم يتحركان في الصباح عابثين ذهاباً وإياباً أمام الدار كطائر الذُعَرَة الصغير. . .

أوه، إنها رسالة منها ! هذا الظرف الأزرق، وذلك هو خطها. وإن عليه أن يقرأها. ها هو لقاء آخر من تلك اللقاءات، لقاء حري أن يكون مؤلماً ! إن قراءة رسائلها تحتاج الى أتعس الجهد. « ما كان أروع أن تراه. يجب أن تخبره بذلك ». وهذا كل ما هنالك.

لكن الرسالة سببت اكتئابه. أزعجته. تمنى لو أنها لم تكتبها. فالرسالة، وقد جاءته في اعقاب تأملاته كانت كأنها حرقة في الضلوع. لماذا لا تدعه وشأنه ؟ انها، الى ذلك، قد تزوجت دالاواي، وعاشت معه بسعادة تامة كل هذه السنين.

هذه الفنادق ليست أمكنة لتوفير السلوان، بل على النقيض. فعددٌ أيّ عددٍ من الناس قد علقوا قبعاتهم على تلك الكُلاّبات. حتى الذباب، إن شئت، يحط على أنوف الآخرين. أما النظافة التي تصدمه فهي ليست نظافة، بقدر ما هي تعرية ظاهرية وتشدد متزمت؛ شيء لا بد منه. ثمة رئيسة جافة تقوم بالتفتيش فجراً وهي تشمشم بأنفها وتبصّ بعينيها، فتسبب الزحار للخادمات رغم التزامهن بالنظام، ولأي سبب كان، حتى كأن النزيل هو شريحة لحم يقدم على صحن نظيف جداً. أما للنوم فسريرٌ واحد؛ وللجلوس فمقعدٌ واحد؛ ولتفريش الأسنان وحلق الذقن فدورق ماء واحد، ومرآة واحدة. الكتب، الرسائل، روب المنام، تطرح كلها على القماشة الخشنة المشاعة للجميع كأنها أشياء لا صلة لها بصاحبها إلا صلة الازدراء. وكانت رسالة كلاريسا هي التي جعلته يرى كل هذا. « من الرائع رؤيتك. لا بد أن تقول ذلك ». طوى الورقة؛ نحّاها؛ ما من شيء سيحمله على قراءتها مرةً أخرى !

لكي توصل هذه الرسالة إليه بحلول الساعة السادسة لا بد أنها كانت قد كتبتها فور مغادرته لها؛ لصقت عليها الطابع؛ أرسلت أحدهم الى البريد. هذه هي طريقتها كما يقول عنها الناس. انها اكتأبت بزيارته. تحسست بالكثير؛ وهي حين قبّلت يده أسفت عليه، مدة لحظة واحدة، بل حتى حسدته، ولعلها تذكرت شيئاً (ذلك أنه رأى هذا عليها) كان قد قاله ـ كيف أنهما كانا يغيران العالم لو أنها كانت تزوجته، ربما؛ في حين أن الأمر هو هذا؛ إنه بلوغ أوسط العمر؛ إنه الوضع العادي غير الباهر؛ ثم أجبرت نفسها على أن تطرح كل ذلك جانباً بحيويتها التي لا تقهر، وذلك لوجود خيط فيها من خيوط الحياة لم يعرف مثيلاً له أبداً لما فيه من بأس ومتانة وقوة على التغلب على العقبات وعلى إيصالها الى شاطىء السلامة ظافرةً. أجل؛ لكنْ سيحدث لها رد فعل فور مغادرته الغرفة. ستكون آسفة عليه أسفاً مخيفاً؛ ستفكر ما الذي يسعها أن تقدمه له من لذة (دون ذلك الشيء الواحد دائماً)، وإنه ليراها والدموع تسيل على خديها ذاهبةً الى طاولة الكتابة ومسطرةً على عجل ذلك السطر الواحد الذي وجده ينتظر ليرحب به... « من الرائع رؤيتك ! ». وهي تعني ذلك.

(پيتر ولش فك رباطي حذائه الآن).

لكنه ما كان يكتب له النجاح، زواجهما. والشيء الآخر قد جاء، الى ذلك، بصورة طبيعية تدريجياً.

إن الأمر لغريب؛ وإنه لصحيح؛ كثير من الناس يشعرون به. إن پيتر ولش، الذي قام بما قام به على نحو محترم، وأشغل المراكز المعتادة بصورة مناسبة، هو رجل محبوب، لكنه يُعدّ غريب الأطوار بعض الشيء، ومتصنعاً ـ ومن الغريب، والغريب خاصةً، الآن وقد شاب شعره، إنه كان يتحلى بسمت الرضا، بسمت التحفظ. وهذا ما كان يجعله جذاباً للنساء من اللائي تهوى أنفسهن الظن بأنه ليس فيه رجولة عموماً. ثمة شيء غير اعتيادي يحف به، أو شيء يخفيه. قد يكون ذلك هو تعلقه بالكتب ـ فهو

لا يزورك إلا ويتناول الكتاب الموضوع على الطاولة (إنه يقرأ الآن، ورباطا حذائه متدليان على الأرض)؛ أو قد يكون ذلك لأنه من الذوات المهذبين، مما يظهر في الطريقة التي ينفض بها الرماد من غليونه، ويظهر بالطبع في تصرفه الأصولي مع النساء. ذلك أن من الجميل جداً والسخيف تماماً أن تستطيع فتاة بلا ذرةٍ من عقل أن تلفّه على أصبعها ! لكنْ شرط أن تتحمل الخطر بنفسها. بعبارة أخرى إنه مع كونه سهل المراس، بل من الرائع الاختلاط به لما فيه من مرح وطيبة أصل، فإن مرونته لها حد معين. فإذا قالت الفتاة شيئاً عن موضوع ما سارع يقول ـ لا، لا، إنه كان قد أشبع ذلك الموضوع بحثاً. لكنه يتصايح ويهتز ويمسك بخاصرتيه معاً بشأن نكتةٍ ما مع الرجال. وهو القول الفصل في شؤون المطبخ الهندي. إنه رجل. لكنه ليس رجلاً من النمط الذي ينبغي للمرء احترامه، مما يُعَدُّ رحمة؛ فهو ليس مثل الرائد سيمونز، مثلاً؛ وديزي نفسها ترى أنه ليس مثله بأي شكل من الأشكال، وهي تقارن بينهما، بالرغم من طفليها منه.

خلع حذاءه. أفرغ جيوبه. خرجت مع سكينته الجيبية صورة صغيرة لديزي واقفة في شرفة. ديزي بالبياض، مع كلبها الصغير على ركبتيها؛ فاتنة جداً، سمراء جداً؛ أحسن صورها التي رآها. وقد جاءت، الى ذلك، بصورة طبيعية جداً؛ بصورة طبيعية اكثر جداً من كلاريسا. لا هرج. لا ازعاج. لا تدلل ولا تململ. كل شيء بالغ اليسر. والفتاة السمراء، الحسناء بشكل محبب تهتف به في الشرفة (يستطيع أن يسمعها) : بالطبع، بالطبع، ستعطيه كل شيء صاحت (فهي لا تتمتع بحسن التقدير)، كل شيء يريده ! صاحت، وهي تركض لتلقاه، كائناً من كان الذي ينظر إليها من الموجودين. وهي لم تتجاوز الرابعة والعشرين. وعندها طفلان صغيران، حسناً، حسناً !

لقد أوقع نفسه في مأزق حقاً وهو في عمره هذا. والفكرة تستولي عليه بشكل قوي جداً حين يستيقظ ليلاً. لو فرضنا أنهما تزوجا ؟ أما

بالنسبة إليه فسيكون الأمر كله على ما يرام تماماً، لكن ماذا بالنسبة اليها ؟ إن المسز بيرغر، وهي إمرأة رزينة غير ثرثارة، وكان قد أسر لها بذات نفسه، ترى أن غيابه هذا في انكلترا، بزعم مراجعة المحامين، قد يؤدي بديزي الى إعادة النظر، والى التفكير بما يعنيه الأمر بالنسبة اليها. قالت المسز بيرغر إن المسألة هي مسألة مركزها؛ والعائق الطبقي؛ والتخلي عن أطفالها. إنها ستكون يوماً ما أرملة ذات ماضٍ، تتسكع متصيدة في الضواحي، أو في أكثر احتمال تكون كثيرة العلاقات بلا تمييز (قالت أنت تعرف الى أي شيء يؤول أمر أمثال هؤلاء النسوة المصبّغات). لكن بيتر ولش سفّه هذا كله. إنه لا ينوي أن يموت قريباً. على العموم، عليها أن تقرر لنفسها بنفسها؛ ان تختار لنفسها بنفسها هكذا دار في خلده، وهو يطأ ارض الغرفة متجولا بجواربه، يمسّد ثوب بدلة العشاء، ذلك أنه قد يذهب الى حفلة كلاريسا، أو قد يذهب الى قاعة موسيقية، أو قد يبقى في غرفته فيقرأ كتاباً ملذاً حتى الاستغراق كتبه رجل كان يعرفه في أوكسفورد. وهو إن تقاعد فهذا ما سيفعله ـ يكتب الكتب. سيذهب الى اوكسفورد وينقب في مكتبة بودليان. الفتاة السمراء، الحسناء بشكل محبب ركضت الى نهاية الشرفة بزهو؛ لوّحت بيدها بزهو، وصاحت بزهو انها لا تعبأ مقدار ذرة بما يقاوله الناس، وها هو، الرجل الذي لا تعدل به الدنيا، السيد المهذب الكامل، الفتّان، المتميز (وعمره لا يجعلها تهتم مطلقاً) وهو يطأ أرض غرفةٍ في فندق بحي بلومزبيري، يحلق، يغتسل، ويستمر إذ يرفع دورقاً ويضع موسى بالتنقيب في مكتبة بودليان، فيتوصل الى الحقيقة بشأن مسألة بسيطة او اثنتين من المسائل الي تهمه. وسيتطارح الكلام مع كائناً من يكون، وهكذا ينتهي به الأمر تدريجياً إلى عدم المبالاة بمواقيت الغداء الدقيقة، وينسى المواعيد؛ وحين تطلب منه ديزي، وستطلب، قبلةً، او انفجاراً عاطفياً، فإنه سيخيب في الاستجابة لبلوغ المرام (وإن كان وفياً لها بكل إخلاص) ـ إنها قد تكون، كما قالت المسز بيرغر، أسعد حالاً لو نسيته، لو أنها تتذكره فقط كما كان عليه في اب ١٩٢٢، شخصاً يقف عند

تقاطع الطرق في الغسق، فيأخذ بالتنائي أكثر فأكثر إذ تجري العربة القديمة، العربة التي تحملها وهي مشدودة بصورة آمنة الى المقعد الخلفي، وان كانت ذراعاها مبسوطتين، وإذ ترى الشخص يتلاشى فيختفي فهي لا تزال تصيح أنها أي شيء في الدنيا، أي شيء، أي شيء، أي شيء. . .

إنه لا يعرف مطلقاً ماذا يظنه الناس. وأضحى التركيز عنده أصعب فأصعب. أضحى مشغول البال حتى الاستغراق؛ أضحى منشغلاً بأموره؛ حيناً عكر المزاج، وحيناً مرحاً؛ متكلاً على النساء، شارد الذهن، متقلب الطبع، غير قادر على الفهم بصورة متناقصة (هكذا فكّر وهو يحلق) لماذا لا تستطيع كلاريسا ببساطة أن تجد لهما مكاناً ينزلان فيه وتكون لطيفة مع ديزي؛ تعرّفها الى الأصدقاء. ثم يسعه فقط أن ـ فقط أن يفعل ماذا ؟ فقط أن يحوّم ويهوّم (وهو في هذه اللحظة منشغل فعلاً بتفريق مختلف المفاتيح، والأوراق، بعضها عن بعض)، وينقضّ فيتذوّق، أن يكون وحيداً، وباختصار، مكتفياً بنفسه، ومع هذا ما من أحدٍ بالطبع أكثر منه اعتماداً على الآخرين (زرّر صداره)؛ كان في ذلك خرابه. إنه لا يستطيع الاستغناء عن وجوده في غرف التدخين، عن محبته العقداء، والغولف، والبريدج، عن محبته فوق كل شيء آخر صحبة النساء، فرونق رفقتهن الرائع، ووفاؤهنّ وجرأتهن وعظمتهن في المحبة، رغم ما فيها من ثغرات، تبدو له (والوجه الأسمر، الحلو بشكل محبب، موضوع فوق مغلفات الرسائل) تبدو له رائعة كلياً، كزهرة يانعة تنمو على قشرة الحياة الانسانية، ومع هذا فهو لا يستطيع الاستجابة لبلوغ المرام، لكونه مال دائماً الى التحري بنظره في ما يحيط بالأمور (كلاريسا قد جففت في غروقه شيئاً بصورة دائمة)، وهو يتعب سريعاً من الاخلاص الأعمى ويريد التنوع في الحب وإن كان يجن جنونه لو أحبت ديزي أحداً غيره، يجن جنونه ! ذلك انه غيور، غيور بالفطرة بصورة لا يستطيع السيطرة عليها. لقد قاسى من عذابات ! لكنْ أين هي سكينته، ساعته، أختامه، حافظة نقوده، ورسالة كلاريسا التي لن يقرأها مرةً أخرى لكنه يحب

التفكير فيها، وصورة ديزي ؟ والآن الى العشاء.

كانوا يأكلون.

إنهم يجلسون الى موائد صغيرة حول مزهريات، بلباس العشاء أو بدون لباس العشاء، مع لفاعاتهم وحقائبهم موضوعة الى جانبهم، بتصنعهم الإتزان الزائف، ذلك أنهم لم يألفوا هذا العدد المتعدد من ألوان الطعام في العشاء؛ وبثقتهم، ذلك أنهم قادرون على دفع ثمنه؛ وبتوترهم، ذلك أنهم كانوا يتراكضون في أرجاء لندن طيلة النهار يتسوقون ويتطلعون الى معالم المدينة؛ وبفضولهم الطبيعي، ذلك أنهم تطلعوا يجيلون نظرهم ويرفعونه إذ دخل السيد الماجد اللطيف الطلعة بنظارات سميكة الاطار؛ وبطبعهم الحسن، ذلك انهم سيكونون ممتنين للقيام بأي خدمة بسيطة، كإعارة جدول مواعيد السفر أو إعطاء معلومات مفيدة؛ وبرغبتهم وهي تنبض فيهم وتشدّ عليهم في أعماقهم، لانشاء علاقات بصورة من الصور ولو كانت مسقط رأس مشترك ليس غير (ليفربول، مثلاً)، أو أصدقاء يحملون الاسم نفسه؛ بنظراتهم المسترقة وسكوتهم الغريب وارتدادهم المفاجىء الى المزاح العائلي والانعزال؛ هنالك جلسوا يتناولون العشاء حين دخل السيد ولش وأخذ مقعده الى المائدة الصغيرة عند ستارة النافذة.

ولقد اكتسب احترامهم لا لأنه قال شيئاً، فهو لم يوجه خطابه إلا للنادل لكونه مستوحداً، بل لطريقة نظره الى لائحة الطعام، طريقة تأشيره بإصبعه السبّابة الى نبيذ معين على وجه الخصوص، طريقة انتصابه على المائدة، والاقبال على نحو جدي، وليس على نحوِ نهم، على العشاء، فهذا كله هو الذي أكسبه احترامهم، الاحترام الذي ظَل مكبوتاً دون التعبير عنه خلال القسم الأعظم من الوقت الذي استغرقه تناول الطعام، حتى انطلق ذلك الاحترام على المائدة التي تجلس إليها أُسرة آل موريس حين سمعوا السيد ولش يقول في نهاية الوجبة طالباً : « كمثرى بارتليت ». أما لماذا تكلم بكل اعتدال ومع هذا بصورة حازمة، بسمت شخص حرفته

الانضباط وهو ضمن حقوقه تماماً وهي حقوق أُسست على العدل، فهو ما لم يعرفه الشاب تشارلز موريس ولا أبوه، لا الآنسة إيلين ولا السيدة موريس. لكنه حين قال : « كمثرى بارتليت »، وهو يجلس وحيداً الى المائدة، فإنهم شعروا بأنه اعتمد على معونتهم في طلبٍ ما مشروع؛ بأنه المبشر بقضية أصبحت قضيتهم في الحال، بحيث أن عيونهم التقت عينيه بتعاطف، فلما بلغوا غرفة التدخين كلهم في الوقت ذاته فإن الكلام البسيط بينهم بات محتماً.

لم يكن كلاماً عميقاً جداً ـ بل انحصر في أن لندن مدينة مزدحمة؛ قد تبدلت في ثلاثين سنة؛ والمستر موريس يفضل ليفرپول؛ والمسز موريس قد زارت معرض الزهور في ويستمينستر، وأنهم جميعاً قد رأوا ولي العهد أمير ويلز. وفكّر پيتر ولش مع هذا في أنه ما من أسرة في العالم تقارن بهذه الأسرة؛ ما من أسرة على الاطلاق؛ علاقتهم ببعضهم مثالية، لا يعبأون مثقال ذرة بالطبقات العليا، يحبون ما يحبون، وإيلين تتدرب على إدارة أعمال العائلة، والولد قد نال زمالة دراسية في جامعة ليدز، والسيدة الكبيرة (بحوالي عمره) عندها ثلاثة أطفال آخرين في بلدتهم؛ ولديهم سيارتان، لكن المستر موريس لا يزال يرقّع الأحذية أيام الأحد : إنه شيء رائع، رائع جداً، هكذا دار في خلد پيتر ولش، وهو يترنح قليلاً للأمام والخلف وقدح الشراب في يده بين المقاعد الحمراء الوبرية ونفاضات السكائر، وهو يحس بالامتنان التام من نفسه، ذلك أن أفراد هذه الأسرة قد أحبوه. أجل، إنهم يحبون رجلاً يقول : « كمثرى بارتليت ». شعر بأنهم قد أحبوه.

إنه سيذهب الى حفلة كلاريسا. (آل موريس انصرفوا. لكنهم سيلتقون مرة أخرى). سيذهب الى حفلة كلاريسا لأنه يريد أن يسأل ريتشارد ما الذي يفعله في الهند المحافظون الأغبياء. ثم ما الذي يمثّل على المسارح ؟ والموسيقى. . . إي نعم، ومحض القال والقيل.

دار في خلده أن هذه هي الحقيقة بشأن النفس، نفسنا التي تقطن

كالسمك في البحار العميقة فتروح وتغدو بين المعميات تتلمس طريقها بين جذوع الأدغال العملاقة، فوق فضاءات تخفق بالشمس، فتمضي وتمضي نحو عتمة، باردة، عميقة، مبهمة؛ وبغتة تنطلق الى السطح وتتلاعب على الأمواج التي غضّنتها الرياح؛ لأن فيها حاجة أكيدة الى صقل نفسها وتشذيبها وإضرامها في القال والقيل. ما الذي تنوي الحكومة فعله بشأن الهند ؟ ريتشارد دالاواي سيعرف.

وبما أنها كانت ليلة حارة جداً وباعة الجرائد الصبيان يمرون باعلاناتهم المنادية بحروف ضخمة حمراء أن هناك موجة حر، فإن كراسي القصب قد مدت على أعتاب الفنادق، وهناك جلس الأماجد المنعزلون يرشفون، يدخنون، بيتر ولش جلس هناك. قد يحلو للمرء أن يتخيل أن النهار، نهار لندن، يبدأ تواً. وكامرأة تنضو عنها القميص القطني والصدرية البيضاء لتختال بالأزرق واللآلىء، فالنهار يتغير، يخلع عنه اشياء، يكتسي بالشاش، يتحول الى مساء، ويتنهّد النشوة ذاته الذي تطلقه إمرأة، وهي تطرح تنوراتها على الأرض، فالنهار ايضاً يطرّح الغبار والحرارة واللون؛ حركة المرور تخف؛ السيارات، وهي تطن وتمرق تعقب فرقعة الشاحنات؛ وهنا وهناك بين الشجر الكثيف في الميادين يتدلّى ضياء لامع. والنهار يبدو وكأنه يقول إني أتخلى، إذ يشحب ويخفت فوق أسوار الأسطح المنحوتة، المدببة، للفنادق والشقق ومجمعات الدكاكين، إني أتخلى، والليل يبتدىء، إني أختفي، لكنّ لندن لا تقبل بشيء من هذا مطلقاً، فتعجل مطلقةً حرابها في السماء، تكبّل الليل، تكرهه على المشاركة في عربدتها الصاخبة.

فالثورة العظيمة للتوقيت الصيفي التي أحدثها المستر ويليت قد وقعت بعد زيارة بيتر ولش الأخيرة لانكلترا. الأصيل المستطال جديد عليه. إنه شيء ينفخ بروح جديدة نوعاً ما. ما ان يمضي الشبان بملفاتهم، مسرورين جداً بحريتهم، وفخورين أيضاً، على نحوٍ أعجم، لأن أقدامهم تطأ هذا الرصيف الشهير، حتى يضيء وجوههم جذل من نوعٍ ما، جذل رخيص،

مبتذل البهرجة إذا شئت، لكنه يظل في الوقت عينه نشوةً طروبة. والفتيات حسنات الهندام أيضاً؛ جوارب وردية؛ أحذية أنيقة. وستتوفر الآن لهؤلاء ساعتان في السينما. إن ضياء المساء الأزرق ـ الصفراوي يشحذ معالمهم، يصقلهم؛ وعلى أوراق الشجر في ساحة الميدان تشع نباتات مدينة مغمورة بالماء شعاعاً ممتقعاً، شاحباً ـ فالأوراق تبدو كأنها نقعت في ماء البحر. لقد أذهله الجمال؛ وكان الأمر مشجعاً ايضاً، فإذ يجلس الأنغلو ـ هندي العائد وبموجب حقوقه (وهو يعرف جمهرات منهم) في النادي الشرقي ليوجز خراب العالم بتشاؤم يقطع نياط القلوب، ها هو بيتر ولش هنا وكأنه فتى لا يهرم ابداً؛ يحسد الشبان على توقيتهم الصيفي وما يتبعه من أمور. ويساوره شك يقارب اليقين وهو يسمع كلمات من بنت، أو ضحكة من خادمة بيت ـ أشياء غير ملموسة لا تستطيع ان تضع يدك عليها ـ شك بأنه يتحسس تزحزحاً في التراكم الهرمي بأسره الذي كان يبدو في شبابه ثابتاً لا يتزحزح. لقد أنخى ذلك التراكم بثقله عليهم؛ أثقل بوقره كواهلهم، خاصة النساء منهم، كتلك الزهور التي دأبت هيلينا عمة كلاريسا على ضغطها بين صحائف النشاف ووضع معجم ضخم عليها، وهي تجلس تحت المصباح بعد العشاء. إنها ميتة الآن. وقد سمع من كلاريسا أن إحدى عينيها أصيبت بالعمى. يبدو أن من المناسب جداً ـ ومن مآثر الطبيعة ـ أن تؤول المس پاري العجوز الى زجاج. فهي تموت كطير يقبض على مجثمه في زمهرير الجليد. إنها تنتمي الى عصرٍ مختلف، لكنها، ولكونها كليّة جداً، كاملة جداً، فإنها ستقف على الدوام على الأفق، بيضاء كالحجر، بارزة، كأنها فنار ينبىء بمرحلةٍ ما ماضية لهذه الرحلة المغامرة الطويلة، الطويلة، هذه التي لا ينقطع استمرارها (فتش عن قرش في جيبه ليشتري الجريدة ويقرأ عن صري ويوركشاير؛ لقد حمل ذلك القرش ملايين المرات ـ خرجت صري عن بكرة أبيها مرة أخرى) على أن الكريكيت ليس محض لعبة حسب. الكريكيت مهم. لا يسعه إلا أن يقرأ عن الكريكيت. قرأ النتائج في أخبار آخر ساعة المختصرة أولاً، ثم قرأ كيف أن هذا نهار حار؛ ثم

عن قضية قتل. إن القيام بالأشياء ملايين المرات إنما يغنيها، وإن قيل إن ذلك قد يكون على حساب مظهرها. الماضي يُغني. والتجربة، وإنه إذ كان قد اهتم بشخص أو شخصين فقد اكتسب قوةً تعوز الشباب، قوة في اختزال الأمور، في أن يفعل ما يشاء، ولا يبالي قيد أنملة بما يقوله الناس وهو يروح ويغدو بدون أي أملٍ من الآمال الضخام (ترك الجريدة على الطاولة وغادر)، مما (وبحث عن قبعته ومعطفه) لا ينطبق عليه تماماً، ليس هذه الليلة، ذلك أنه على وشك الذهاب الى حفلة، في عمره هذا، مع ما يراوده من اعتقاد بأنه يوشك أن يحصل على تجربة. لكن أية تجربة ؟

الجمال على أية حال. ليس الجمال الفج الظاهر للعيان. ليس الجمال على علاته ـ حارة بدفورد تؤدي الى ميدان راسيل. إنه الاستقامة والفراغ بالطبع؛ تناظر الرواق؛ لكنه الجمال هو كذلك نوافذ مضاءة، بيانو، غرامافون يدور؛ حس بمزاولة المسرة خبيء، لكنه يظهر بين حينٍ وحين عندما يرى المرء خلال النافذة المنزوعة الستائر، خلال النافذة التي تُركت مفتوحة، جماعات تجلس الى موائد، شباباً يدورون ببطء، أحاديث بين رجال ونساء، خادمات يتطلعن الى الخارج بتكاسل (غريبةٌ تعليقاتهن، بعد إنجاز الأعمال)، جوارب تجفف على الرفارف العليا، ببغاء، بضع نباتات. إنها تخلب اللب حد الاستغراق، غامضة، ذات ثراء ثر، هذه الحياة. وفي الميدان الكبير حيث تمرق سيارات التاكسي وتدور سراعاً، ثمة أزواج يتسكعون، يتغازلون، يتعانقون، يقبعون تحت وابلٍ من ظل شجرة؛ هذا شيء يمس شغاف القلب؛ إنه شيء بمنتهى الصمت، بمنتهى الاستغراق، بحيث يمر المرء به بلياقة، وعلى استحياء، كما لو في حضرة حفلٍ ما مقدس، فالتطفل عليه ليس من التقوى في شيء. هذا شيء يثير الاهتمام. وهكذا مضى الى السطوع والبريق.

سار، ومعطفه الخفيف ينفتح للريح، بخصوصية تستعصي على الوصف، منحنياً الى الأمام قليلاً، وبخطى رشيقة، ويداه خلف ظهره وعيناه

ما زالتا أشبه قليلاً بعيني صقر؛ سار بخطاه الرشيقة عبر لندن، نحو حي ويستمينستر، وهو يلاحظ ما حوله.

هل الناس يخرجون للعشاء، إذن ؟ ثمة أبواب يفتحها بواب هنا لخروج سيدة عجوز رفيعة المقام متثاقلة الخطى، بحذاء ذي إبزيم، مع ثلاث ريشات أرجوانية من ريش النعام في شعرها. وأبواب تفتح لسيدات يتبرقعن كالمومياء بملافع عليها زهور براقة، وسيدات حاسرات الرؤوس. وفي الأحياء المحترمة ذوات الأعمدة الجصية خرجت نسوة من حدائق أمامية صغيرة، معصوبات بشدادات خفيفة، والأمشاط في شعورهن (كن قد هرعن الى الطابق العلوي للاطمئنان على الصغار)؛ رجالٌ ينتظرونهن بمعاطفهم وهي تنفتح للريح، والسيارة تشغّل. كل الناس يخرجون فبدا الأمر، مع هذه الأبواب وهي تفتح، والنزول والتشغيل، كما لو أن لندن بأسرها كانت تستقل زوارق صغيرة مربوطة الى الضفة، تتقاذف على الماء، كما لو أن المكان بأسره يمضي عائماً في مهرجان. ومبنى الوايتهول، كالفضة المطروقة، تغطيه خيوط العنكبوت، وثمة إحساس بوجود أقزام حول المصابيح المقوسة؛ كان الجو قائظاً بحيث أن الناس وقفوا يتكلمون. وهنا في حي ويستمينستر ثمة قاضٍ متقاعد على ما يفترض، يجلس متربعاً عند باب بيته بملابس بيضاء بالكامل. أنغلو ـ هندي على ما يفترض.

وهنا شجار بين نسوة متشاجرات، نسوة ثملات؛ هنا شرطي واحد وبيوت ضخمة لا غير، بيوت عالية، بيوت مقبّبة، كنائس، برلمانات، وصفير سفينة في النهر، صيحة جوفاء غابشة. لكنه شارعها، هذا، شارع كلاريسا؛ سيارات التاكسي تسرع في دورانها حول الركن، كالماء حول أعمدة الجسر، وقد انجذب بعضها الى بعض، كما بدا له، لأنها تحمل الذاهبين الى حفلتها، حفلة كلاريسا.

إن مجرى الانطباعات البصرية البارد قد خذله الآن كما لو أن العين كوبٌ فاض فسال منه الباقي على جدرانه الخزفية دون أن يترك اثراً. إن

على الذهن أن يفيق الآن. على البدن أن يتشنج الآن، وهو يدخل البيت، البيت المضاء، حيث الباب يظل مفتوحاً، حيث السيارات تقف، والنسوة المتألقات ينزلن : الروح يجب أن تواجه نفسها بشجاعة لكي تصطبر. فتح المدية الكبيرة في سكينته الجيبية.

هرعت لوسي نازلةً إلى الطابق الأسفل، بعد أن كانت قد هرعت تواً إلى صالة الاستقبال لتمسّ غطاءً، لتعدّل مقعداً، لتتوقف لحظة فتشعر أن الذين سيدخلون، كائناً من يكونون، لا بد سيقولون في أنفسهم ما أنظف هذا، ما أجمله، ما أشد التماعه، حين يرون الفضيات الجميلة، وقضبان الموقد النحاسية، وأغطية المقاعد الجديدة، والستائر القطنية الصفر. لقد قومت كل شيء من تلك الأشياء؛ سمعت هدير أصوات؛ الناس يصعدون أصلاً الى الصالة قادمين للسهرة بعد انتهاء العشاء؛ يجب أن تهرع على عجل !

قالت أكنيس إن رئيس الوزراء قادم : هكذا سمعتهم يقولون في صالة الطعام، وكانت تدخل حاملةً صينية من الأقداح. هل يهم هذا، هل يهم بأي شكل من الأشكال، سواءً زادت الوليمة رئيساً واحداً للوزراء أو نقصت ؟ لا يهم بالنسبة الى المسز ووكر في هذه الساعة من الليل وهي بين الصحون والقدور والصفايات والمقالي، والدجاج بالهلام، ومجمدات البوظة، وقشرة الخبز المكشوط، والليمون، وأواعي الحساء، وصحاف الحلوى، وهي كلها مهما غسلوها بعناية في غرفة غسل الصحون فكأنها تتراكم جميعها عليها، على طاولة المطبخ، على المقاعد، بينما تدوّي النيران وتهدر، وتسطع الأضواء الكهربائية، ولا يزال إعداد عشاء بارد متأخر أمراً لا بد منه. إن كل الذي شعرت به أنه لو زاد رئيس واحد للوزراء أو نقص فلا فرق بالنسبة الى المسز ووكر قيد أنملة.

قالت لوسي ان السيدات أخذن يصعدن؛ السيدات يصعدن، واحدة

فواحدة، آخرهن السيدة دالاواي وهي غالباً ما ترسل كلمة الى المطبخ. « حبي للمسز ووكر » كانت الكلمة ذات ليلة. ستتداولان صباح اليوم التالي حول الوجبات ـ الحساء، سمك السلمون؛ المسز ووكر تعلم أن السلمون لم ينضج طبخه كالعادة، ذلك أنها دائماً تنفعل عصبياً بشأن حلوى البودينغ فتترك السمك لجيني؛ وهكذا يحدث ما يحدث، والسلمون لا ينضج طبخه دائماً. لكن سيدة من السيدات، كما قالت لوسي، ذات شعر أشقر جميل وحلي فضية قد قالت بشأن الطبق الرئيس هل طبخ في البيت حقاً ؟ لكن السلمون هو الذي يضايق المسز ووكر، إذ هي تقلّب الصحون فتديرها وتديرها بين يديها، وتنشغل بتنظيم صمامات الموقد فتضغط هذا وتسحب ذاك لضبط تيارات الهواء فيه؛ ثم إذا بضجة من الضحك تأتي من صالة الطعام: صوت يتكلم؛ ثم ضجة أخرى من الضحك ـ إن السادة الذوات مستأنسون بعد خروج السيدات. وقالت لوسي وهي تهرع داخلةً : النبيذ المعتق. السيد دالاواي أرسل طالباً النبيذ المعتق، من أقبية الامبراطور، النبيذ الامبراطوري المعتق.

حملت لوسي النبيذ عبر المطبخ. وحكت لهم وهي تلتفت الى الخلف كيف كانت الآنسة اليزابيث تبدو رائعة تماماً؛ لم تستطع أن ترفع عينيها عنها، بفستانها الوردي، وعلى جيدها القلادة التي قدمها لها السيد دالاواي. يجب على جيني أن تتذكر الكلب، كلب الآنسة اليزابيث الصغير الذي كان لا بد من حبسه لأنه يعض وتخشى اليزابيث من أنه قد يحتاج الى شيء. جيني يجب أن تتذكر الكلب. لكن جيني لن تصعد الى الطابق الأعلى وكل هؤلاء الناس في أرجاء المكان. إن سيارةً في الباب أصلاً؛ والجرس يرن ـ والسادة الذوات ما زالوا في غرفة الطعام يحتسون النبيذ المعتق!

ها هم أولاء يصعدون؛ هذا أول القادمين، والآن سيأتون سراعاً، بحيث أن المسز پاركنسون (تُستكرى للحفلات) ستترك باب الردهة منفرجاً، والردهة ستمتلىء بالسادة وهم ينتظرون (وقفوا ينتظرون، يمسّدون

شعورهم) بينما تخلع السيدات معاطفهن في الغرفة حذو الممر؛ حيث تساعدهن ألين بارنيت نفسها التي بقيت مع الأسرة مدة أربعين سنة، وتأتي كل صيف لتساعد السيدات، فتتذكر أمهاتهن حين كن فتيات، وهي مع أنها غير متصنعة أبداً لكنها تصافحهن، تقول « يا ستّي » بكل احترام، ومع هذا فثمة طريقة مازحة تحف بها، وهي تنظر الى الشابات، وتساعد الليدي لَفْجُويْ بكل لياقة حيث كانت تعاني من إشكالٍ ما في قميصها الداخلي. ولم تستطع الليدي لفجوي والآنسة أليس أن تشعرا أن امتيازاً ما بسيطاً من قبيل الفرشاة والمشط قد منح لهما لأنهما تعرفان المسز بارنيت منذ ـ فأسعفتها المسز بارنيت تقول : « ثلاثين سنة، ياستّي ». قالت الليدي لفجوي إن الشابات لم يكنّ يألفن استعمال أحمر الشفاه حين كن ينزلن في بورتون في الأيام السالفة. فقالت المسز بارنيت إن الآنسة أليس لا تحتاج الى أحمر الشفاه، وهي تنظر اليها بشغف. هنالك ستجلس المسز بارنيت، في غرفة المعاطف، تطبطب الفراء، تمسّد اللفاعات الاسبانية، ترتب منضدة الزينة، وتعرف كل المعرفة على الرغم من الفراء والمطرزات من منهن سيدة لطيفة ومن منهن ليست كذلك. قالت الليدي لفجوي وهي ترتقي السلالم : هذه هي صاحبتنا المعهودة، مربية كلاريسا العتيدة.

ثم تصلبت الليدي لفجوي في وقفتها. قالت : « الليدي والآنسة لفجوي » للمستر ويلكينز (يُستكرى للحفلات). ويتصرف هذا تصرفاً أصولياً رائعاً إذ ينحني ويرفع قامته، ينحني ويرفع قامته، ويعلن بحيادٍ تام لا تحيّز فيه : « الليدي والآنسة لفجوي. . . السير جون والليدي نيدهام. . الآنسة ويلد. . السيد ولش ». إن تصرفه الأصولي رائع؛ لا بد ان حياته العائلية فوق الشبهات، إلا أن من المستحيل فيما يبدو على كائن ذي شفتين خضراوين وخدٍ حليق أن ينحدر الى مهزلة إنجاب الأطفال.

قالت كلاريسا : « ما أشد سروري برؤياك ! » قالتها للجميع. ما أشد سروري برؤياك ! إنها في أسوأ أحوالها ـ تتكلف الاسراف في العاطفة،

غير مخلصة فيها. كانت غلطة كبيرة منه أن يحضر. دار في خلد بيتر ولش أنه كان ينبغي له البقاء في مكانه وقراءة كتابه؛ كان ينبغي له الذهاب الى قاعة موسيقية؛ كان ينبغي له البقاء في مكانه، لأنه لا يعرف أحداً هنا.

قالت كلاريسا في نفسها آه يا إلهي، الحفلة ستكون فاشلة؛ فاشلة كلياً، وشعرت بذلك في أقصى أعماقها إذ وقف أمامها اللورد ليكزام العزيز نفسه يعتذر لعدم حضور زوجته التي أُصيبت بالزكام في حفلة الحديقة بقصر بكنغهام. كلاريسا ترى بيتر بطرف عينيها وهو ينتقدها، هناك، في ذلك الركن. فيم تفعل هذه الأمور ؟ فيم تبغي القمم فتتلقفها النار ؟ ألا يحتمل أن تلتهمها النار على كل حال ! تحرقها وتحولها الى رماد ! أي شيء غير هذا أفضل؛ أن يمتشق المرء سراجه ويلقي به في التراب أفضل من أن يذوي ويتلاشى مثل إيلي هندرسون ومن لف لفها ! إنه لشيء استثنائي كيف أن بيتر ما أن يجيء ويقف في ركن حتى يدفعها دفعاً الى مثل هذه الحالات. إنه يجعلها ترى نفسها؛ ويجعلها تغالي. وهذه حماقة. لكنْ فيم جاء، إذن، لينتقد فقط ؟ فيم يأخذ دائماً ولا يعطي ابداً ؟ لماذا لا تجازف بطرح وجهة نظرها البسيطة ؟ ها هو يتسكع تائهاً، وعليها أن تكلمه. لكنها لن تحظى بالفرصة. تلك هي الحياة ـ المهانة، التخلي. وما كان يقوله اللورد ليكزام، هو أن زوجته لم توافق على ارتداء فرائها في حفلة الحديقة الملكية « لأنكن، يا عزيزتي، كلكن سواسية » ـ والليدي ليكزام في الخامسة والسبعين ! كم هو لذيذ أن يدلل أحدهما الآخر، هذان الزوجان العجوزان. كلاريسا تود اللورد ليكزام العجوز. والمسألة تهمها، مسألة حفلتها، وإنها لتبتئس تماماً إذ ترى أن كل شيء يجري بصورة غير صحيحة، كل شيء يأتي تافهاً. إن أي شيء، أي تفجّر، أي رعب، أفضل من أناس يتسكعون على غير هدى، يقفون في ركن في مجموعة، مثل إيلي هندرسون، ولا يعبأون حتى بالوقوف منتصبي القامة.

وتطايرت الستارة الصفراء بلطف بكل ما عليها من طيور الجنة، فكأن

أسراباً من أجنحةٍ محلقة تدخل الغرفة، وتخرج فوراً، ثم تعود. (ذلك أن النوافذ مفتوحة). وتساءلت إيلي هندرسون في نفسها تُرى هل يوجد تيار ؟ إنها معرضة للنزلات. لكنها لا تكترث لو أنها أفاقت غداً وهي تعطس؛ إنما هي تفكر في الفتيات بأكتافهن العارية، كونها مدربة على التفكير في الآخرين، درّبها والدها العجوز، الرجل المقعد، المرحوم مطران أبرشية بورتون، لكنه ميت الآن؛ ونزلاتها لا تنزل الى صدرها ألبتة، لا تنزل البتة. إنما هي تفكر في الفتيات، الفتيات الشابات بأكتافهن العارية، أما هي نفسها فإنها كانت على الدوام مخلوقة هزيلة بشعرها الخفيف وطلعتها الجانبية النحيفة؛ ولو أخذ الآن، وقد جاوزت الخمسين، يسطع فيها من خلال شعاعٍ ما خافت، شيء نقّاه الامتياز عبر سنين من انكار الذات، لكنه شيء يتوارى على الدوام، من جراء لطفها المثير للكآبة، وخوفها الهلوع الذي ينبعث من دخلٍ قدره ثلاثمئة باون، ومن حالتها التي لا حول لها فيها ولا طول (إنها لا تستطيع أن تكسب قرشاً واحداً) مما يجعلها مزعزعة الفؤاد، ويجعلها وبصورة متزايدة ليست أهلاً للقاء الناس الحسني الهندام الذين يقومون بمثل هذا النمط من الأمور كل ليلة من ليالي الموسم، ليست أهلاً للقاء السيدات اللائي لا يكلفن أنفسهن سوى قولهن لوصيفاتهن : « سأرتدي كذا وكذا »، في حين أن إيلي هندرسون تهرع خارجةً بعصبية فتشتري قرنفلات رخيصة، نصف دزينة، ثم تلقي بلفاعٍ على فستانها الأسود القديم. ذلك أن دعوتها إلى حفلة كلاريسا قد وصلتها في اللحظة الأخيرة. لم تكن مسرورة بها تماماً. وساورها هاجس ما أن كلاريسا لم تكن تنوي دعوتها هذه السنة.

وفيم تدعوها ؟ لا يوجد في الواقع أي سبب سوى أن كلتيهما تعرف الأخرى من قديم، بل إنهما في الواقع قريبتان. غير أنهما افترقتا بطبيعة الحال، كل الى سبيله لأن كلاريسا يلاحقها الآخرون كثيراً. وإنه لحدث عظيم بالنسبة اليها، الذهاب الى حفلة. وإنها لمتعة كبيرة مجرد رؤية الملابس الحلوة. أليست تلك هي اليزابيث، وقد شبّت، وشعرها مصفف

وفق الطراز السائد، بالفستان الوردي ؟ أجل إنها لا يمكن أن تكون قد تجاوزت السابعة عشرة. إنها وسيمة جداً، جداً. لكن الفتيات لا يرتدين فيما يبدو، عند حضورهن الحفلات أول مرة في حياتهن، فساتين بيضاء كما كان يقضي العرف. (يجب أن تتذكر كل شيء لكي تحدث به إيدث). الفتيات يلبسن أردية سبطة، ضيقة تماماً، وذيولها فوق الكاحلين بكثير. دار في خلدها أن هذا لا يليق.

وهكذا وببصرها الضعيف، اشرأبت إيلي هندرسون بعض الشيء، ولم تكن هي التي عبأت كثيراً بأنها لا تجد أحداً تتكلم إليه (فهي لا تكاد تعرف أحداً في الصالة)، وكانت تشعر بأنهم جميعاً أناس يثير اهتمامها التفرج عليهم؛ ساسة على ما يفترض؛ أصدقاء ريتشارد دالاواي؛ بل إن الذي عبأ بذلك كان ريتشارد ذاته الذي يشعر بأنه لا يسعه أن يدع المخلوقة المسكينة تستمر في وقوفها هناك طيلة الأمسية وحدها.

قال بطريقته الودودة : « حسناً، إيلي، كيف أمور الدنيا معك ؟ » فقالت إيلي هندرسون، وهي تتوتر عصبياً وتحمر خجلاً وتشعر بأنه لشيء لطيف منه جداً أن يأتي ويكلمها، قالت إن العديد من الناس يتأثرون بالحر أكثر مما يتأثرون بالبرد.

قال ريتشارد دالاواي : « نعم، فعلاً. إي نعم ».

فما الذي يقوله المرء أكثر من هذا ؟.

قال أحدهم : « مرحباً، ريتشارد »، وتأبط ذراعه وسار به، فإذا به، والعياذ بالله، بيتر نفسه، بيتر المعهود. إنه مسرور برؤيته ـ مسرور جداً برؤيته ! إنه لم يتغيّر قيد شعرة. ومضيا معاً يخترقان الصالة، وينخس أحدهما الآخر نخسة خفيفة، كما لو أنهما لم يلتقيا من أمدٍ بعيد، كما حسبت إيلي هندرسون، وهي ترقبهما يذهبان، متيقنة أنها تعرف وجه هذا الرجل. رجل طويل، متوسط العمر، ذو عينين جميلتين نوعاً ما، أسمر، يرتدي النظارات، وقسماته شبيهة بالممثل جون باروز. إيدث ستعرف بالتأكيد.

تطايرت الستارة مرة أخرى بسربها من طيور الجنة. ورأت كلاريسا ـ رأت أحدهم يدفع الستارة فيعيدها الى مكانها، ويستمر بالكلام. فالحفلة إذن ليست فاشلة ! ستمضي على ما يرام الآن ـ حفلتها. لقد بدأت الحفلة. انطلقت، ولو أنها لا تزال بين بين. وعليها هي أن تقف هناك حالياً. يبدو أن الناس يتدفقون.

الكولونيل والسيدة غارود... السيد هيو ويتبريد... السيد باولي.. السيدة هيلبيري.. الليدي ماري مادوكس.. السيد كوين.. هكذا كان ويلكنز يرنّم الأسماء. وكلاريسا تتحدث مع كل قادم منهم ببضع كلمات، ثم يمضون فيدخلون الصالات. يدخلون الى شيء الآن، وليس الى لا شيء، إذ أن رالف ليون قد دفع الستارة وأعادها الى مكانها.

ومع هذا فإنه لجهد عظيم بالنسبة الى دورها هي. إنها لا تستمتع بالحفلة. والأمر أشبه شيء بكونها ـ محض شخص نكرة، يقف هناك؛ إن بوسع أي شخص أن يقيم حفلة؛ مع هذا فإنها معجبة قليلاً بهذا الشخص النكرة، ولا يسعها إلا أن تشعر بأنها، على كل حال، قد جعلت هذا يحدث، وبأن هذا يعني بلوغ مرحلة من المراحل، هذا العمود الذي شعرت بأنها قد آلت إليه، فالغريب بما فيه الكفاية أنها ليست كيف يبدو مظهرها، لكنها شعرت أنها وتدٌ دُقَّ في أعلى السلم. في كل مرة تقيم فيها حفلة يساورها هذا الشعور بأنها تغدو شيئاً غير نفسها، وبأن كل شخص آخر هو غير حقيقي من جهة، وحقيقي أكثر بكثير من جهة أخرى. ودار في خلدها أن الأمر يرجع جزئياً الى ملابسهم، وجزئياً الى كونهم قد أخرجوا عن أطوارهم الاعتيادية، وجزئياً الى سبب الوضع الذي تخلقه الحفلة حولهم؛ يمكنك أن تقول أشياء لا تستطيع أن تقولها بشكل آخر، أشياء تحتاج الى جهد؛ ويمكنك أن تغوص عميقاً جداً. لكن ليس بالنسبة اليها. ليس الآن على كل حال.

قالت : « ما أشد سروري برؤياك؛ » إنه السير هاري العزيز. وهو سيعرف جميع الموجودين.

أما الغريب جداً في هذا كله فهو الشعور الذي يساور المرء وهم يصعدون السلالم واحداً بعد آخر، السيد ماونت، ثم سيليا وهيربيرت إينستي، والسيد ديكورز ـ أوه، والليدي بروتون !

قالت : « مجيئك لطف كبير جداً ! » وعنت ما قالته ـ إنه لغريب كيف أن المرء وهو يقف هناك يشعر بهم يمضون، يمضون، بعضهم من الطاعنين في السن، وبعضهم. . . أيّ إسم هذا ؟ الليدي روزيتور ؟ لكن من بالله عليكم هي الليدي روزيتور ؟

« كلاريسا ! » إنه ذلك الصوت نفسه ! إنها سالي سيتون ! سالي سيتون ! بعد كل هذه السنين ! وهي تلوح من خلال ضباب. ذلك أن سالي سيتون لم تكن تبدو هكذا لما أمسكت كلاريسا بطست الماء الحار. فما بالك وهي تتخيلها تحت هذا السقف، تحت هذا السقف ! لا، لم تكن تبدو هكذا !

لقد وقعت إحداهما على الأخرى وقوعاً، وهما تحسّان بالحرج، ويتضاحكان، والكلمات تتدفق ـ مررت بلندن؛ سمعت بالحفلة؛ يا لها من فرصة لرؤيتك ! لذا أقحمت نفسي ـ بدون دعوة. . .

طست الماء الحار يمكن الاستغناء عنه بكل رباطة جأش. لقد زايلها البريق. مع هذا، كان شيئاً فائقاً أن تراها مرةً أخرى، أسنّ، أسعد، أقل روعة. قبّلت إحداهما الأخرى، أولاً من هذا الخد، ثم من ذاك، عند باب صالة الجلوس، والتفتت كلاريسا، ويدها بيد سالي، فرأت صالاتها ملأى، وسمعت هدير الأصوات، رأت الشمعدانات، والستائر المتطايرة والورود التي قدمها لها ريتشارد.

قالت سالي : « عندي خمسة أولاد ضخام ». إن فيها من الأنانية أبسطها، ومن الأماني الصريحة أمنية عدّها المتفوقة الأولى على الدوام. أحبتها كلاريسا لأنها لا تزال كذلك. صاحت وهي تشع بالسرور من قمة رأسها الى أخمص قدمها لدى التفكير في الماضي : « لا أستطيع أن أصدق هذا ! ».

لكن وا أسفاه؛ ويلكينز؛ ويلكينز يريدها؛ كان هذا ينفث اسماً واحداً، بصوت ينم عن سلطة آمره، كما لو أن على جميع الموجودين أن يأخذوا حذرهم وأن على المضيفة أن تعود الى صوابها وتترك الخزعبلات.

قال بيتر ولش : « رئيس الوزراء ».

رئيس الوزراء ؟ هل هذا واقع حقاً ؟ انتشت إيلي هندرسون. يا له من شيء تقوله لإيدث. والمرء لا يسعه أن يضحك منه. إنه يبدو شخصياً اعتيادياً جداً يمكنك أن تضعه في دكان وتشتري منه البسكويت ـ شخصاً مسكيناً، مموّهاً بالذهب. وإنصافاً له، وقد دار دورته بين المدعوين، أولاً بصحبة كلاريسا، ثم بصحبة ريتشارد، فإنه قد قام بذلك خير قيام. حاول أن يبدو شيئاً ما. كان من المؤنس مراقبة ما يجري. ما من أحدٍ تطلع اليه. إنهم استمروا كالمعتاد يتكلمون، مع هذا كان من الواضح تماماً أنهم جميعاً يعرفون، بل يشعرون في أقاصي أعماقهم، ان هذا الجلال يمرّ من أمامهم؛ هذا الرمز الى كل ما يؤمنون به، ألا وهو المجتمع الانكليزي. وطفت الليدي بروتون المعهودة من بين الجمع، وكانت تبدو أيضاً رائعة جداً، موفورة القوام بفستان الدانتيلا، فانسحبا معاً الى حجرة صغيرة أصبحت تواً موضع ترصد، واحتراس، ثم ترقرق نوع من التململ والهسهسة في الجميع علانيةً : رئيس الوزراء !

قال بيتر ولش في خاطره وهو يقف في ركنه، يا سبحان الله من عنجهية الانكليز. ما أشد حبهم للتزيي بالأشرطة وتقديم فروض التكريم ! ويا للمفاجأة ! لا بد أن يكون هذا ـ إي والله ـ هو هيو ويتبريد، يشمشم حول تخوم العظماء، وقد أخذ بالسمنة نوعاً ما، وعلاه الشيب بعض الشيء، هيو الرائع !

فكّر بيتر ولش أن هيو يبدو دائماً كما لو أنه في الواجب، وهو من أولئك الذين حباهم الحظ بالامتيازات، لكنه متكتم، يختزن الأسرار فيموت وهو يدافع عنها، وإن كانت ليست سوى نتفة من تقولات فاه بها ساع في

البلاط وستظهر في جميع الجرائد غداً. تلك هي ثرثراته وتفاهاته، وقد شاب رأسه في مداعبتها فبلغ حافة الشيخوخة متمتعاً بالاحترام والمودة من جميع الذين حازوا على امتياز التعرف الى هذا النمط من خريجي المدارس الخاصة الانكليزية. إن من المحتم أن يختلق أموراً كهذه بشأن هيو؛ ها هو أسلوبه؛ أسلوب تلك الرسائل الرائعة التي كان پيتر قد قرأها في التايمز عبر البحار بمسافة آلاف الأميال، وحمداً لله على أنه كان خارج هذه الجلبة المهلكة ولو أنه لم يحظَ إلا بسماع ثرثرة القرود ومشاهدة الحمالين الهنود وهم يضربون زوجاتهم. ثمة شاب حنطاوي البشرة من إحدى الجامعات يقف بجنب هيو خانعاً. هذا من سيرعى، ويربي، ليعلمه كيف يشق طريقه. ذلك أن أحب شيء الى هيو هو إبداء اللطف، وجعل قلوب العجائز تنبض بالجذل لأن أحداً ما يذكرهن في أواخر عمرهن، في محنتهن، وهن يحسبن أنهن صرن طعمة للنسيان التام، مع هذا فإن العزيز هيو يذهب بسيارته اليهن وينفق ساعة من الوقت في كلام عن الماضي، متذكراً صغائر الأمور، ممتدحاً معجنات البيت، ولو أن بمستطاع هيو أن يتناول أرقاها مع أشهر الدوقات في أي يوم يشاء، ثم اذا أنت نظرت إليه فربما ستجده قد أنفق جزءاً غير قليل من وقته في هذه الشغلة المحببة. إن الله العزيز القدير، الحسيب، الرحمن الرحيم، قد يصفح. أما پيتر ولش فلا يعرف الرحمة. لا مناص من وجود الأوغاد، ويعلم الله أن الأنذال الذين يشنقون لأنهم سحقوا رأس فتاة في قطار يحدثون من الأذى أقل على العموم مما يحدثه هيو ويتبريد ولطفه! أنظر إليه الآن، على أنامل قدمه، مترافصاً في مشيته الى الأمام، ينحني ماسحاً الأرض بقدميه، إذ ظهر رئيس الوزراء والليدي بروتون، لكي يرى الناس جميعاً أنه يحظى بامتياز يخوله أن يقول شيئاً، شيئاً خاصاً، للّيدي بروتون وهي تمر. لقد وقفت. هزت رأسها المعهود البديع. كانت تشكره كما يفترض على نتفة عمل من أعمال الخنوع. إن لديها من يتزلف اليها من صغار موظفي الحكومة، يقضون لها أشغالها، فتدعوهم بالمقابل الى

غداء. لكنها نشأت نشأة القرن الثامن عشر. وهي بخير.

والآن أخذت كلاريسا ترافق رئيس وزرائها على امتداد الصالة، متقافزة، متلامعة، بمهابة شعرها الأشيب. أقراطٌ في أذنيها، وفستانٌ فضيّ الخضرة ترتديه بلون حوريات الماء. كأنها تمشي الهوينى على الموج وتجدل ظفائرها، فهي لما تزل تتمتع بتلك الموهبة؛ أن تكن، أن توجد؛ أن توجز كل شيء فتقنصه في اللحظة الحاضرة وهي تمضي في طريقها؛ تلتفت وقد شبكت ملفعها في فستان إمرأة أخرى، فتفكّه، وتضحك، كل هذا بمنتهى اليسر وبسمت من يجري على رسله. لكن العمر قد مسّها بجناحه؛ إنها قد ترى في مرآتها، ولو كحورية ماء، غروب الشمس في أصيلٍ بالغ الصفاء على الأمواج. ثمة نسمة من رقة، ذاب الآن كل تشددها وإفراطها في الاحتشام، وحماقتها، فإذا بها يحفها مقام كريم يستعصي على الوصف وهي تودع الرجل المكتنز المموه بالذهب الذي بذل ما في وسعه ليبدو هاماً، فليوفقه الله؛ كما يحفها تودد رهيف؛ وكما لو أنها تتمنى خيراً للدنيا بأسرها ولكونها أترعت بعزائم الأمور فهي لا بد لها الآن من أن تستأذن بالانصراف. هكذا جعلته يتصور. (لكنه ليس مغرماً).

شعرت كلاريسا أن رئيس الوزراء كان بحضوره طيباً حقاً. إنها، وهي تسير معه على امتداد الصالة، مع وجود سالي هناك وپيتر هناك وريتشارد مسرور جداً، مع كل هؤلاء الناس الميالين نوعاً ما الى الحسد، ربما، قد شعرت بذلك السكر الآني، ذلك الاتساع في أعصاب القلب نفسه حتى يبدو وكأنه يرتعش مشبعاً، عزيزاً ـ أجل، لكن المسألة، الى ذلك، هي ما يشعر به الآخرون، هذا هو المهم فرغم محبتها إقامة الحفلات وما يشعرها ذلك من وخز ولسع. إلا أن هذه المخلفات، هذه الانتصارات (پيتر العزيز المعهود، مثلاً، يظنها لامعة جداً) ما زالت ذات خواء أجوف؛ إنها أمور على مبعدة، وليست في صميم القلب؛ وربما لأنها تأخذ بالكبر، فإن هذه الأشياء لم تعد تملؤها رضا كما كان دأبها في الماضي؛ وبغتة، وإذ رأت

رئيس الوزراء ينزل السلالم، فإن الاطار المذهب للوحة السير جوشوا للفتاة الصغيرة وعلى يدها قفاز الفراء أعاد كيلمان الى خاطرها سريعاً؛ كيلمان عدوتها؛ هذا يملأ النفس رضا؛ هذا حقيقي. آه، ما أشد كرهها لها ـ مغالية، منافقة، فاسدة، بكل تلك القوة، المغوية لأليزابيث، المرأة التي تسللت لتسترق وتشوّه (ريتشارد سيقول هذا هراء صرف !). إنها تكرهها؛ إنها تحبها. وما يريده المرء إنما هو الأعداء لا الأصدقاء ـ لا السيدة ديورانت وكلارا، لا السير وليام والليدي برادشو، ولا الآنسة ترولوك واليانور غبسون (التي رأتها تقبل صاعدةً إلى الطابق العلوي). إن عليهم أن يبحثوا عنها إذا أرادوها. إنها للحفلة !

ها هو صديقها العتيد السير هاري.

« عزيزي السير هاري ! » قالت وهي تقبل على صاحبنا المعهود الرائع الذي أنتج من اللوحات الرديئة أكثر بكثير مما أنتجه عضوا الأكاديمية الآخران من سكان حي سان جونز وود، (واللوحات لماشية دائماً، وهي تقف في بقع من أشعة الغروب وتتشرب الندى أو تومىء، لأن السير هاري ذو قدرة معينة على الايماء، برفع قوائمها الأمامية وبهزة من قرونها، إيماءةً تتمثل بلوحته « إقبال الرجل الغريب » ـ إن جميع فعالياته كعشاء خارج البيت أو مراهنة في سباقٍ للخيل تعتمد على ماشية تقف وهي تتشرب الندى في بقعٍ من أشعة الغروب).

سألته : « ما الذي تضحكون منه ؟ » ذلك أن ويلي تيتكومب والسير هاري وهيربيرت إينستي كانوا كلهم يضحكون. لكن لا. إن السير هاري لا يستطيع أن يروي لكلاريسا (على كل مودته لها؛ إنها بنظره مثالية بين نسوة من نمطها، ووعد برسمها) ما يسمعه من قصص المسارح. مازحها عن حفلتها. فاته تناول قدحه من البراندي. قال إن هذه الأوساط فوق مستواه. لكنه يودها، يحترمها، رغم تهذيبها اللعين، المتعصب، الخاص بالطبقة العليا، مما يجعل من المستحيل عليه أن يطلب من كلاريسا دالاواي أن

تجلس على ركبتيه. ثم إذا بتلك المرأة، ذلك السراب التائه، والتألق المبهم، السيدة هيلبوري المعهودة، تبسط يدها أمام توهج ضحكته (بشأن الدوق والليدي)، الضحكة التي بدت، إذ سمعتها كلاريسا عبر الصالة، وكأنها تطمئنها عن نقطة تزعجها أحياناً كلما أفاقت مبكراً في الصباح فتحجم عن مناداة وصيفتها طالبةً كوب الشاي : كيف أن من المؤكد أننا لا بد ميّتون.

قالت كلاريسا : « إنهم لا يريدون أن يحكوا لنا حكاياتهم ».

هتفت السيدة هيلبوري : « عزيزتي كلاريسا ! » قالت لها إنها تبدو الليلة شبيهة جداً بأُمها كما رأتها أول مرة وهي تسير في جنينة مرتدية قبعة رمادية.

ترقرقت عينا كلاريسا بالدموع فعلاً. أُمها، تسير في جنينة ! لكن واأسفاه، عليها أن تمضي.

ذلك أن البروفيسور برايرلي ها هنا، وهو الاستاذ الذي يحاضر عن ميلتون، وكان يتحدث مع جيم هاتون، الضئيل الجسم (الذي لم يتمكن حتى من أجل حفلة كهذه أن يرتب لنفسه ربطة عنق تناسب سترته أو أن يصفف شعره سبطاً)، وكانا يختصمان كما يتضح لكلاريسا حتى من هذه المسافة. ذلك أن البروفيسور برايرلي شخص غريب الأطوار. فرغم كل درجاته العلمية، وشهادات الشرف، والكراسي الدراسية التي يقتسمها مع مؤلفين تافهين، إلا أن الشك ليساوره فوراً بوجود جوٍ لا يلائم تركيبه الغريب الأطوار؛ لا يلائم علمه الغزيز واستحياءه؛ فتنته الكئيبة الخالية من الود؛ صدقه المشوب بالعجرفة؛ سيرتعش إذا رأى سيدة غير مصففة الشعر أو شاباً ينتعل الجزمة فيتذكر عالماً سرياً، هو عالم جدير بالاكبار ولا ريب، يتكون من متمردين، من شباب متحمسين؛ من عبقريات محتملة الظهور، فيشي وبهزة بسيطة من رأسه أو خنّة خافتة من أنفه ـ إمف ! ـ بأهمية تقدير الاعتدال؛ بأهمية الاطلاع على اللغات القديمة بغية تقدير ميلتون. ولم يكن

البروفيسور برايرلي (كما كانت كلاريسا ترى) قادراً على إبلاغ مرامه عن ميلتون بصورة مقنعة الى جيم هاتون الضئيل الجسم (الذي يرتدي جوارب حمراء لأن السوداء في الغسيل)، فقاطعتهما.

قالت إنها تحب باخ. كذلك يحبه هاتون. تلك هي الآصرة بينهما، وهاتون (شاعر رديء جداً) يشعر دائماً أن السيدة دالاواي هي أعلى شأواً من جميع السيدات العظيمات اللاتي يبدين اهتماماً بالفن. ما أعجب دقتها. موضوعية جداً بشأن الموسيقى. بالأحرى متفيقهة لكن ياللفتنة عند النظر إليها ! وبيتها بمنتهى الروعة، لولا من تعرفهم من هؤلاء الأساتذة. جال في بال كلاريسا أن تجره جراً وتضعه أمام البيانو في الغرفة الخلفية. ذلك أنه يعزف بصورة رائعة.

قالت : « ولكن الضوضاء ! الضوضاء ! ».

قال البروفيسور هازاً رأسه بمنتهى الكياسة : « هذه علامة الحفلة الناجحة ». وراح يمشي الهوينى بنعومة مرهفة.

قالت كلاريسا : « إنه يعرف كل شيء تحت الشمس عن ميلتون ».

فقال هاتون : « أهو كذلك حقاً ؟ » وهاتون يقلد حركات البروفيسور وسكناته في أرجاء هامستيد كافة. الاستاذ النحرير عن ميلتون؛ الاستاذ الجهبذ عن الاعتدال؛ حجة الأساطين يسير الهوينى بنعومة مرهفة.

على أن كلاريسا قالت إنها يجب أن تكلم هذين الاثنين. اللورد غايتون ونانسي بلو. لا لأنهما يزيدان ضوضاء الحفلة بشكل ملموس. لم يكونا يتكلمان (بشكل ملموس) وهما يقفان جنباً الى جنب قرب الستائر الصفر. وسرعان ما سيغادران الى محلٍ آخر، معاً. وليس عندهما ما يقولانه مطلقاً في أي ظرفٍ من الظروف. إنهما ينظران. هذا كل ما هنالك. هذا يكفي. وهما يبدوان بمنتهى النقاء، بمنتهى الخلو من العيب، هي بزهائها الملون من المساحيق والأصباغ، أما هو فيفرك يديه، يبلع ريقه، ينظر بعيني طير، حتى لا تفوته كرة أو تباغته ضربة. إنه يضرب، يقفز،

بمنتهى الدقة، في بقعته ذاتها، وعند ركوب الخيل يرتعش فك الحصان في رسنه. في حوزته نياشين وأنصاب للأسلاف، وعنده من الرايات ما هو معلق في كنيسة مسقط رأسه. ولديه واجباته ومستأجرو أراضيه؛ وأمه وأخواته؛ كان طيلة النهار في ساحة لوردز. وكان ذلك ما يتكلمان عنه، الكريكيت، الأقارب من أبناء العمومة، الأفلام السينمائية حين أقبلت عليهما السيدة دالاواي. اللورد غايتون يودها وداً مفرطاً. والأنسة بلو كذلك. وهي ذات قواعد في السلوك بمنتهى الفتنة.

قالت كلاريسا : « إنها نعمة من السماء ـ مجيئكما لذة كبرى ! » فهي تحب اللوردات. تحب الشباب، ونانسي قد تزيّت بأغلى الأثمان على يد أعاظم الفنانين في باريس، ووقفت كما أن جسدها قد ارتدى، وعلى هواه وبمحض مشيئته، حلة خضراء.

وأضافت : « كنت أنوي أن اجعل الحفلة راقصةً ».

ذلك أن الشباب لا يسعهم الكلام. وفيم ينبغي لهم أن يتكلموا ؟ إنهم يتصايحون، يتعانقون، يهزون أردافهم راقصين، يستيقظون فجراً يطعمون مهراتهم سكّراً؛ يقبّلون أنوف الكلاب الكبيرة الصينية المحبوبة ويعابثونها؛ وعندئذٍ يقفزون وهم ينبضون بالمشاعر الدافقة الى الماء فيسبحون. على أن منابع اللغة الانكليزية الثرة، وما تضفيه الى ذلك من قوة على مشاعر الوصال (في عمرهما كانت هي وبيتر يتجادلان طيلة الليلة) هي ليست منابعهم. إنهم سيتحجرون وهم شبان. سيكونون طيبين جداً تجاه العاملين في الضيعة، لكنهم حين يكونون وحدهم فإنهم مملون ربما.

قالت : « أنا آسفة ! كنت آمل أن أجعل الحفلة راقصة ».

كان لطيفاً منهما جداً أن يأتيا ! لكن ما بالها وحديث الرقص ! الصالات مكتظة.

ها هي عمتها هيلينا العجوز بملفعتها. وا أسفاه، إنها يجب أن تتركهما ـ اللورد غايتون ونانسي بلو. ها هي المس باري العجوز، عمتها.

ذلك أن المس پاري ليست ميتة : المس پاري حية ترزق. جاوزت الثمانين. تصعد السلالم ببطء على عصا. لقد أجلست في مقعد (ريتشارد أشرف على ذلك). ويأتون إليها دائماً بالذين عرفوا بورما في سبعينيات القرن الماضي. أين ذهب پيتر ؟ لقد كانا من خيرة الأصدقاء. ذلك أنها عند ذكر الهند، أو حتى سيلان، فإن عينها (الأخرى من زجاج) يتعمق لونها ببطء، تغدو زرقاء، فتبصر، لا الكائنات الانسانية ـ فهي لا تحمل ذكريات لطيفة، ولا أوهام خيلاء، عن نواب الملك والجنرالات والتمردات ـ بل زهور الأوركيد هي ما ترى، والممرات الجبلية، ونفسها محمولة على ظهور الحمالين في الستينيات فوق قمم منعزلة؛ أو هابطة تجتث الأوركيد (أزهار مذهلة، لم تشهدها عين من قبل أبداً) رسمتها بالألوان المائية إمرأة انكليزية لا يعجم لها عود، نكدة، لو داخل استقرارها شيء كالحرب مثلاً، التي أدت الى سقوط قنبلة عند بابها بالذات، لشاب الاضطراب تأملها العميق في أزهار الأوركيد أو تأملها في نفسها ذاتها وهي تطوف في الستينيات في الهند ـ لكن ها هو پيتر.

قالت كلاريسا : « تعال وكلم العمة هيلينا عن بورما ». ومع هذا فإنه لم يتبادل كلمة واحدة مع كلاريسا طيلة الليلة !

قالت : « سنتحدث بعدئذٍ »، وأخذته الى العمة هيلينا، بملفعتها البيضاء وعصاها.

قالت كلاريسا : « پيتر ولش ».

لم يعن ذلك شيئاً.

لقد دعتها كلاريسا. المسألة متعبة؛ الضوضاء مستمرة. لكن كلاريسا قد دعتها. فلذا أتت. من المؤسف أنهما يعيشان في لندن ـ ريتشارد وكلاريسا. كان من الأفضل لهما أن يسكنا في الريف ولو من أجل صحة كلاريسا فقط. لكن كلاريسا مشغوفة بالمجتمع دائماً.

قالت كلاريسا : « إنه كان في بورما ».

آه ! لا يسعها إلا أن تستذكر ما قاله تشارلز داروين عن كتيبها بشأن زهور الأوركيد في بورما. (كلاريسا يجب أن تحادث الليدي بروتون).

لا شك أنه طي النسيان الآن، كتيبها عن أزهار الأوركيد في بورما، لكنها أخبرت پيتر أنه طبع ثلاث طبعات قبل ١٨٧٠. تذكرته الآن. كان في بورتون (وتذكر پيتر ولش أنه كان قد تركها دون أن يتفوه بكلمة في غرفة الجلوس تلك الليلة حين طلبت كلاريسا أن يرافقهم في الزورق).

قالت كلاريسا تخاطب الليدي بروتون : « ريتشارد تمتع جداً بوليمة الغداء ».

فأجابت الليدي بروتون : « كان ريتشارد أعظم من قدم المساعدة الممكنة. ساعدني في كتابة رسالة. وكيف حالك ؟ ».

قالت كلاريسا : « أوه، على أحسن حال ! » (الليدي بروتون تمتعض من مرض زوجات السياسيين).

« وها هو پيتر ولش ! » قالت الليدي بروتون (ذلك أنها لم تجد شيئاً آخر تقوله لكلاريسا؛ وإن كانت تودها. فهي ذات صفات حسنة عديدة؛ لكن ليس ثمة شيء مشترك بينهما ـ هي وكلاريسا. ربما كان من الأفضل لو أن ريتشارد كان قد تزوج من إمرأة أقل فتنة، لتساعده في عمله. لقد خسر فرصته في الوصول الى الوزارة). قالت : « ها هو پيتر ولش ! » وهي تصافح ذلك الآثم المقبول، ذلك الشخص القدير جداً الذي كان يجب أن يصنع إسماً لنفسه فلم يفعل (دائماً في مشاكل مع النساء) ثم، بالطبع، ها هي المس پاري العجوز. سيدة عجوز رائعة !

وقفت الليدي بروتون جنب مقعد المس پاري كطيفٍ مهيمن يتشح بالسواد، وهي تدعو پيتر ولش الى الغداء؛ لطيفة المعشر؛ لكنها بلا أقاويل فارغة، ولا تتذكر شيئاً على الاطلاق عن نباتات الهند وحيواناتها. لقد كانت هناك بالطبع؛ وأقامت مع ثلاثة من نواب الملك؛ وهي تحسب بعض المدنيين الهنود لائقين بشكل يفوق المعتاد؛ لكنْ يا لها من مأساة ـ حالة

الهند. إن رئيس الوزراء قد أطلعها على الحالة تواً (المس پاري العجوز، وهي متكورة بملفعتها، لا تعبأ بما كان رئيس الوزراء يطلعها عليه)، والليدي بروتون تود أن تحصل على رأي پيتر ولش، كونه حديث عهد بالأمور، وهي ستتصل بالسير سامبسون للاجتماع به، ذلك أن الأمر يحول حقاً بينهما وبين النوم ليلاً، الحماقة التي ترتكب، بل الخبث، فهي إبنة رجل عسكري. إنها الآن إمرأة متقدمة في السن، لا تصلح لشيء كثير. لكن بيتها، خدمها، صديقتها الطيبة ميلي براش ـ هل يتذكرها ؟ ـ حاضرون للخدمة، ولا ينتظرون إلا أن تجنّد خدماتهم إن ـ إن كانوا، وباختصار، يستطيعون المساعدة. ذلك أنها لا تذكر انكلترا إلا وقالت جزيرة الرجال هذه، والأرض العزيزة، العزيزة، هذه، هي في دمها (دون أن تقرأ شكسپير)، ولئن أمكن لامرأة أبداً أن ترتدي الخوذة وترمي السهام، أن تقود القوات للهجوم، أن تحكم بعدالة لا تقهر قبائل بربرية، وتكمن مترصدةً تحت ترسٍ في كنيسة أو تقيم كثيباً من عشب أخضر على سفح تلٍ ما بدائي لما قبل التاريخ فتلك المرأة هي ميليسينت بروتون. ومع أن جنسها، وبعض التكاسل، أيضاً، قد جرّداها من ملكة المنطق (إنها لتجد من المستحيل عليها أن تكتب رسالة الى التايمز)، إلا أن فكرة الامبراطورية حاضرة عندها دائماً، كما أنها قد اكتسبت من اتصالها بتلك الآلهة المدرعة قوامها الممشوق كالقضيب، وصلابة سلوكها، بحيث أن المرء لا يستطيع أن يتخيلها، حتى وهي تموت، قد افترقت عن تربة الأرض أو تخلت عن الطواف في أمصار لم يعد يرفرف عليها العلم البريطاني روحانياً. ألاّ تكون إنكليزية حتى بين الموتى ـ لا، لا !مستحيل!

سألت الليدي روزيتور نفسها (وهي التي كانت تدعى سالي سيتون) تُرى هل هذه هي الليدي بروتون (وكانت تعرفها) ؟ هل هذا پيتر ولش وقد شاب ؟ هذه هي المس پاري المعهودة بالتأكيد ـ العمة العجوز التي كانت تمتعض منها حين تقيم معهم في بورتون. لن تنسى أبداً هرولتها

عارية على امتداد الممر فأرسلت المس پاري بطلبها ! وكلاريسا ! أوه كلاريسا ! كانت سالي قد أمسكت بها من ذراعها.

توقفت كلاريسا بجنبهم.

قالت : « لكن لن أستطيع التوقف طويلاً. سآتي بعدئذٍ »، وكانت تتطلع الى پيتر وسالي. قصدت أن عليهما الانتظار حتى يخرج كل هؤلاء الناس.

وقالت : « سأعود »، وهي تتطلع الى صديقيها القديمين، سالي وپيتر اللذين كانا يتصافحان، وسالي تضحك وهي بلا ريب تتذكر الماضي.

لكنّ صوتها كان خلواً من ثرائه الباذخ القديم؛ وعينيها لا تسطعان كما كانتا تسطعان، حين كانت تدخن السيجار، أو حين ركضت على امتداد الممر لتجلب اسفنجتها بلا غلالة تسترها، وألين أتكينز تساءلت : ماذا لو أن أحد السادة الرجال يلاقيها ؟ لكن الجميع كانوا يسامحونها. لقد سرقت دجاجة من مخزن المؤونة لأنها كانت جائعة في الليل؛ ونسيت كتاباً ثميناً لا يقدر بثمن في الزورق. لكن الجميع كانوا قد شغفوا بها حباً (عدا الوالد ربما). ذلك لحرارة عواطفها؛ لحيويتها ـ فهي ترسم، وهي تكتب. عجائز القرية لا يغفلن حتى اليوم عن تفقدها سائلات عن « صديقتك ذات المعطف الأحمر، صديقتك الذكية جداً ». كانت قد اتهمت هيو ويتبريد، من دون سائر الناس (وها هو صديقها القديم هيو، يتحدث الى سفير البرتغال)، بأنه قد قبّلها في غرفة التدخين ليعاقبها على ما قالته بوجوب أن يكون للنساء حق الانتخاب. إن الرجال غير المؤدبين يفعلون ذلك. وتذكرت كلاريسا أنها كان عليها إقناعها ألا تدين فعلته فتفضحه عند اجتماع الأسرة للصلاة، مما كانت قادرة على إتيانه بجسارتها، وتهورها، وحبها الميلودرامي أن تكون مركز كل شيء وأن تفتعل المشاجرات، وهو ما كان سيؤول برأي كلاريسا الى مأساة هائلة؛ الى موتها؛ الى استشهادها؛ في حين أنها عوضاً عن ذلك قد تزوجت، على غير توقع، من رجل أصلع ذي

قِحْف كبير، يملك كما يقال مصانع لنسيج القطن في مانشيستر. وإن عندها خمسة صبيان !.

إنها وبيتر جلسا معاً. كانا يتكلمان : وبدا الأمر معتاداً جداً ـ أن يتجاذبا أطراف الحديث. سيتحدثان عن الماضي. وكلاريسا تقتسم ماضيها معهما أكثر مما تقتسمه مع ريتشارد؛ الحديقة؛ الأشجار؛ جوزيف بريتكوف نفسه يغني برامز دون أي صوت؛ ورق الجدران في غرفة الجلوس؛ رائحة الحصير. لا بد من أن تكون سالي جزءاً من هذا دائماً؛ لا بد من أن يكون بيتر جزءاً من هذا دائماً. لكنها يجب أن تتركهما. ها هما السيد والسيدة برادشو، وهي لا تودهما.

عليها أن تصعد الى الليدي برادشو (بالرصاصي والفضي، توازن نفسها كأسد البحر على حافة حوض الماء، تعوي طلباً لدعوات الولائم، طلباً لرفقة الدوقات، فهي الزوجة النموذجية للرجل الناجح)، عليها أن تصعد الى الليدي برادشو وتقول. . .

قالت : « لقد تأخرنا بشكل مؤسف غاية الأسف، يا عزيزتي؛ كدنا لا نجرؤ على الدخول ».

أما السير وليام الذي بدا متميزاً جداً، بشعره الأشيب وعينيه الزرقاوين، فقد قال نعم؛ إنهما لم يستطيعا مقاومة الاغراء. كان يتحدث الى ريتشارد ربما بشأن تلك اللائحة التشريعية التي يريدان تمريرها في مجلس العموم. لماذا يجعلها مشهده وهو يتكلم الى ريتشارد تتلوى ألماً ؟ إنه يبدو في ظاهره طبيباً عظيماً. رجلاً على رأس مهنته، قوياً جداً، مجهداً نوعاً ما. فما بالكم بنوع المرضى الذين يأتون إليه ـ أناس في أقصى أعماق التعاسة؛ أناس على شفا الجنون؛ أزواج وزوجات. وعليه أن يفصل في مسائل ذات صعوبة مريعة. مع هذا ـ فما شعرت به هو أن المرء لا يتمنى أن يراه السير وليام تعيساً، لا، لا يتمناه من هذا الرجل.

سألت كلاريسا الليدي برادشو : « كيف حال إبنك في إيتون ؟ ».

قالت الليدي برادشو إنه رسب تواً في صفه الحادي عشر، بسبب النكاف. وتأثر والده حتى أكثر مما تأثر هو، حسب تصورها، وقالت: « لأن والده صبي كبير لا أكثر ».

نظرت كلاريسا الى السير وليام، وهو يتحدث الى ريتشارد. لم يبد على شاكلة صبي - ليس على شاكلة صبي بأية صورة من الصور.

كانت قد ذهبت ذات مرة مع أحدهم طلباً لاستشارته الطبية. كان رأيه مصيباً جداً. وكان تصرفه معقولاً جداً لكنْ يا الله - كان الخروج الى الشارع فرجاً! تذكرت ما رأته في غرفة الانتظار؛ كان أحد التعساء المساكين ينتحب. لكنها لا تدري ما أمرها مع السير وليام؛ ما هو بالضبط الشيء الذي يسوؤها. ريتشارد وحده يتفق معها، « إنَّه ثقيل على المعدة، وغير مستساغ ». لكنه قدير بشكل فائق. كانا يتكلمان عن تلك اللائحة. عن حالةٍ ما ذكرها السير وليام وهو يخفض صوته. حالة لها علاقة بما كان يقوله عن الآثار التي تخلفها رجّة القنابل. يجب أن تحتوي اللائحة على نصٍ ما.

تمتمت الليدي برادشو، وقد خفضت صوتها، وانتحت بالسيدة دالاواي الى ملاذ الأنوثة المشتركة، الى ملاذ الفخر المشترك بالصفات الباهرة للأزواج وميلهم المحزن الى العمل المفرط، تمتمت الليدي برادشو (المسكينة - فالمرء لا ينفر منها) توضح أنه « في لحظة خروجنا نُوديَ زوجي على التلفون، حالة محزنة جداً. شاب قتل نفسه (وهذا ما كان يتحدث به السير وليام الى السيد دالاواي). كان قد خدم في الجيش ». أوه! دار في خلد كلاريسا أن الموت يطل وسط حفلتها، الموت، هذا ما تصورته.

ومضت، فدخلت الصالة الصغيرة حيث ذهب رئيس الوزراء مع الليدي بروتون. لعل في الصالة أحداً. لكن لم يكن هناك من أحد. الكراسي لا تزال عليها آثار جلوس رئيس الوزراء والليدي بروتون، أثر

الليدي وقد جلست مستديرة باحترام، وأثره وقد جلس متربعاً، وبسطوة. كانا قد تكلما عن الهند. لم يكن هناك من أحد. هوى زهاء الحفلة الباذخ الى الأرض؛ كان الأمر الى هذه الدرجة من الغرابة وهي تدخل وحدها بكل بهائها الأنيق.

أي شأن لآل برادشو في أن يتكلما عن الموت في حفلتها ؟ ثمة شاب قد قتل نفسه، وإذا هما يتكلمان عن ذلك في حفلتها ـ آل برادشو يتكلمان عن الموت. إنه قد قتل نفسه ـ لكن كيف ؟ إن جسدها ذاته يمر بالتجربة نفسها كلما سمعت بغتة بحادثة ما؛ فستانها يشتعل وجسدها يحترق: لقد ألقى بنفسه من نافذة. وتصاعدت الأرض متوهجة؛ ونفذت فيه المناخس الصدئة، تخبطه خبطاً وترضّه رضّاً. وهو يستلقي هناك والخفق في دماغه يتوالى رجّةً، فرجّةٍ، ثم خَنْقُ الظلام. هكذا تراءى لها. لكن لماذا فعلها ؟ وآل برادشو يتكلمان عن المسألة في حفلتها !

كانت قد رمت مرة درهماً في بركة السرپنتاين [في متنزه هايد پارك]، ولا أكثر من ذلك أبداً. أما هو فقد رماه بعيداً. واستمروا هم في العيش (عليها أن تعود؛ الصالات لا تزال مزدحمة؛ الضيوف يتقاطرون). إنهم (كانت طيلة النهار تفكر في بورتون، في پيتر، في سالي). سيكبرون في العمر. كان هناك شيء جدير بالاهتمام؛ شيء ما، مجدول بالثرثرة، مشوّه، مطموس في حياتها ذاتها، يتداعى يومياً في التفسخ، في الأكاذيب، في الثرثرة. هذا الشيء حافظ هو عليه. الموت تحدٍ. الموت محاولة للتواصل، والناس يشعرون باستحالة الوصول الى المركز الذي يراوغهم على نحو صوفي؛ التقارب يتباعد؛ الوجه يذوي؛ الفرد وحيد. ثمة عناق في الموت.

لكن هذا الشاب الذي قتل نفسه ـ هل غاص ممسكاً بكنزه ؟ « لو كان لي أن أموت الآن، لكان لي الآن أسعد الموت »، كانت قد قالت هذا لنفسها ذات مرة وهي تنزل السلم وترفل بالبياض.

أم هناك الشعراء والمفكرون. فلنفرض أن لديه تلك العاطفة، وأنه قد ذهب الى السير وليام برادشو، طبيب عظيم، مع هذا فهو بالنسبة اليها شرير بصورة غير بيّنة، بلا شهوة أو شبق. بمنتهى التأدب مع النساء، لكنه قادر على الإغضاب الشنيع ـ إنه يُكره روحك، هذه هي المسألة ـ لو أن هذا الشاب كان قد ذهب إليه، فأثر فيه السير وليام، هكذا، بقوته، أما كان يقول (والحق أنها شعرت بذلك الآن فعلاً) : إن الحياة تُصيِّر شيئاً لا يطاق؛ إنهم يجعلون الحياة شيئاً لا يطاق، الرجال الذين هم على هذه الشاكلة !

ثم (وقد شعرت بذلك هذا الصباح فقط) هنالك الفزع؛ الشلل المهيمن، فالمرء إنما يعطيه أبواه الشيء في يديه، هذه الحياة، لكي يحياها حتى النهاية، لكي يصطحبها بسكينة؛ ثمة في أعماق قلبها خوف فظيع. بل إنها حتى في الوقت الحاضر، لو أن ريتشارد لم يكن جالساً هناك يقرأ التايمز فتستطيع هي أن تتكوّر كأنها طير فتأخذ بالانتعاش التدريجي، مطلقةً ذلك السرور الذريع يدوِّي في الآفاق، تفرك عوداً بعود، تحك هذا الشيء بذاك، لكانت قد هلكت. إنها نجت. لكن ذلك الشاب قتل نفسه.

تلك هي كارثتها على نحو ما ـ ذلك هو خزيها. وهو عقابها أن تشهد فناء رجل هنا وامرأة هناك في هذا الظلام الدامس، وهي مُلزمة بالوقوف هنا بفستان السهرة. إنها كانت قد مكرت؛ كانت قد نشلت. لم تكن أبداً جديرة بالاعجاب كلياً. كانت قد ابتغت النجاح، تشبهاً بالليدي بكسبورو وما يتبع ذلك. وكانت ذات مرة قد سارت على الشرفة في بورتون.

ما أعجب هذا، ما أغربه؛ إنها لم تكن بمثل هذه الدرجة من السعادة في الماضي أبداً. ما من شيء يمكن أن يكون وئيداً بما فيه الكفاية؛ ما من شيء يدوم طويلاً، دار في خلدها أنه ما من متعة يمكن أن تضاهي تعديل أوضاع المقاعد، أو دفع كتاب الى مكانه في رف المكتبة، وما أن تفعل هذا وبظفر الشباب حتى تفقد نفسها في كينونة العيش، لتعثر عليها، برجةٍ

من السرور، إذ تشرق الشمس، إذ يغيب النهار. كم من مرةٍ خرجت، في بورتون والجميع يتكلمون، لتنظر الى السماء؛ أو رأتها من بين أكتاف الناس على العشاء؛ كما تراها في لندن حين لا تستطيع النوم. سارت الى النافذة.

هذه السماء الريفية، تحوي، على ما في الفكرة من خطل، شيئاً من ذاتها، هذه السماء فوق ويستمينستر. فَرَّقَت الستائر؛ نظرت. أوه، لكن يا للعجب ! ـ ففي الغرفة المقابلة حملقت السيدة العجوز فيها مباشرةً ! كانت تذهب الى الفراش. والسماء. ودار في خلدها أنها ستكون سماء قدسية، ستكون سماء غسقية، تصعّر خدّها وهي ترفل بالجمال. لكنْ ها هي ـ باهتة الشحوب، تسابقها سريعاً سحب شاسعة متضائلة. كانت جديدة عليها. لا بد أن الريح قد هبت. والسيدة العجوز كانت تذهب الى الفراش، في الغرفة المقابلة. كانت مراقبتها شيئاً فاتناً، وهي تتجول، تلك السيدة العجوز، تخترق الغرفة، تأتي الى النافذة. هل تستطيع أن تراها ؟ إنه لشيء فاتن، والناس ما زالوا يضحكون ويتصايحون في صالة الاستقبال، أن تراقب تلك المرأة العجوز، وهي تذهب بهدوء تام الى الفراش وحيدة. لقد أسدلت الستارة الآن. بدأت الساعة تدق. الشاب قتل نفسه؛ لكنها لا ترثي له؛ إنها، والساعة تدق دقة، إثنتين، ثلاث، لا ترثي له، وكل هذا يستمر. وينتهي الأمر ! السيدة العجوز قد أطفأت ضياءها ! البيت بأسره مظلم الآن وهذا يستمر، هكذا كررت القول مع نفسها، وعادت اليها الكلمات : « لا تخشَي بعد اليوم قيظ الشمس » إنها يجب أن تعود اليهم. لكن يا لها من ليلة استثنائية ! لقد شعرت بصورة من الصور أنها شبيهة به ـ الشاب الذي قتل نفسه. شعرت بالسرور لأنه فعلها؛ رمى بالحياة بعيداً بينما هم يستمرون في العيش. الساعة تدق. الدوائر المثقلة تذوب في الهواء. لكنها يجب أن تعود. يجب أن تلم الشمل. يجب أن تبحث عن سالي وبيتر. وجاءت قادمة من الصالة الصغيرة.

قال بيتر : « لكن أين كلاريسا ؟ ». كان جالساً على الأريكة مع

سالي (فبعد كل هذه السنين لا يسعه حقاً أن يدعوها « ليدي روزيتور »). وسأل : « أين ذهبت المرأة ؟ أين كلاريسا ؟ ».

وافترضت سالي، كما افترض پيتر بهذا الشأن، أن بين الموجودين أناساً من ذوي الأهمية، من السياسيين، وكلاهما لا يعرفهم إلا عياناً في صور الجرائد، وهم ممن يجب أن تكون كلاريسا لطيفة تجاههم، أن تتحدث إليهم، إنها معهم. مع هذا فإن ريتشارد دالاواي ليس عضواً في الوزارة. افترضت سالي أن التوفيق لم يحالفه ؟ أما بالنسبة اليها فهي نادراً ما تقرأ الجرائد. إنها أحياناً ترى إسمه يُذكر في الصحف. على أنه ـ حسناً، إنها تحيا حياة العزلة التامة، في البراري، كما ستقول كلاريسا، بين كبار التجار وكبار الصناعيين، بين رجال هم على أية حال فعالون. وهي كانت فعالة أيضاً !

أخبرته قائلةً : « عندي خمسة أولاد ! ».

يا سبحان الله، أيّ تغيير قد طرأ عليها ! رقة الأُمومة؛ وأنانيتها ايضاً. وتذكر پيتر أنهما في المرة الأخيرة التي التقيا فيها كانت بين القنّبيط في ضوء القمر، والأوراق « كالبرونز الخشن » كما قالت بما كانت تتمتع به من نزعة أدبية؛ وكانت قد قطفت زهرة. كانت تذرع به المكان ذهاباً وإياباً في تلك الليلة الفظيعة، بعد المشاجرة قرب النافورة؛ كان عليه أن يلحق بقطار منتصف الليل. رباه، إنه كان قد بكى !

فكرت سالي وهو يفتح سكينته الجيبية أن هذه هي حيلته القديمة، يفتح ويغلق سكينته باستمرار كلما اعتراه الانفعال. لقد كانا حميمين جداً، جداً، هي وپيتر ولش حين كان مغرماً بكلاريسا، وحدث ذلك الشجار المرعب السخيف بشأن ريتشارد دالاواي على الغداء. أطلقت على ريتشارد اسماً آخر، « ويكهام » ؟ لماذا لا نسمي ريتشارد باسم « ويكهام » ؟ وثارت كلاريسا! والواقع أنهما لم تر إحداهما الأخرى منذ ذلك الحين، هي وكلاريسا، ربما فقط بضع مرات في السنوات العشر الأخيرة. وپيتر

ولش ذهب الى الهند، وهي سمعت بصورة غير واضحة أنه كان قد تزوج زواجاً غير سعيد، وهي لا تدري هل رزق بأطفال، ولا يسعها أن تسأله، فإنه قد تبدل. إنه متغضن الطلعة نوعاً ما، لكنه أرق جانباً، كما شعرت، وهي تكن له مودة حقيقة، ذلك أنه مرتبط بشبابها، وهي لا تزال تحتفظ بكتيب لأميلي برونتي كان قد أعطاها إياه، وكان يريد أن يكتب، يقيناً ؟ في تلك الأيام كان يريد ان يكتب.

سألته، وهي تبسط يدها، يدها الحازمة الجميلة، ثم تضعها على ركبتها بطريقة يتذكرها، قائلةً: «هل كتبت؟»

قال بيتر ولش : « ولا كلمة ! » فضحكت.

إنها لا تزال جذابة، لا تزال ذات شخصية قوية، سالي سيتون. لكن من هو هذا، روزيتور ؟ لقد حمل في عروقه زهرتين إثنتين من الكاميليا يوم زفافه ـ هذا كل ما يعرفه عنه بيتر. وكتبت اليه كلاريسا ايضاً : « عندهم ألوف مؤلفة من الخدم، وأميال من البيوت الزجاجية »؛ شيء من هذا القبيل. سالي أقرت بذلك بقهقهة ضاحكة.

« نعم، أكسب عشرة آلاف في السنة » ـ أما قبل الضريبة أو بعدها فهو ما لا تستطيع أن تتذكره، ذلك أن زوجها، « الذي يجب أن تقابله، وستوده »، هو الذي يقوم بكل ذلك نيابة عنها.

وسالي كانت تألف الأسمال والمزق. لقد رهنت خاتم جدها الأعلى الذي كانت ماري أنطوانيت قد أهدته له ـ إذا أسعفته الذاكرة ـ لكي تأتي الى بورتون.

أوه نعم، تذكرت سالي؛ لا يزال الخاتم عندها، خاتم من ياقوت كانت ماري انطوانيت قد قدمته الى جدها الأعلى. لم تكن تملك قرشاً واحداً في تلك الأيام، وكان الذهاب الى بورتون يعني دائماً غصة رهيبة في قلبها. لكن الذهاب الى بورتون كان يعني الكثير لها ـ لقد حال دون جنونها، كما تعتقد. لهذه الدرجة من التعاسة كانت حياتها مع أهلها. لكن

كل هذا هو شيء من الماضي ـ وقالت : كله قد انقضى الآن. والمستر پاري قد مات ! والمس پاري لا تزال حية ترزق. قال پيتر إنه لم يجابه صدمة كهذه في حياته على الإطلاق ! كان واثقاً بأنها ميتة. والزواج، كما تفترض سالي، هو زواج ناجح ؟ أما تلك الفتاة الوسيمة جداً، الرابطة الجأش جداً، فهي اليزابيث، هنالك، بجنب الستائر، بالرداء الوردي.

(كأنها شجرة حور، كأنها نهر، كأنها زنبقة، هكذا كان يتصورها ويلي تيتكوم. أما هي فكانت تقول في نفسها ما ألطف أن تكون في الريف وتفعل ما تشاء ! كانت واثقة بأنها تسمع كلبها المسكين يعوي). قال پيتر ولش إنها لا تشبه كلاريسا بأية صورة من الصور. قالت سالي : « أوه، كلاريسا ! »

إن الذي تحسه سالي ببساطة هو هذا. إنها مدينة لكلاريسا بالكثير جداً. لقد كانتا صديقتين، لا زميلتين، إنما صديقتان، وهي لا تزال ترى كلاريسا ترفل بالبياض وتتجول في ارجاء البيت ويداها مليئتان بالأزهار ـ والى هذا اليوم تجعلها زروع التبغ تفكر ببورتون. لكنها ـ هل يفهم پيتر ؟ ـ ينقصها شيء ما. ينقصها ماذا ؟ إنها ذات فتنة؛ ذات فتنة فائقة. لكنْ وبصراحة (إنها تشعر بأن پيتر هو صديق قديم، صديق حقيقي ـ هل يهم الغياب ؟ هل تهم المسافة ؟ كثيراً ما أرادت أن تكتب اليه، لكنها كانت تمزق ما تكتب، مع هذا شعرت بأنه يفهم، ذلك أن الناس يفهمون بلا كلام، مثلما يدرك المرء أنه يكبر في السن، وكبيرة في السن صارت هي، وكانت بعد ظهر هذا اليوم قد زارت أبناءها في إيتون، حيث أصيبوا بالنكاف)، وبصراحة تامة، إذن، كيف استطاعت كلاريسا أن تفعلها ؟ ـ أن تتزوج من ريتشارد دالاواي ؟ صياد، لا يعبأ إلا بالكلاب. إنه حين دخل الغرفة فاحت منه رائحة الاسطبلات، حقاً. وثم كل هذا ؟ لوّحت بيدها.

وكان الذي أشارت إليه هو هيو ويتبريد، يمشي ماضياً بصداره

الأبيض، باهتاً، بديناً، أعشى، وقد زايله كل ما كان فيه سوى تفخيم الذات والراحة.

قالت سالي : « إنه لن يعرفنا ». والحق أنها لم تكن لديها الشجاعة ان - فإذن هذا هو هيو ! هيو الرائع ! سألت پيتر : « وماذا يشتغل ؟ »

فأخبرها پيتر أنه يصبغ أحذية الملك او يحصي القناني في قصر وندزور. لا يزال پيتر يحافظ على لسانه القارص ! قال، لكنْ على سالي أن تكون صريحة، قال خبريني عن تلك القبلة، قبلة هيو.

طمأنته أنها كانت على الشفتين، في غرفة التدخين، ذات مساء. فانطلقت مباشرة الى كلاريسا وقد استشاطت غضباً. فقالت كلاريسا إن هيو لا يفعل مثل هذا ! هيو الرائع ! إن جواربه أجمل ما رأت في حياتها بدون استثناء - والآن بدلته للسهرة. مثالية ! هل لديه أطفال ؟.

فقال لها پيتر : « كل من في الصالة لديه ستة أبناء في إيتون باستثنائه هو ». وحمداً لله انه لا أبناء لديه، لا أولاد، لا بنات، لا زوجة. قالت سالي : على العموم، إنه لا يبدو مهتماً. ودار في خلدها أنه أصغر سناً من أيّ منهم.

قال پيتر : لكنْ، ما فعله كان شيئاً سخيفاً، من نواحٍ عديدة، أن يتزوج على تلك الشاكلة؛ قال : « كانت الفتاة بمنتهى السخفَ ». وأضاف : « لكننا استمتعنا بأروع الأوقات في زواجنا »، فتساءلت سالي في نفسها عجباً ؟ كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟ ما الذي يعنيه ؟ ما أعجب أن تعرفه وألا تعرف مع هذا شيئاً مما حصل له. هل قال ذلك من قبيل عزة النفس ؟ محتمل جداً، فلا بد أن يكون الوضع بالنسبة اليه مريراً على كل حال (رغم أنه غريب الأطوار، خبيث من نوع ما، وليس رجلاً اعتيادياً على الاطلاق)، لا بد أنه يحس بالوحشة بعمره هذا دون بيت يذهب إليه. لكنه يجب أن يأتي فيقيم عندهم لأسابيع وأسابيع. بالطبع إنه سيأتي؛ إنه يحب أن يقيم عندهم، وهذا ماذكّرها. فطيلة هذه السنين لم يقم آل دالاواي

بزيارتهم ولا مرة واحدة. لقد وجهوا اليهم الدعوة المرة تلو المرة. وكلاريسا (إنها كلاريسا بالطبع) لا تريد أن تأتي. قالت سالي، السبب لأن كلاريسا في دخيلتها متنفّجة ـ وعلى المرء أن يقر بذلك، متنفجة. وهي مقتنعة بأن هذا هو الشيء الذي بينهما. كلاريسا ترى أنها قد تزوجت دون مستواها، لأن زوجها ابن عامل منجم ـ وهي فخورة بذلك. إن كل قرش يملكونه قد كسبه زوجها بعرق الجبين. وحين كان صبياً (تحشرج صوتها) كان يحمل على ظهره شوالات كبيرة.

(وشعر بيتر بأنها ستستمر في هذا الحديث على هذا النحو ساعةً بعد ساعة؛ ابن عامل منجم؛ الناس يظنون أنها تزوجت دون مستواها؛ أولادها الخمسة؛ وما هو الشيء الآخر ؟ ـ النباتات، الزهور الفنجانية، والليلج، والليلك الخّبازي النادر جداً، جداً، والذي لا ينمو أبداً شماليّ قناة السويس، لكنها هي، مع بستاني واحد، في ضاحية قرب مانشستر، لديها ألواح منها، ألواح فعلاً ! والآن فإن كلاريسا قد خلّفت كل ذلك وراءها، على ما هي عليه من نبوّ عن الأُمومة).

أمتنفجة هي ؟ أجل، من نواحٍ عديدة. أين هي طيلة هذا الوقت ؟ فالوقت يتأخر.

قالت سالي : « نعم، حين سمعت أن كلاريسا تقيم حفلة شعرت بأني لا يسعني إلا أن آتي ـ لا بد أن أراها مجدداً (وأنا أنزل في شارع فكتوريا، يكاد يكون مجاوراً لهم). وهكذا أتيت بدون دعوة ». ثم همست : « لكن، قل لي، أرجوك. من هذه ؟ ».

إنها السيدة هيلبوري، وكانت تتجه نحو الباب فالوقت قد تأخر كثيراً ! وتمتمت أن المرء، إذ تتطاول الليلة، وإذ يخرج الناس، أخذ يعثر على أصدقاء قدامى؛ على خبايا وزوايا هادئة؛ وعلى أروع المناظر. سألت هل يعرفون أنهم محاطون بجنينة مسحورة ؟ بأنوار وأشجار وبحيرات رائعة براقة وبالسماء. كانت كلاريسا دالاواي قد قالت إنها ليست سوى بضعة مصابيح

ساحرة في الحديقة الخلفية ! لكنها هي من السحرة ! فما هو إلا متنزه عام. . . وهي لا تعرف أسماءهم، أما انهم اصدقاء قدامى فبلى، أصدقاء بلا أسماء، أناشيد بلا ألفاظ، ودائماً من أحسن ما يكون. لكن هناك العديد جداً من الأبواب، وأمكنة لا تخطر على بال، وهي لا تستطيع أن تجد سبيلها.

قال پيتر : « السيدة هيلبوري المعهودة »؛ لكن من هي هذه الأخرى ؟ تلك السيدة التي وقفت بجنب الستارة طيلة الليلة دون أن تتكلم ؟ إنه يعرف وجهها؛ ربطها في ذهنه ببورتون. أليست هي التي كانت تفصّل الملابس الداخلية على المنضدة الكبيرة قرب النافذة ؟ ديڤيدسون، هل هذا إسمها ؟

قالت سالي : « أوه، هذه إيلي هندرسون ». كانت كلاريسا متعنتة معها جداً بالفعل. إنها قريبتها، فقيرة جداً. كلاريسا متعنتة مع الناس.

قال پيتر إنها لكذلك نوعاً ما. فقالت سالي، بطريقتها العاطفية، بدفقٍ من ذلك الحماس الذي اعتاد پيتر أن يحبها من أجله، ومع هذا فهو يهابه الآن قليلاً، اذ لهذه الدرجة من الافراط في الحماسة يحتمل أن تغدو ـ قالت سالي مع هذا فما أكرم كلاريسا مع أصدقائها ! وهذا من أندر الصفات، فإنها أحياناً في الليل أو في عيد الميلاد كانت تضع تلك الصداقة، وهي تحصي آلاء الله عليها، في المقام الأول. كانوا شباباً؛ هذه هي المسألة. وپيتر يحسبها ذات ميوعة عاطفية. ولقد كانت كذلك. ذلك أنها قد أدركها الاحساس بأن الشيء الوحيد الذي يجدر قوله ـ إنما هو ما يحس به المرء. الذكاء سخف. على المرء أن يقول ببساطة ما يحس به.

قال پيتر ولش : « لكني لا أعرف بماذا أحس ».

قالت سالي في خاطرها : پيتر المسكين. لماذا لا تأتي كلاريسا وتتحدث اليهما ؟ ذلك هو ما يتوق إليه. إنها تعرف ذلك. إنه لم يفكر طيلة الوقت إلا في كلاريسا، وهو يعبث بسكينته.

قال پيتر إنه لم يجد الحياة بسيطة. علاقاته مع كلاريسا لم تكن

بسيطة. قال لقد أفسد ذلك حياته. (كانا حميمين جداً ـ هو وسالي سيتون، ومن الخطل ألا يقال ذلك). قال إن المرء لا يستطيع أن يحب مرتين. وما الذي تستطيع هي أن تقوله ؟ مع هذا، فمن الأفضل له أنه كان قد أحب (لكنه يحسبها ذات ميوعة عاطفية ـ كان قارص اللسان). إن عليه أن يأتي فيقيم معهم في مانشستر. قال : هذا كله صحيح جداً. كله صحيح جداً. يجب أن يأتي فيقيم معهم، فور إنجازه ما يجب عليه إنجازه في لندن.

وكلاريسا كانت قد اهتمت به أكثر مما اهتمت بريتشارد على الاطلاق، وسالي متأكدة من ذلك.

قال بيتر : « لا، لا، لا، ! » (ما كان ينبغي لسالي أن تقول ذلك ـ إنها تجاوزت الحد كثيراً). ذلك الرجل الطيب ـ ها هو هناك في نهاية الصالة، يبدي رأياً، هو هو كما كان أبداً، ريتشارد العتيد. سألت سالي : الى من يتكلم ؟ من هو ذلك الرجل المتميز الطلعة جداً ؟ فلأنها تعيش في الأماكن النائية صارت ذات فضول لا يشبع لمعرفة الناس. لكن بيتر لم يعرف من هو الرجل. قال إنه لا يود مظهره، ولعله عضو في الوزارة. قال إن ريتشارد برأيه أفضلهم جميعاً ـ أكثرهم تجرداً.

سألت سالي : « لكنْ ما الذي أنجزه ؟ » أعمال تتعلق بالمصلحة العامة، كما يفترض. سألت سالي وهل هما سعيدان معاً ؟ (هي نفسها سعيدة جداً)؛ ذلك أنها لا تعرف شيئاً عنهما، وهي تعترف بذلك، سوى أنها تستنتج استنتاجات متسرعة كما يفعل أي واحد منا، ذلك أنه ماذا يمكن للمرء أن يعرف حتى عن الذين يعيش معهم يومياً ؟ ألسنا كلنا سجناء ؟ كانت قد قرأت مسرحية رائعة عن رجل يخمش جدار زنزانته، فشعرت أن هذا ينطبق على الحياة ـ المرء يخمش الجدار. إنها كلما يئست من العلاقات الانسانية (الناس هم بمنتهى الصعوبة) فغالباً ما تركن الى حديقتها فتحصل من أزهارها على سكينة لا يوفرها لها الرجال والنساء ابداً. لكن لا، قال بيتر إنه لا يحب نباتات اللهانة؛ إنه يفضل الكائنات الانسانية.

قالت سالي، وهي ترقب أليزابيث تخترق الصالة، حقاً إن الشباب لجميل. ما أبعدها شبهاً بكلاريسا في سنّها ! هل يستطيع هو أن يحللها لمعرفة ما تنطوي عليه ؟ إنها لا تنبس ببنت شفة. وأقرّ بيتر بأنها لا تشبهها كثيراً، ليس الآن. قالت سالي إنها أشبه بزنبقة، زنبقة بجنب بركة. لكن بيتر لا يتفق معها بأننا لا نعرف شيئاً. قال إننا نعرف كل شيء؛ على الأقل هو يعرف.

همست سالي لكن هذان الاثنان، هذان الاثنان المقبلان الآن (وهي لا بد من أن تغادر فعلاً إن لم تأت كلاريسا سريعاً)، هذا الرجل المتميز المظهر وزوجته العادية المظهر اللذان يتكلمان الى ريتشارد ـ ما الذي يمكن للمرء أن يعرفه عن أُناس من أمثالهما ؟

قال بيتر : « يعرف انهما من الدجالين لعنهما الله »، وكان ينظر اليهما نظرة عابرة، فأضحك جوابه سالي.

لكن السير وليام برادشو توقف عند الباب لينظر الى لوحة. نظر الى زاويتها بحثاً عن اسم الفنان. زوجته نظرت أيضاً. السير وليام شديد الاهتمام بالفن.

قال بيتر، حين يكون المرء شاباً فهو شديد التوق الى معرفة الناس. والآن وقد تقدم في السن، هو في الثانية والخمسين على وجه التحديد (سالي في الخامسة والخمسين، في الجسد قالت، أما قلبها فأشبه بقلب فتاة في العشرين)؛ فإنه ناضج الآن إذن، وبوسعه أن يرقب، بوسعه أن يفهم، ولا يَفقد ملكة الاحساس. قالت سالي لا، هذا صحيح. إنها تحس على نحوٍ يزداد عمقاً، ويزداد توقاً كل عام. قال الاحساس يتزايد وا أسفاه، ربما يتزايد، لكن ينبغي للمرء أن يكون مسروراً بذلك ـ لقد استمر الاحساس بالتزايد لديه حسب تجربته. هناك في الهند فتاة يود أن يخبِر سالي عنها. يود أن تعرفها سالي. قال إنها متزوجة. عندها ولدان صغيران. قالت سالي يجب أن يأتوا جميعهم الى مانشستر ـ يجب أن يعدها قبل ان يغادرا.

قال بيتر : « ها هي اليزابيث. إنها لا تحس بنصف ما نحس به،

ليس الآن ». قالت سالي، وهي ترقب اليزابيث وكانت تذهب الى والدها : « لكنْ من الواضح أنهما محبّان لبعضهما باخلاص ». بوسعها أن تشعر بذلك من الطريقة التي بها ذهبت اليزابيث الى والدها.

ذلك أن والدها كان ينظر اليها، إذ وقف يتكلم مع السيد والسيدة برادشو، ففكر في نفسه من تكون تلك الفتاة الحلوة ؟ وفجأة أدرك أنها إبنته اليزابيث، ولم يكن قد ميّزها، فقد بدت على درجة قصوى من الحسن بردائها الوردي ! أحست اليزابيث أنه كان ينظر إليها إذ كانت تتحدث الى ويلي تيتكوم. فذهبت الى والدها ووقفا معاً، الآن وقد انتهت الحفلة أو كادت، وهما ينظران الى الناس يخرجون، والصالة باتت أخلى فأخلى، والأشياء متناثرة على الأرض. حتى إيلي هندرسون كانت تخرج، وتكاد تكون آخر الجميع، وإن لم يكلمها أحد، لكنها أرادت أن ترى كل شيء لكي تحدث به إيدث. كان ريتشارد واليزابيث مسرورين بالأحرى لأن الحفلة انتهت، لكن ريتشارد كان فخوراً بإبنته. إنه لم يشأ ان يخبرها بهذا، لكنه لم يستطع إلا إخبارها. قال : لقد نظر اليها فتساءل في نفسه ترى من تكون تلك الفتاة الحلوة ؟ فإذا بها إبنته ! أسعدها هذا. لكن كلبها المسكين يعوي.

قالت سالي : « ريتشارد قد تحسن. وأنت على حق. سأذهب إليه أكلمه. أودعه ». وأضافت الليدي روزيتور وهي تنهض : « ماذا يهم الدماغ قياساً بالقلب ؟ ».

قال پيتر : « سآتي أنا ايضاً »، لكنه استمر جالساً لحظة. ما هو هذا الفزع ؟ ما هي هذه النشوة ؟ هكذا فكّر في نفسه. ماالذي يملأني بالانفعال المفرط ؟

قال إنها كلاريسا.

ذلك أنها كانت هناك.



السيّدة دالاوي

هذا الكتاب رواية مشهورة، لكاتبة إنكليزية من أعظم كتّاب النصف الأولى من هذا القرن. وروايتها هذه بالذات أحد أسباب شهرتها وقيمتها في عالم الأدب، إذ إن المؤلفة بروايتها " السيدة دالاواي" ساهمتت في تأسيس طريقة جديدة في الكتابة الروائية تتعدى السرد التقليدي - وهي التي عرفت بتيار الوعي. وهي طريقة تعتمد التداعي الحرّ وترابط الحاضر والماضي، وتداخل الوعي والحلم، مع شاعرية تستمر في نبضها ووهجها من البداية حتى النهاية. والمؤلفة بطريقتها هذه تنساب بالقارىء إلى دواخل كل شخصية، وتجعله يشاطر الضحية ذكرياتها وأحاسيسها وردود فعلها الآنية ورؤاها، بحيث يرى أبطال الرواية في النهاية من زوايا لا يتيحها السرد التقليدي. وقد كان في " تيار الوعي" الذي أبدعت فيه فرجينيا وولف إضافة أساسية كبرى إلى أساليب الفن الروائي في القرن العشرين. ومن هنا أهمية هذه الرواية.

والترجمة دقيقة، وبارعة، وجميلة، رغم أن النص الإنكليزي هو من ذلك النوع من السهل الممتنع الذي يكاد يستعصي على الترجمة لشدة رهافته وثراء قرائنه الذهنية . لقد وفق المترجم في جهده فأوجد نصاً يمتاز بالأمانة للأصل، ويقاربه في الوقت نفسه شاعرية وسلاسة.

جبرا إبراهيم جبرا



